تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوسطى

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. اسمت محمود غنيم
أستاذ التاريخ بآداب الإسكندرية

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

الامبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعى لدراسة تاريخ أوربا فى العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية فى أقصى مراحل قوتها وعظمتها • وليس معنى هذا أن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وانما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التى كيفت التاريخ الأوربى في العصور الوسطى(١) • هذا الى أن حضارة أوربا فى العصور الوسطى ليست فى حقيقة أمرها الا مزيجا من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربريه التى اجتازت حدود الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختطلت بأهاليها من جهة أخرى(٢) •

والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر لامبراطورية أخرى فى تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع • ذلك أن هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة — باستثناء فارس والهند — وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) (٣) • وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غربا حتى الفرات شرقا ، فشملت فى الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وأيبريا وايطاليا واليريا فضلا عن شمال أفريقية من المحيط الأطلسى حتى طرابلس ، فى حين شمل الجزء الشرقى من الامبراطورية

---

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 3.
(3) Cary : A Hist. of Rome down to the Reign ef Constantine, pp. 646.647.

البلقان وآسيا الصغرى وأعالى بلاد النهرين فصلا عن الشام ومصر وبرقه(١). هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد بعيدا الى ما وراء حدودها السياسيه ، حتى بلغ فارس والهند ، وتطرق الى النوبة والسودان ، ونفذ الى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال أطلس ، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب(٢) .

وترجع عظمة الامبراطورية الرومانية الى أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف ، وعلى تلك الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات ، الأمر الذى تطلب من الحكومة الرومانية اصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى وحضاراتها ولغاتها ودياناتها . وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الامبراطورية الرومانية ومثار الاعجاب بها ، وانما تبدو هذه العظمة واضحة جلية فى مقدرة امبراطـــورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين ، جنبا الى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد وما زالت فى فجر تاريخها مثل الغاليين والرومان . وهنا نلاحظ أن امتداد الامبراطورية الرومانية على شواطىء البحر المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف أجزائها ، فى حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين اطراف الولايات(٣) ، هذا فضلا عن الطرق المعبدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان ، والتى أقاموا منها شبكة واسعه مترامية ليس لها نظير فى التاريخ(٤) .

وكانت الامبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها — وهى الفترة الواقعة بين قيام أوغسطس سنه ٢٧ ق.م. ووفاة ماركوس أورليوس ١٨٠ م — تمثل بناء اجتماعيا سليما مترابط البنيان . ذلك أنها كانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن

---

(1) Chapot : Le Monde Romain, pp. 68-71.
(2) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1. p. 4.
(3) Rostovtzeff : A Hsit. of the Ancient World, Vol. 2. p. 286.
(4) Chapot : Le Monde Romain. p. 103-105.



الأمبراطورية الرومانية
فى القرن الرابع الميلادى

نظام ادارى امتاز بالكفاية والدقة ، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح فى ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية(١) .

أما عن طابع الحكومة الرومانية فى أوائل عصر الامبراطورية ــ أى حتى الاصلاحات العظيمة التى أدخلها دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث ــ فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق(٢) ، أو ربما كان من الادق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصبه طوال حياته . وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة ، واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضى ، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وان فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية(٣) . ولذلك يبدو من الخطأ أن ننظر الى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة . حقيقة انها لم تكن ملكية دستورية ، ولكنها امتازت ــ ولا سيما فى العصر الأول للامبراطورية ــ بسيادة العرف والتقاليد والقانون ، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا(٤) .

والواقع أن النظام السياسى الذى وضعه أوغسطس (٢٧ ق.م ــ ١٤ م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكى الاستبدادى والجمهورى الدستورى(٥) . ذلك أنه كان أمام أوغسطس ان يختار بين نظامين للحكم ، الأول نظام قيصر الذى قام على أساس حكم عسكرى اعترف فيه جميع الناس ــ سواء فى ايطاليا أو الولايات ــ بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى ، والثانى نظام الحكم الجمهورى

---

(1) Thompson : op. cit. pp. 4—5.
(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 : p. 160.
(3) Stephenson : Mediaeval History, p. 6.
(4) Lot : The End of the Ancient World, pp. 6—7.
(5) Cam, Ancient Hist, Vol. 10. p. 158—168.

الذى يقر أهمية المواطنين الرومان فى ايطاليا والولايات الى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة • وهنا لجأ أوغسطس الى التوفيق بين النظامين ، أى بين الزعامه العسكرية التى ورثها عن أسلافه والتى أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الامبراطورية وأمنها وصالحها العام ، وبين رغبة المواطنين الرومان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة - على الأقـــل فى الميدانين الاجتماعى والاقتصادى ، ان لم يكن فى الميدان السياسى (١) • وهكذا نبذ أوغسطس حكم تيصر المطلق ولكنه ركز فى يد الامبراطور معظم السلطات التى اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى ، وبخاصة القيادة الحربية التى انتقلت من أيدى القناصل الى يد الامبراطور • واذا كان السناتو قد ظل محتفظا بهيبته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد ، الا أن سلطاته التشريعية والقضائية والادارية تناقصت بصورة واضحة(٢) ، كمـا أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف أنحاء الامبراطـــورية على الاطلاق ، بعد أن كان فى العصر الجمهورى يمثل أقلية ممتازة محدودة ، مما جعل الطبقة السناتورية Senatorial Class تعتمد على أوغسطس اعتمادا تاما(٣) •

وقد عاب بعض المؤرخين على الامبراطورية الرومانية فى أوائل عهـــدها افتقارها الى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الامبراطور • ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها • ذلك أن ثمة حقيقـــة كبرى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، هى أن الامبراطـــورية الرومـــانية فى عصرها الأول لم تـكن مجـــرد امبراطـــورية فى قالب جمهورى فحسب ، بل كانت استمرارا للنظام الجمهورى الســـابق وامتدادا له ، مما تعذر معه وضـع قانـــون وراثى ثابت للحـــكم دون

(1) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. pp. 175—176.
(2) Cam Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161—165.
(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 191.

التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الامبراطورية الجديدة(١) • وعلى هذا فقد كان من الصواب – بل من الضرورى من الناحية السياسية – أن تحتفظ الامبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادىء الجمهورية القديمة مازالو يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوى فى السناتو •

على أن ضعف الامبراطورية الرومانية أخذ يبدو واضحا فى القرن الثالث، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الأباطرة واقامة غيرهم بعد أن كان الجيش خادما مخلصا للامبراطور(٢) • ولم تلبث الفرق الامبراطورية فى مختلف الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الامبراطور والسناتو ، مما جعل الأباطرة وأعضاء السناتو ألعوبة فى أيدى رجال الجيش (٣) • ولكن لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن جميع أباطرة القرن الثالث كانوا غير أكفاء فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتميوس سفروس (١٩٣ – ٢١١) مقدرة كبيرة ، على الرغم من نزعته الاستبدادية ، حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الامبراطورية والنظم الرومانية جميعا • وقد استطاع هذا الامبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥ ، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١ – ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الامبراطورية من الأحرار(٤) • ومهما يكن من أمر ، فان الفضل يرجع الى الامبراطور سبتميوس سفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية • ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الأباطرة الى رجال الجيش فى النصيحة التى قدمها هذا الامبراطور

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 8.
(2) Cary : op. cit. pp. 721—723.
(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 303.
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 33.

الى أبنائه وهو على فراش الموت ، اذ قال « أجزلوا العطاء للجند ، ولا تهتموا بالآخرين(١) » .

وبتولى الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ — ٢٥١) منصب الامبراطورية ، بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى ، حتى جعلوا من الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الامبراطور والضغط على أهالى الامبراطورية . وهكذا أمست الحاجة ملحة فى الداخل الى اصلاح النظم الادارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة . أما فى الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط الجرمان وبخاصة على جبهتى الراين والدانوب ، فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية (٢).

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عمت الامبراطورية عقب انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥ ، ظهر جندى دلماشى من أصل متواضع — هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) — ليتدارك الموقف ويعالج مشاكل الامبراطورية فى عزم واصرار ، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الامبراطورية . ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية فى أواخر أيامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة . ففى الداخل تفاقمت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على حدود الامبراطورية(٣) . وبعبارة أخرى فان العوامل التى أدت الى اضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى أواخر القرن الثالث(٤) .

---

(1) Lot : op. cit. p. 10.
(2) Ibid.
(3) Cary : op. cit. pp. 723—726.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 12.

ويحسن بنا قبل أن نعالج اصلاحات دقلديانوس ، أن نبدأ أولا باستعراض المشاكل الأساسية الهامة التى شكت منها الامبراطورية الرومانية فى القـــرن الثالث • وكانت أولى هذه المشاكل هى كيفية احتفاظ الامبراطورية الرومانية بوحدتها سليمة كاملة ، بعد أن اتجهت بعض الولايات ـ فى الشرق والغرب ـ نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية ، وقامت فيها فعلا ـ وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٢٠٠ ـ حركات ثورية انفصالية(١) • ومن الخطأ وسوء المبالغة أن ننسب هذه الحركات الى مطامع بعض الأفراد الطموحين ونتجاهل روح الاستياء والغضب التى عمت أهالى الولايات ، والتى كانت العامل الأساسى فى تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور • فاذا دققنا النظر فى معظم الثورات التى نشبت فى مختلف ولايات الامبراطورية منذ القرن الثالث ، وجدنا من ورائها جميعا عوامل مشتركة ـ اقتصادية واجتماعية وعنصرية ـ حركتهـــا وساعدت على سرعة اشتعالها • وهنا نشير الى أنه ليس من الصواب الأخـــذ بالرأى القائل بأن ازدياد تركيز السلطة الحكومية فى أواخر عهـــــــد الامبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الامبراطورية لأنه أدى الى كبت الروح العنصرية فى الولايات • فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت الى اتباع سياسة التركيز هذه فى أواخر عصر الامبراطورية نتيجة للفســـاد الذى عم الولايات فعلا ، ولا سيما بعد أن أصبح حكام الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة ، فى الوقت الذى أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن(٢) • لذلك لجأت الحكومة المركزية الى التدخل لمحاولة اصلاح الأوضاع الادارية فى الولايات ، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها ، فضلا عن الفصل بين السلطتين المدنية العسكرية فى الولاية(٣) وهكذا أخذ عدد الولايـــات الرومانية فى تزايد مستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز هذا العدد من ست وأربعين ولاية سنة ٤١ الى مائة وتسعة عشر ولاية سنة ٣٢٧•ولم يكن الانحلال

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24—25.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 25—26.
(3) Chapot : op. cit. p. 127.

فى الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الادارات المستقلة عن ادارة الولاية ـ أقل وضوحا منه فى حكومات الولايات ، فكثير من المدن أسرفت فى اقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات والمسارح والملاعب ، الأمر الذى تطلب زيادة اعباء الضرائب المحلية(١) وقد دفع ذلك بعض الأباطرة الى تعيين مراجعين ومحاسبين لفحص دفاتر بلديات المدن ، كما دفعهم أحيانا الى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى وجعلها تابعة لحكومة الولاية(٢) •

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الامبراطورية نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طـــرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر (٣) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث ، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية • وذلك أن الامبراطورية أصبحت مقسمة الى دوائر جمركية عـــديدة ، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح ٢٪ ، ١٢٪ ، هذا فضلا عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات ـ كالخضر والفواكه والطيور واللحوم ـ التى ترد اليها من الأقاليم المجاورة(٤) • وكان من المتبع أحيانا أن تكون هذه الضرائب عينية ، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف ، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية الفضية Chrysargyrum ، وهى الضريبة الرئيسية فى الانتاج الصناعى والتى سميت بهذا الأسم لأنها كانت تدفـــع نقدا(٥) •

ومهما يكن من أمر ، فـان العبء الأكبر للضرائب وقـــع على الأراضى والمزارعين • واذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة ، فان المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الأكبر من أعبـــاء الضرائب • ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى ، اذ تحرر كبار

---

(1) Dill : Roman Society from Nero to Marcus Aurelius pp. 245—250.
(2) Chapot : op. cit. pp. 113—125.
(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 317.
(4) Charlesworth : The Roman Empire, pp. 70—81.
(5) Lot : The End of the Ancient World, p. 121.

الملاك من هذا العبء الباهظ وألقوا به على كواهل المستأجرين ، عن طريق رفع قيمة الايجار أو عن طريق اثقالهم بالالتزامات والخدمات التى يتعين عليهم أداؤها للمالك(١) • أما المزارع الصغير فكان يلجأ الى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب ، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورين على الأرض ويصبح المزارع الحرقنا ، أو يترك مزرعته لينزح الى احدى المدن وينضم الى جموع الدهماء التى أخذت تتكاثر فى المدن الرومانيـــــة(٢) • وبالاضافة الى ذلك وجدت فى الامبراطورية الرومانية ضريبة اجبارية يؤديها أهل الولاية نقدا أو سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة • هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الأحــــرار ، والتى اقتصرت فى أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية الأحرار للحصول على ايراد أوفر وأعم ، وان كان هذا الاجراء قد ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة للامبراطورية ونظمها(٣) •

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا فى الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث • ذلك أن الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة ، بل صحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحــــدة ارتفاعا مستمرا(٤) • وقد أثر هذا الوضع تأثيرا خطيرا فى بناء المجتمـــع الرومانى الذى اختل توازنه نتيجة لأن الأغنياء ـ وهم الطبقة الارستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضى ـ ازدادوا غنى ، فى الوقت الذى ازداد الفقراء فقرا • أما الطبقة الوسطى فى المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت فى طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها الى فئة من الأتباع والعبيد

---

(1) Rostovstzeff ; op. cit., pp. 313—315.
(2) Katz : The Decline of Rome, p. 37.
(3) Rostovtzeff ; op. cit., Vol. 2 p. 317.
ويلاحظ أن الهدف الأساسى الذى توخاه كاراكلا من منح الجنســــــية الرومانية لجميع أهالى الولايات الأحرار ما زال موضع نقاش وجدل بين المؤرخين
(4) Chapot ; op. cit. pp. 106 — 111.

فى ميدان الزراعة والصناعة • كذلك أدى هذا الوضع الى تدهور الانتاج وانخفاض قيمة العملة التى لم يتردد بعض الأباطرة فى تزييفها والاكثار من سكها • ذلك أن الأباطرة عندما وجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافيـــة لسك العملة ، لجئوا الى خلط الذهب بالفضة ، والفضة بالنحاس ، والنحاس بالرصاص ، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب فى النقد(١) • هذا الى أن تزييف العملة أدى الى اختفـــاء النقود الجيدة من السوق ، وقصر التداول على النقود الرديئة ــ وفقا لقانون جريشام الحديث ــ الأمر الذى أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا(٢) • وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الامبرطورية فى القرن الثالث ، عندما أخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم ويهاجمون المدن المجاورة لنهبها ، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر(٣) •

وبالاضافة الى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية ، تعرضت الامبــراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود فى القرن الثالث • فالفرنجة أغاروا على أراضى الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦ (٤) ، والقوط الذين اجتاحوا اقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يكن طردهم من هذا الاقليم الا بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨(٥) • وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمانى خلال ممرات الألب مهددين شمال ايطاليا • وفى عهد الامبراطور فالريان (٢٥٣ — ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقيـــة الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها •

---

(1) Rostovtzeff ; op. cit. Vol, 2, p. 317.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 38.
(3) Katz ; op. cit. pp. 36—37.
(4) Cary : op. cit. p. 723
(5) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 204—206

هذا فى الوقت الذى تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان الى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقى عبر القوقاز(١) •

وزاد من هذه الأخطار الخارجية التى هددت الامبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التى أخذت منذ سنة ٢٣٣ تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا ، حتى تمكن الفرس من انزال الهزيمة بالامبراطور فالريان وأسره سنة ٢٥٩ (٢) • واذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك فى احراز شىء من الانتصارات الجزئية على الفرس ، الا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسى أو حتى الاقلال منه(٣) •

الامبراطور دقلديانوس :

وهكذا بدت الامبراطورية الرومانية على شفاهاوية عندما اعتلى الامبراطور دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم فى بناء الامبراطورية المتداعى • ويبدو أنه ليس من الواقع فى شىء أن نعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على انقاذ الامبراطورية فى القرن الثالث ، اذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية بين سنتى ٢٥٣ ، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا فى الاصلاح ، ونخص بالذكر الامبراطور أورليان Aurelien (٢٧٠ — ٢٧٥) الذى أطلقت عليه الوثائق المعاصرة لقب « مجدد الامبراطورية »

ولكن المشكلة كانت أشد تعقيدا من أن تحل فى سهولة ، فاكتفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الاصلاحات الجزئية التى تناولت الضرائب والعملة الزراعيه كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدوله باجتياز هذه الحدود والاقامة داخلها ، وذلك لتوفير الأيدى العاملة اللازمة

(1) Thompson ; op. cit. Vol. 1 p. 16
(2) Cary; op. cit. p. 724.
(3) Moss; The Birth of the Middle Ages, pp. 6—7.
(4) Vasiliev: Hist, de l'Empire Byzantin; Tome 1; p. 77.

للزراعة من جهة ولاتقاء شر هذه العناصر وخطرها من جهة الأخرى(١) .

ولكن أحدا من أباطرة القرن الثالث لم يستطع أن يقـــوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) من اصلاح شامل بعيد الأثر في مختلف مرافق الامبراطورية . وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى ، هي تقوية نفوذ الحاكم أو الامبراطور ، واعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، وتجديد نظام الجيش(٢) ولتحقيق هذه الأهداف بدأ هذا الامبراطور باقرار الأمن والنظام فى مختلف الولايات الامبراطورية ، فأخضع الثورات المتأججة فى غاليا ومصر وولاية أفريقية وبريطانيا ، كما صد البرابرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب . ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين ، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الامبراطورية من جديد الى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء أقليم أو اقليمين(٣) وقد فكر دقلديانوس فى حماية العالم الرومانى من الأخطار الجسيمة التى كانت تهدده ، وذلك بانشاء قوة حربية متنقلة - أى غير مرتبطة بجبهة واحدة - لتتحرك فى أى وقت الى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الامبراطور(٤) .

على أن الخدمات الحقيقية التى أداها دقلديانوس للامبراطورية والتى تركت أثرا بالغا فى أحوالها ، لم تكن فى ميدان الحرب بقدر ما كانت فى مبـــدان الاصلاح الادارى . ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الادارى فى صورة حرمت ايطاليا مما كان لها فى العصور القديمة من مكانة ممتازة ، كما قضت على التفرقة بين الولايات الامبراطورية وولايات السناتو(٥) . وقـــد أدرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقى لقوة العالم الرومانى لم يعد فى الغرب وانما أصبح فى الشرق ، حيث امتازت الولايات بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارة

(1) Bloch : L'Empire Romain, pp. 188—194
(2) Rostovtzeff ; op. cit. Vol. 2, p. 320
(3) Thompson : op. cit Vol. 1 p. 17
(4) Stephenson ; Med. Hist. p. 38
(5) Ostrogorsky ; Hist, of the Byzantine State, p. 32

الايدى العاملة فى الزراعة والصناعة والتجارة • لذلك مهد دقلديانوس لما فعله الأمبراطور قسطنطين فيما بعد(١) فاتخذ عاصمة جديدة للامبراطورية فى الشرق ، هى مدينة نيقوميديا فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بحر مرمرة (٢) • هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة ايطاليا من روما الى ميلان ، وهى المدينة التى تتحكم فى معظم ممرات جبال الالب مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الامبراطورية منها الى غاليا أو ألمانيا لصد هجوم أو اخماد أية فتنة (٣) •

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الرومانى اعادة تنظيم الجهاز الادارى تنظيما جوهريا شاملا • ذلك أن دقلديانوس أدرك ضرورة ايجاد علاج للخطر الناجم عن تضاعف عدد الولايات ، وما ترتب على هذه الظاهرة من قيادات انفصالية • لهذا فكر فى ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض ، فقسم الامبراطورية الى أربعة أقاليم أو أقسام ادارية كبرى ، على رأس كل قسم منها حاكم ادارى عام يتمتع اما بلقب « أوغسطس » أو بلقب « قيصر » ، ويعتبر من الناحية العملية شريكا للامبراطور فى حكم الامبراطورية(٤) • أما هذه الأقسام الادارية الأربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء المعروف حاليا باسم مراكش) ، وايطاليا (وتشمل الأراضى الواقعة بين الدانوب والبحر الأدرياتى فضلا عن ايطاليا والبلاد المعروفة حاليا بأسماء الجزائر وتونس وطرابلس) ، واليريا (وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان) ، ثم أخيرا اقليم الشرق ويشمل بقية الامبراطورية أى تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر(٥) • وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم الأخير ومركزه نيقوميديا ، هذا فضلا عن احتفاظه بلقب الامبراطورية ووظيفتها •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1 p. 24
(2) Cary : op. cit., p. 195
(3) Bloch : op. cit. p. 195.
(4) Idem, pp. 194—195
(5) Painter; A Hist. of the Middle Ages, pp. 5—6.

وهكذا أصبحت الامبراطورية من الناحية النظرية مقسمة الى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام ، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب «أوغسطس» والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب « قيصر » ويخلفان الأولين ، فى حالة الوفاة أو العجز(١) • أما الامبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحـــد الحاكمين الأولين ، ولكن كانت بيده السلطة العليا فى الامبراطورية والاشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش(٢) • وهنا نلاحظ أنه اذا كانت السلطة الادارية فى الامبراطورية قد قسمت أو وزعت ، الا أن الامبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، بحيث أن كل أوغسطس كان له حق المرور فى أراضى القيصر التابع له • كذلك يلاحظ أنه اذا كانت السلطة العليا فى النواحى التشريعية والاداريه قد أصبحت نظريا فى أيدى الأوغسطين ، الا أن دقلديانوس ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الامبراطورية (٣) • وبعبارة أخرى فانه ليس معنى تقسيم الســـلطة أن الامبراطورية نفسها انقسمت ، اذ ظلت هذه الامبراطورية تمثل وحدة على عهد دقلديانوس(٤) • ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى الى سبعة عشر وحدة أصغر Dioceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام ، وتشمل عددا من الولايات • أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، لكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصـــة بالأباطرة(٥) • وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام ، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم ، وهؤلاء الحكام مسئولين أمـــام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم • وعن هــذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الاجراءات الادارية تتم بصورة أسرع وأدق ، وفى الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية التى

(1) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 78
(2) Rostovtzeff . op. cit. Vol. 2; pp. 321-323.
(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 14
(4) Vasiliev, op. cit. Tome, 1, p. 78
(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol 2, 325

طالما سببت متاعب جسيمة للامبراطورية فى القرن الثالث • وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية اسطحيه التى لم يبق منها سوى أوهام خيالية ، فتخلص من مظاهر الحكم الجمهورى بحيث بدت الامبراطورية فى عهده — كما كانت فعلا فى باطنها — ملكية استبدادية مطلقة • وهذا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفوذ الشرقى ، بحيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب ، بل امتد أيضا الى اعلاء كلمة الامبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة(١) •

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم الى أكثر شعوب الامبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى ، وبخاصة الجرمان • فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة ، بقدر ما ازدادت أهميته ومكانته ، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة فى حماية الامبراطورية ، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير الى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك(٢) • وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس ، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابط مائة ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الأعلى للجيش • وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا خبيرا بفنه مخلصا للامبراطور(٣) •

ثم أتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الادارية والحربية باصلاح النظم الماليه والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الامبراطورية وتحديدها لتقرير الضرائب فى صورة عادلة • واذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا ، الا أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمتجرين فى أقوات الأهالى(٤) • وكان العلاج الذى لجأ اليه

(1) Katz; op. cit. p. 44.
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 323.
(3) Idem, p. 324.
(4) Chapot : op. cit. p. 111

دقلديانوس هو سك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والمتعاملين من جهة ، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتى تعرض للبيع من جهة أخرى . هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور من جهة ثالثة(١) على أن هذه المقاييس لم تفلح فى علاج ما كان يعانيه أهالى الامبراطورية من ضغط وفاقه بسبب كثرة الضرائب التى وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا فى حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الاعفاءات المالية(٢) . وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعله دقلديانوس لاصلاح الحالة المالية هو أنه بسط جهـار الضرائب وحاول منع وقوع أزمة مالية ، ولكنه لم يستطيع بأى حال اعـادة الأوضاع المالية فى الدولة الى حالتها الطبيعية نتيجة لتدهور مستوى المعيشة(٣). هذا الى أن اصلاحات دقلديانوس المختلفة وما تطلبته هذه الاصـلاحات من نفقات طائلة ، ألقت حملا ثقيلا على الأهالى فى وقت كانت مالية الامبراطورية تعانى اجهادا شديدا منذ أوائل القرن الثالث ، مما زاد الحال سوءا .

الامبراطور قنسطنطين :

ثم كان أن تنحى دقلديانوس عن عرش الامبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره واستبد به المرض وأحس أن الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبه فى انقاذ الامبراطورية وتدعيمها(٤) . وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الامبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة ، وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين الذى استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تم توحيد الامبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ ، وعندئذ أخذ هذا الامبراطور على عاتقه مهمة اتمام الاصلاحات التى بدأها دقلديانوس(٥) .

---

(1) Lot : op. cit, pp. 18—19
(2) Stephenson ; Med. Hist. pp. 38—39
(3) Rostovtzeff ; op. cit, Vol. 2, p. 327
(4) Lot: op. cit. pp. 22—23
(5) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 80.

والواقع ان الامبراطور قنسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ نظرا للأعمال الهامة التى قام بها ، والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصـــــور الوسطى(١) • ذلك أن هذا الامبراطور قام بخطـــوتين على جانب كبير من الأهمية : الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية ، والثانية نقـــله عاصـــمة الامبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر فى ايطاليا الى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور(٢) • وسوف نرجىء الكلام عن الجانب الدينى من أعمال قنسطنطين الى الباب الآتى مكتفين فى هذا الباب بالاشارة الى الركن الدنيوى من أعماله •

ـح أن قنسطنطين اقتفى فى اصلاحاته الادارية أثر السياسة التى
لدیانوس ، فقام باتمام الأعمال التى بدأها هذا الامبراطور
، حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الأحيان الفصل
ـين الامبراطورين • وهنا نلاحظ أن الاصلاحات الادارية التى
انوس وقنسطنطين قمت على أساس التفرقة بين السلطتين الحربية
وظهرت هذه التفرقة واضحه فى حكم الولايات ، اذا اصبح
مسئولا عن شئونها الادارية المدنية فحسب ، فى حين اختص
بالاشراف على النواحى الحربية فى ولايه أو أكثر من ولايات
) • على أن أهم تعيير أدخله قنسطنطين كان ادخال مبدأ الحكم
الوراثى ، فأصبح المنصب الامبراطورى وراثيا فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى(٦) • أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قنسطنطين نحو انقاص عدد

---

(1) Bynes : Constantine the Great and the Christian Church ; p. 3.
(2) Vasiliev: op. cit. Vol. 1. p. 54.
(3) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80
(5) Ostrogosky: op. cit. p. 33.
(6) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 332.

أفراد الفرق العسكرية ، كما استمر فى سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط فى سلك الجيش الرومانى كجند نظاميين .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعا نشيطا ، الا أن كفايته الادارية ما زالت موضع شك . ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ، وأنزل طبقة الصناع الى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب(١) . هذا فى الوقت الذى شدد فى فرض العقوبات على جامعى الضرائب فى المدن اذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التى قررتها الحكومة . أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع أولئك الذين يغرقون فى الديون ــ نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار ــ من ترك أراضيهم والانتقال الى ولايات أخرى ، عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذى عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة الى أقنان مربوطين بالأرض(٢) .

على أنه ليس هناك من شك فى أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية ، يدل على أن قسطنطين أوتى بصيرة سياسية حكيمة . حقيقة أن الفضل فى فكرة نقل عاصمة الامبراطورية الى الشرق لا يرجع الى قسطنطين بقدر ما يرجع الى دقلديانوس ، الذى أقام فى مدينة نيقوميديا على الشاطىء الشرقى لبحر مرمرة واختصها برعايته وأنشأ فيها كثيرا من المبانى الجميلة الرائعة(٣) . ولكن اصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التى أمست فيها الامبراطورية الرومانية ، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه .

---

(1) Katz : op. cit. p. 50.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 27
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 72.

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الامبراطور قسطنطين الى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسى اليها هو أن الامبراطور وجد أن سياسه الدينية واعترافه بالمسيحية لا يمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى ، ففكر فى نقل عاصمته الى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان الدافع غير ذلك من الاسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلا سنة ٣٣٠ فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور(١) . وتمثل المنطقة التى أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة ، اذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ، ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة(٢) . ومن الواضح أن موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضايق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما انه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى . هذا الى أن القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا اذ أصبحت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود ببحر ايجه، وشمال أوربا وغربها بآسيا(٣) . ولم يدخر قسطنطين نفسه وسعا فى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصرا امبراطوريا وسوقا ومحاكم ودارا للسناتو وحمامات وملعبا عظيما . وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى(٤) .

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين وأثرها فى التاريخ ، لأن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوربى الألف سنة التالية . فلولا قيامها لما استطاعت البابوية الوصول الى ما وصلت اليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى ، ولحرم

---

(1) Lot : ep. cit. pp. 36—37.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 17.
(3) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental. p. 4
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 36.

شرق أوربا من تلك القلعة المنيعة التى صمدت فى وجه المسلمين وبالتالى حالت دون غزوهم شرق اوربا(١) • هذا بالاضافة الى أن القسطنطينية صارت حصنا للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهللينية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد الى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوربا • •

الامبراطورية الرومانية بعد قنسطنطين :

ثم حدث بعد وفاة قنسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، حتى استطاع أحدهم — وهو قنسطنطيوس — توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذى استمر حتى سنة ٣٦١(٢) • وعلى الرغم من ذلك فان الامبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها ، دون أن تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة مثل جوليان (٣٦١ — ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ — ٣٦٤) ، وفالنز (٣٦٤ — ٣٧٨) فى صد ذلك الخطر أو فى وقف تيار الانحلال • ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣ فى حين لجأ خليفته جوفيان الى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضى ما بين النهرين(٣) • أما فالنز فقد عاد مسرعا من الجبهة الفارسية لمواجهة خطر القوط والتقى بهم فى موقعة أدرنة (أدريانوبل — أغسطس سنة ٣٧٨) حيث تمكن القوط الغربيون — بمساعدة اخوانهم الشرقيين — من محو الجيش الرومانى وقتل الامبراطور نفسه فى المعركة(٤) • ويعتبر مقتل هذا الامبراطور نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ أخذت قبائل القوط الغربيين عندئذ داخل أراضى الامبراطورية تحت ضغط الهون الآسيويين • هذا فى الوقت الذى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 18 –19
(2) Vasiliev : op. cit. Tome, I p. 82.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 85.
(4) Ostrogorsky, op. cit. cit. p. 48

أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة الامبراطورية الرسمية على عهد الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) • وبذلك أمسى مصير الامبراطورية الرومانية معلقا بين أيدى الجرمان من جهة ورجال الكنيسة من جهة أخرى •

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه الى قسمين شرقى وغربى ، فكان القسم الشرقى من نصيب ابنه أركاديوس فى حين صار القسم الغربى من نصيب ابنه هو هونريوس(١) • ومن الواضح أن هذا التقسيم جاء طبيعيا ، لأن القسم الشرقى اليونانى يختلف اختلافا بينا فى حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربى اللاتينى • على أنه لا ينبغى أن يفهم من هــذا التقسيم أنه منح الامبراطورية قوة جديدة ، بل على العكس لايمكن اعتباره الا مظهرا من مظاهر التفكك والانحلال الذى أصاب الامبراطورية الرومانية ، والذى حــاول الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه ، ولكن عوامــل الانحلال كانت أقوى من جهودهم التى لم تؤد الا الى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية فيما بعد(٢) •

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرها فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما ازداد الفساد الادارى وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعى، بعد أن تكاثر عدد العبيد المشتغلين بالزراعة والصناعة وتناقص عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن بوجه عام(٣) • وهكذا يسهل على دارس أحــــوال الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعانى عندئذ آلام الموت البطىء ، وبالتالى فان العصور القديمة أمست فى طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لأن تنتقل أوربا الى طور جديد من أطوار تاريخها أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى(٤) •

---

(1) Vasiliev: op. cit, Tome. 1 pp. 82—83.
(2) Moss : op. cit. pp. 78—79
(3) Katz : op. cit. pp. 78—79
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 543—552.

وقد أجهد المفكرون أنفسهم في الوقوف على أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، فمنهم من قال بأن السبب فى ذلك هو فشل هـــذه الامبراطورية فى حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة ، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضـــمحلال الامبراطورية(١) ، فى حين قال فريق ثالث أن سبب الكارثة هو الافراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالا ذاتيا ، مما أفسد وحدة النظام الادارى فى الولايات وأثار البغضاء بين أهالى المدن وأهالى الريف ، كما أوجد تعارضا بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى . وأخيرا يأتى رأى رابع يعلل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية بازدياد نفوذ أرستقراطية كبار الملاك الاقطاعين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص أفرادها فى الريف والمدن وتحولوا الى عبيد(٢) .

ويشبه بعض المؤرخين الامبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتـــدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات ، مما يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه . لذلك يرجعون انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها الى عدة أسباب تضامنت جميعها لاسقاط الامبراطورية . وســـواء كانت هذه الأسباب طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية أو دينية(٣) ، فان يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة أو حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطة ، وأن الدول تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث .

---

(1) Idem. p. 553.
(2) Thompson. op. cit. vol, 1 pp. 28—29
(3) Cary, op. cit. pp. 778—779.

الباب الثانى

الإمبراطورية والمسيحية

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أثناء عهد الامبراطور أوغسطس (ت ١٤ م) فى بيت لحم بفلسطين ، فى وقت أخذ العالم الرومانى يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحى • فالرومان أنفسهم بدءوا ينظرون الى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة ، على أنها أمور شكلية(١) ، مما دفع المتعلمين منهم بوجه خاص الى الاستخفاف بالعقائد الدينية السائدة ـ سواء أكانت يونانية أو رومانية الأصل ـ ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التى نادى بها الرواقيون(٢) • ولكن حتى هذه التعاليم الرواقية أخذت هى الأخرى تبدو تدريجيا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظرا لما امتازت به من تطرف فى الجمود والمنطق فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية(٣) •

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب ، بل أيضا لكثير من الديانات الأخرى الوثنية • ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفى فى نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشىء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة • أما الآلهة ذات الأصل الأجنبى التى وجدت فى روما أو غيرها من أنحاء الامبراطورية ـ مثل غاليا وبريطانيا ـ فكانت هى الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية فى نفوس المعاصرين(٤) • وفى وسط هذا الفراغ الدينى الكبير لم يجد أهالى الامبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I. p. 89
(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 51—52
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 345 & Glover. op. cit. p. 155
(4) Cary : op. cit. p. 531 & 590

المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سبيل (Cybele) من آسيا الصغرى وديانة متراس Mîthras من فارس وديانة ايزيس من مصر ، وأخيرا المسيحية التى نبتت فى فلسطين(١) .

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التى عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت فى سموها وجمالها بقية القصص الدينى المعاصر . ويكفى ان تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التى لا يمكن أن يتفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين . فاذا أضفنا الى ذلك أن المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون أن تختص بطائفه أو تميز فريقا على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها فى النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة(٢) .

ومن المعروف أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية فى أركان الامبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ، وان كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع الى القديس بولس فى تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود ، فضلا عن جهوده فى وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية(٣) . وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث لم يكد ينتهى القرن الأول الا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية ملحوظة فى روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الامبراطور نيرون واضطهاده(٤) . وهنا نشير الى أنه ليس من الواقع فى شىء ما يظنه البعض

(1) Dill: op. cit. pp. 529—546
(2) Glover : The Conflict of Religions in the Early Roman Empire pp. 33—74
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 335
(4) Painter : op. cit. p. 11.

من أن إنتشار المسيحية في أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقيا فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، اذ يثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا الى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى(١) • ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرس وسالونيكاوبيثنيا وغيرها من الولايات الرومانية ، فضلا عن رسائل القديس بولس (٢) • حقيقة ان الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة الا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدمت أنصارا لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية خلال القرون الثلاثة الأولى عن عمرها(٣) •

وهنا نلاحظ أن ظروف الامبراطورية الرومانية والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها • فهذه الامبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق ، فضلا عن الأمن والسلام الذين سادا ربوعها ، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف أجزائها • هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها الى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة (٤)•

---

(1) Thompson, op. cit. vol. 1, p. 32

(2) Katz : op. cit., pp. 64—65

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد « فاقتنع قوم منهم وانحازوا الى بولس وسيلا ، ومن اليونانيين المتعبدين جمهور كثير ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » •

(سفر أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ٤٠)

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95—96

(4) Duchesne : Hist. Ancienne de l'Eglise; Tome 1, p. 9

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التى قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى . هذا الى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الرومانى جميعا (١) .

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أن تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الامبراطورية من جهة أخرى (٢) . وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا — مع اختلاف عقائدهم — أن يعترفوا بعبادة الامبراطور القائم ، وهو اجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا . ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الامبراطورية الرومانية سوى اليهود ، فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية (٣) .

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست الا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية (٤) ، لا سيما أن المسيحيين رفضوا — مثل اليهود — تألية الامبراطور وعبادته . ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين ، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى وأخذوا يجتمعون سرا لمباشرة طقوسهم الدينية ، كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود (٥) . وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها الى

---

(1) Stepenson : Med. Hist. p. 52
(2) Katz. op. cit. p. 58
(3) Stephenson : op. cit. p. 53
(4) Hardy : Studies in Roman History, vol. 1; p. 2
(5) Katz ; op. cit. p. 62

المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامه تهدد أوضاع الامبراطورية وسلامتها (١) • والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التى يعقـــدها فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كيـنها ، لا سيما اذا كانت هـــذه الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التى انتمى اليها معظم المسيحيين الأوائل(٢) • وبعبارة أخرى، فان سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لا دينيا ، لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادىء من شأنها تقويض الدعائم التى قام عليها المجتمع الرومانى(٣) • وهنا نلاحظ أن نظرة الحكومات الى الطوائف والجمعات الصغيرة تختلف عنها الى الجماعات الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية الى المجتمعات المسيحية الصغيرة فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية الى نوع من الخوف والشك فى أمره(٤) •

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما فى حـق الدولة ، فمنعت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم • ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضـد المسيحيين بعض الحـــكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحى روما طعاما للنار العظيمة التى أشعلها سنة ٦٤ فحسب (٥) ، بل شارك فيها أيضا فئة من خيـــرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيـــذ القانون مثـــل تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أورليوس(٦) ومن أولى الوثائق التى تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد ، تلك الرسالة التى أرسلها بلينى الصـــغير حاكم بيثنيا الى الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) يفيده فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور ، فى حين

---

(1) Charlesworth : op. cit. p. 149
(2) Painter : op. cit. p. 15
(3) Hardly : op. cit. vol. 1, p. 34
(4) Idem, p. 37
(ر) Cary : op. cit. p. 531
(6) Duchesne, op. cit. Tome 1, pp. 110—115 & 359

أعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك • وقد أجاب الامبراطور تراجـان معبرا عن استحسانه لتصرفه(١) •

على أنه يبدو أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية ، لأن روح الشجاعة والصبر والايمان التى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع اعجاب الكثيرين الذين أقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة (٢)• وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث الا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا ، مما دفع الامبراطور دقلديانوس الى التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع ،لاسيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش الى التهديد بالقضاء على ولاء الجند للامبراطورية(٣)• وقد أصدر هذا الامبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم واحـراق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من الوظائف الحكومية ، الى غير ذلك من الاجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه « عصر الشهداء »(٤) • ويبدو أن هـدف دقلديانوس من هـذه السياسة كان محاولة اجبـار الكنيسة ـ عن طريق الاضطهاد ـ على الخضوع للدولة ، شأنها شأن بقيـة الهيئات والمنظمـات الاجتماعية فى الدولة الرومانية • ذلك أن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى أقام عليه دقلديانوس نظامه وبنى اصلاحاته ، والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة(٥)• وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد المسيحية فى هذا الدور من تاريخها ، بل كان على الديانة الجديدة أن تواجه عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى ، وذلك من ناحية الأدريين (الغنوصيين) Gnostics الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية

---

(1) Hardy : op. cit. Vol. I, pp. 78 -94
(2) Katz : op. cit. p. 94.
(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2 p. 346 & Lot. op. p. 24
(4) Duchesne : op. cit. Tome 2. pp. 6 -15
(5) Rostovzteff : op. cit. Vol. 2, p. 350

بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة ، هذا فضلا عن الهجوم الذى واجهته المسيحية من جانب اليهود(١) .

ومهما يكن من أمر فان المسيحية خرجت من جميع هـذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس، لاسيما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفا بوضع الديانة المسيحية كاحدى الشرائع المصرح باعتناقها داخل الامبراطورية ، بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الامبراطورية بكافة الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتبـاع الديانات الأخرى(٢) . وهنا يصح أن نتوقف قليلا لنتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها قسطنطين . فاذا تذكرنا أن الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تأليه الأباطرة ، واذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد ، واذا أدركنا ما ترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفـوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التى كيف تاريخ أوربا العصور الوسطى ، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين . ويمكن أن نضيف الى هذا ما سبق أن أشرنا اليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية ، وأنه هجر روما الخالدة الى عاصمته الجديدة بالشرق ، مما يشير الى أن ثمة تغييرا أساسيا أخذ يعترى وجه العـالم القديم ، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسـطى جديدة لم تعد فيهـا روما مركز الامبراطورية من جهة ، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوربى من جهة أخرى(٣) .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين الى اصـدار مرسوم ميلان السابق ، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة وايمان

---

(1) Glover : op. cit. p. 173
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 61—63
(3) Katz : op. cit. p. 52

بالمسيحية أم هو مجرد اجراء سياسي اتخذه قسطنطين لتحقيق مآرب خاصة ٠. والواقع أنه توجد أدلة كثيرة تثبت ايمان قسطنطين بالمسيحية ، كما توجد أدلة أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده في الوثنية(١) ٠ ذلك أن عدد المسيحيين عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الامبراطورية ، الأمر الذى يؤيد الرأى الأول بأن قسطنطين اتخذ قراره عن شعور دينى لا بدافع المصلحة السياسية(٢)٠ على أننا اذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا أن المسيحية كانت أوسع انتشارا وأشد تركيزا فى الشرق منها فى الغرب ، بحيث أن آسيا الصغرى غدت من المراكز الرئيسية للمسيحية فى القرن الرابع(٣)٠ هذا فى الوقت الذى كان قسطنطين قد انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius فى موقعة جسر ملويان Milvian Bridge بايطاليا سنة ٣١٣ ، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربى من الامبراطورية ولم يبق أمامه سوى اخضاع جزئها الشرقى ، حتى تتحقق له السيادة التامة على الامبراطورية كلها ٠ لذلك لا يستبعد أن يكون قسطنطين قد أصدر مرسوم ميلان غداة انتصاره على ماكسنتيوس فى الغرب ليفتح أمامه أبواب الشرق(٤) ٠ ويتواتر فى المراجع التاريخية قصة شهيرة حكاها أيوزيب Eusébe أسقف قيصرية المعاصر نسبها الى قسطنطين نفسه ، وخلاصتها أنه حدث أثناء زحف الامبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد غروب الشمس هالة من النور مضيئة فى السماء على شكل صليب وتحتها عبارة « ستنتصر بفضل هذا ! » فلما نام الامبراطور رأى فى منامه صورة المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أتى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف على عدوه فورا ٠ فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قسطنطين على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها(٥) ٠

ومهما يكن من أمر ، فان مرسوم ميلان سنة ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة مرخصة Religio licitia ، كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات

(1) Ostrograsky : op. cit. pp. 42—43
(2) Vasiliev : op. op. cit. Tome 1. pp. 56?58
(3) Idem. p. 57
(4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 5—6
(5) Vasiliev : op. cit. Tome 6, p. 61

الأخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم، أسوة ببقية رعايا الامبراطورية • ومن هذا يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال ، كما أنها تعبر عن تطـور فكرى أكثر منهـــا عن تحول روحى(١) • ذلك أنه تسامح مع المسيحيين فى الوقت الذى لم يضطهد الوثنيين، وعن هذا الطريق حاول أن يمسك العصا من وسطها ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية(٢) • والواقع أن عهد الامبراطور قسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة ، اذ لم يقتصر فيه الوضع على التطاحن بين المسيحيين والوثنيين ، بل انقسمت المســـــيحية الناشئة على نفسها بين أريوســـــيين وأثناسيوسيين ، مما جعل كل فريق يعمل للفوز والحصـــول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات على حساب المذهب الآخر • وهنا وجد قســــطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهبا (٣) • وهكذا اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولة أو يتخلى عن عبادة الامبراطور التى كانت مصدرا أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم • وبعبارة أخرى فان قسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاثة دعائم رئيسية هى العبادة الامبراطورية ، والعقيدة الأريوسية ، والعقيدة الأثناسيوسية، كما يتضح ذلك من سياسة الامبراطور وتصرفاته • ذلك أنه احتفظ بعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها ، كما احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم(٤) Pontifex Maximus • أما بلاطه فقد أصـــبح يغص بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، جنبا الى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين • هذا فى الوقت الذى صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين ، كما نقشت على نقوده شـــــارات المسيحية والوثنية(٥) • أما عن حياته الخاصة فان قتل قسطنطين لزوجتــه وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقها • وهكذا يمكن

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 43
(2) Lot : op. cit. p. 29
(3) Thompson : op. cit. vol. 1 pp. 35—36
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 43
(5) Lot : op. cit. p. 26

القول بأن قنسطنطين ظل حتى أواخر حياته وثنيا مع الوثنيين وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين وأريوسيا مع الأريوسيين(١) .

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر عظيم فى تاريخ الشرق والغرب جميعا . وربما يبدو من الأنسب فى كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض فى هذه الخلافات والمشاكل الدينية فى دراسة تاريخية كالتى تقوم بها ، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبى يتحكم فى توجيه التيارات السياسية بل فى تغيير مجرى الأحداث التاريخية - كما حدث فعلا فى القرنين الرابع والخامس - نرى أنفسنا مضطرين الى الاشارة الى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع فى ضوئها أن نتفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية(٢) . وهنا نلاحظ أن الخوض فى المسائل اللاهوتية لم يقتصر فى القرن الرابع على رجال الدين ، وانما كان أمرا مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع . وخير شاهد فى ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠ - ٤٠٠) عن القسطنطينية ، اذ يصف العمال والعبيد فى هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت ، فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والاله الأب ، واذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، اذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شىء(٣) .

أما المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين وبالتالى العالم الرومانى الى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان ، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الأبن والاله الأب . ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجل الكنيسة باسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس - وهو كاهن سكندرى مثقف - بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل

---

(1) Cam. Med. Hist. I p. 10
(2) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental pp. 21—2.
(3) Thompson : op. cit. vol. I p. 37

الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للاله الأب فهو اذا دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الاله الأب فى المستوى والقدرة(١) • وبعبارة أخرى فان المسيح مخلوق لا اله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة الهين(٢) • أما اثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للاله الأب تماما فى كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ،هذا وان كانا شخصين متميزين•ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد فى دعوتها على مكانة المسيح ، وأن أى اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدى الى اضعاف الدعوة المسيحية • وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين • ومن الواضح أن المذهب الأريوسى كان يتفق ومنطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، فى حين كان المذهب الأثناسيوسى يستقيم وتفكير عامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم (٣) • وهنا نلمس أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب ، اذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسى فى بلاد الغرب اللاتينى فى حين أصبحت الغلبة فى الشرق الهللينى للمذهب الأريوسى • هذا فضلا عما نلحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين ، فى حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التى انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين •

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين ، خشى الامبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك فى وحدة الامبراطورية ، فحاول أن يوفق بين المذهبين ، وأرسل مبعوثا (هوسيوس Hosius) الى الاسكندرية لهذا الغرض ، ولكن جهود الامبراطور لم تكلل بالنجاح(٤) • لذلك دعا قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف(٥) • وكان هذا المجمع أول مجمع مسكونى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. p. 119
(2) Lot : op. cit. pp. 43—44
(3) Pain'er :. op. cit. p. 16
(4) Vasiliev : op. cit. Tome I p 68
(5) Bynes : Constantine and the Christian Church. pp. 19—22

عالمى فى تاريخ الكنيسة ، اذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين فى الشرق والغرب ، ورأسه الامبراطور قسطنطين نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن معمداً . وقد أدان مجمع نيقية هذا آريوس ، وبالتالى تقرر نفيه الى اليريا واعدام كتاباته وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسيين (١) .ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قوية فى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وعن هذا الطريق انتقلت الى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين (٢) .

ولعل بقاء المذهب الأريوسى قويا فى الشرق كان من العوامل التى أدت بالامبراطور قسطنطين الى تغير رأيه ، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧ . ونستطيع أن نعلل هذا التغيير الذى طرأ على مسلك قسطنطين بما كان يعتزمه الامبراطور من نقل عاصمته الى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى تم فعـــلا سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء أهالى الجزء الشرقى من الامبراطورية (٣) . وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأى القائل بأنه كان على استعداد تام لتغيير ميوله المذهبية — بل الدينية — وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية . ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالمـــا كانت عاصمته فى الغرب وطالمـا اعتمد على الغرب فى قوته ، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته الى الشرق وأحس بالحاجة الى استرضاء سكان القسم الشرقى من الامبراطورية ، لم يجد غضاضة فى تغيير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الأريوسى(٤) . وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق ، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه ، وبذلك دارت الدوائر على اثناسيوس الذى عزل فى العام التالى ونفى الى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الأمبراطور جوليان (٣٦١ — ٣٦٣) ، الذى كان بحكم وثنيته لا يهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين (٥) . على أن أريوس لم يلبث أن توفى فجأة فى القسطنطينية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 122—123
(2) Stephenson. op. cit. p. 83
(3) Bynes : op. cit. pp. 26—30
(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 70—71
(5) Lot : op. cit. p. 45

سنة ٣٣٦ مما جعل أتباعه يهمسون بأنه مات مسموما ، في حين هلل خصومه واعتبروا ذلك حكم الله العادل . ولم يلبث أن لحق به الامبراطور قسطنطين فتوفى هو الآخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبادىء المذهب الأريوسى .

وكان قسطنطين قد قسم الامبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ قسطنطين الثانى الغرب وأخـــذ قسطنطيوس الشرق فى حين كانت اليريا والجزء الأوسط من شمال افريقية من نصيب قسطانز(١) . وهنا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب السائد فى بلاده ، فاتجه قسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية ، فى حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية ، مما جعل الخلاف المذهبى يتطور الى انقسام فى الكنيسة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (٢) . وعندما توفى قسطنطين الثانى أصبحت مهمة الزود عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجال الدين فى الغرب ، فصار عليهم أن يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قسطانز وتوحيد الامبراطورية الرومانية تحت حكم قسطنطيوس (٣٥٣ - ٣٦١)(٣) . ذلك أن الامبراطور قسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسى ولاء دفعه الى العمل على فرض هذا المذهب على أجزاء الامبراطورية الغربية،مما جعل كفة الأريوسية ترجح فى الامبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١ . على أن هذا الرجحان كان مؤقتا ، اذ لم يلبث الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أن أعلن نهائيا عدم شرعية المذهب الأريوسى فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات مشددة على أتباع المذهب الأريوسى فى جميع أنحـــاء الامبراطورية(٤) .

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 40
(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 84
(3) Katz : op. cit. pp. 87—88
(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. I p. 349

صحوة الوثنية :

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى هذه الحقبة فقد رأينا كيف ظل قنسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة أخرى • ولكن حدث أن أبناء هذا الأمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستقرار فى مجاملة الوثنية وأهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من أراض وممتلكات ، حتى اذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين لآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات(١) •

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة ، اذ أبت الا أن تصحو من جديد ، وذلك عندما تولى حكم الامبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ — ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سرا قبل أن يتولى منصب الامبراطورية • ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الامبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١ حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقا لمرسوم قنسطنطيوس(٢) • ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الامبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية ، وانما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى اصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣) ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزانا اذا علمنا أنه امتدح بعض المبادىء الكريمة التى نادت بها المسيحية مثل الاحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرضى،

(1) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 85
(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 367.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 103

حتى أنه كتب الى أحد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر الى مثل هذه الخلال الحميدة(١) .

على أن هذا الشعور لم يمنع الامبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية،فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيسة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزينتها حتى لا تبدو أقل جمالا من الكنائس (٢) . وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الامبراطورى ، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والادارة ليحل الوثنيين محلهم(٣) .

ولكن يبدو أن هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الامبراطور جوليان لم تكن الا صحوة الموت . اذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا فى عهد جوفيان ـ الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر ـ مكانتهم وامتيازاتهم التى حرمهم منها جوليان . ثم جاء الامبراطور جراشيان (٣٧٥ ـ ٣٨٣) فتخلى عن لقب « الكاهن الأعظم » الذى تمسك به جميع الأباطرة السابقين ، بل ان هذا الامبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية(٤) . حقيقة أن هذه الاجراءات لا تعنى القضاء على الوثنية قضاء تاما مبرما ، اذ ظلت الوثنية قوية ـ وبصفة خاصة فى الغرب وروما ـ حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع . ولكن تشييد المعابد الوثنية فى هذه الفترة المتأخرة أصبح لا يتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل(٥) . ثم كانت بداية التطرف فى استخدام القوة والعنف ضد الوثنية

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 44

(2) Duchesne : op. cit. Tome 2 pp. 326—332

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 90—92

(٤) احتفظ جراشيان لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الامبراطورية ـ وبصفة خاصة إقليم غاليا ـ فى حين كان الجزء الشرقى من الامبراطورية تحت حكم عمه فالنز . وعندما لقى فالنز حتفه على أيدى القوط الغربيين فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، انتقل حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية الى جراشيان الذى خشى بأس القوط فتنازل عن حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية لثيودسيوس . وهذا هو السبب فى تداخل سنوات حكم جراشيان وفالنز وثيودسيوس .

(5) Thompson ; op. cit. Vol. 1 pp. 44—45

وأهلها على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤ • وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الامبراطور ، أقفلت فيهـــا معابد الوثنيين وأعدمت كتبهم ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم ، بل ان الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية — لا اغلاقها فحسب — واستغلال أحجارها وموادها فى اقـــامة منشآت عامة(١) • وعندئذ أدركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء الى مناطق العزلة النائية فى ايطاليا وغاليا • وهكذا ظل الحال حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت ديره الشهير سنة ٥٢٩ على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو • وفى السنة السابقة نفسها أغلق جستنيان مدارس الفاسفة فى أثينا بوصفها ركنا من أركان الوثنية(٢) •

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى • ذلك أن الامبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمســاندة الحكومة وتأييدها • ولكن رجــال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية، بعكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئا فشيئا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية (٣) •وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوربا • ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الامبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الادارى فى أقاليم الامبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى (٤) •

---

(1) Bury : p. cit. Vol. I p. 371
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 113—114.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 46
(4) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا للامبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة ونظمها • ذلك أن التنظيم الكنسى امتاز بالبساطة المطلقة فى العصر المسيحى الأول ، اذ لم يتعـــد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة (١) • حقيقة ان بعض هؤلاء الأساقفة امتازوا عن زملائهم بحكم ما لكراسيهم من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة ، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنسية تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعال فى الحياة العامة•وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطارقة فى روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وهؤلاء يمكن تشبيههم بكبار الرؤساء الاداريين فى الامبراطورية الرومانية • وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطارقة مجموعة من رؤساء الأسقافة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الأسقفى ، وأخـــيرا يأتى قس الأبرشية فى القرية • وهكذا ظهر سلم كهنوتى متدرج يشبه الى حد كبير سلم الوظائف الادارية فى الامبراطورية الرومانية(٢) •

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل ــ بصفتهـــا راعية الديانة الرسمية للدولة ــ على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية • وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلا عن قيام الأساقفة بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين(٣)•ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجيا فى أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى ، لا سيما وأن الصدقات التى جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه ، مما أوجــد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين(٤) • وهكذا أخذت

---

(1) Cam. Med.H ist. Vol. 1, p. 143.
(2) Idem, Vol. 1 p. 147
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 65.
(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣ •

تزداد ثروة الكنيسة ، حتى امتلكت الأراضى والضياع الواسعة التى قام العبيد والأقنان بفلاحتها ، هذا فضلا عن الهبات التى أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة، والتبرعات التى قدمها الأهالى عن طيب خاطر من جهة أخرى(١) •

ولكن يلاحظ أنه اذا كان هذا التطور الذى مرت به الكنيسة فى القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته ، حتى أدى الى تحويلها من منظمة بسيطة ديموقراطية الى هيئة وراثية ذات ادارة بيروقراطية مركزه ، الا أن الكنيسة دفعت ثمنا باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة ، كلفتها التخلى عن سياسة التسامح من جهة ، وانتشار الفساد — من رشوة وسرقة ومحاباة — فى جهازها من جهة أخرى • ذلك أن النعمة الكبيرة التى أصبحت فيها الكنيسة أدت الى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين • وبعبارة أخرى فان ازدياد ثروة رجال الدين أدى الى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة — وهى الروح التى ميزت الكنيسة فى عصرها الأول ، وحلت محلها مسحة من القسوة والتعالى والتباعد — هى النتيجة الطبيعية للغنى المفرط المفاجىء • وهكذا أخذ الأساقفة يتباعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم ، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الحاكم الرومانى من قبل • ولم يلبث أن تضاءل قصر حاكم الولاية أمام القصر الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم والأتباع والموظفين(٢) •

على أن القرن الرابع لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتى للكنيسة وازدياد نفوذها السياسى فحسب ، بل شهد أيضا تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه • ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للحياة ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمى منظم • وطالما كان أتباعه ورسله يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فان الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت ، لأنه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا الى قصة المسيح وحياته ليتفهموا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 561
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 49

أسلوب المسيحية فى الحياة • ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين ـ الذين ألفوا التفكير الكلاسيكى ومرنوا طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة ـ أدى الى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية (١) • ذلك أن هؤلاء المتعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا الى لحم المسيح ودمه • وسرعان ما أصبحت هذه المسائل تحتل جانبا كبيرا من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة ، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتنقى الديانة الجديدة • وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة ، أهمهم القديس كلمنت السكندرى فى القرن الثالث ، وأوريجن (١٨٥ ـ ٢٥٤) وجيروم (٣٣١ ـ ٤٢٠ تقريبا) وأمبروز (٣٤٠ ـ ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) • وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ـ لاسيما آراء الأفلاطونية الحديثة ـ فأفادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون • هذا الى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ومطالب الدولة والكنيسة فى عهدها الجديد من جهة أخرى(٢) •

نشأة البابوية :

على أن التيار الذى انساقت فيه الكنيسة ، ومحاكاتها لنظم الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها • وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب ، ففى الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم فى الشئون الكنيسة وبخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن بحيث أنشئوا يتدخلون لا فى سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل فى نظمها وسياستها الداخلية أيضا •

---

(1) Duchesne : op. cit. Tome III; p. 18
(2) Painter : op. cit. p. 15

وهكذا أصبح من العسير وقف تدخل الامبراطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية ، حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القيصرية البابوية Caesaro Papism أى الجمع بين السلطتين السياسية والدينيــة • ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وانشائه القسطنطينية • هذا الى أنه استن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين ، هى قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية(١) • أما فى الغرب فان الوضع اختلف عن ذلك كثيرا لأن الامبراطوريةالغربية أصبحت بعد تقسيم العــالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث فى الشرق(٢) • وسرعان ما وجدت الكنيســة الغربية ضالتهــا فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه الى بابوية لهــا السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى •

وليس من العسير علينا أن نكشف العوامل التى هيأت لأسقف روما هــذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب • ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الأسقفى • واذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه الهامة التى صارت مراكز لكراسى دينية كبرى مثل الاسكندرية وبيت المقدس وقيصرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فان الغرب لم يوجد به فى هذه المرحــلة الأولى من تاريخ المسيحية سوى روما وقرطاجنة ، ومهما يبلغ أمر هذه الأخيرة ، فانها كانت لا يمكن أن ترقى الى مكانة روما ذات المــاضى العريق والشهرة الواسعة والصيت الذائع(٣) لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، حتى استغل أساقفة روما هذه الأهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب • هــذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة ، اذ تعرضوا لكثير

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 63.
(2) Lot : op. cit. p. 53
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 169—173

قرطاجنة

من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجنة(١) •

أما اذا انتقلنا الى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحى ، فان القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحل اقامتهم ، وبالتالى يحق لبطركها أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحى، كما كان لامبراطورها الزعامة السياسية • ولكن هذا الرأى صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا فى الكنائس التى أسسوها ، وبخاصة فى أنطاكية(٢) والاسكندرية وروما(٣) • وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة الى مثل هذا التشريف ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب الى موضعها أو الاستشهاد قربها أو تأسيس كنيسة فى منطقتها ، لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس الا فى القرن الرابع(٤)• أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس الذى اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته ، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات(٥) • واذا كان بطرس — بحكم هذا التشريف — يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، فان خلفاءه — أساقفة روما —أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحى(٦) •

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شىء ، ومحاولة فرض

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 51—52

(٢) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية فى أدواره الأولى وكانت أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا » (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 171

(4) Deanesly : op. cit. 169

(٥) انجيل متى : الاصحاح السادس عشر (١٨ — ١٩) • والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلى سمعان « استدع سمعان الملقب بطرس » سفر أعمال الرسل اصحاح ١١ (١٣) ، وأن المسيح هو الذى أطلق عليه بطرس Petrus بمعنى صخرة (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى) انجيل متى — الاصحاح السادس عشر ١٨ — ١٩ •

(6) Stephenson : op. cit. p. 84

سيطرتهم على العالم المسيحى شىء آخر . والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما فى القرنين الأول والثانى أكثر من أسمائهم . ولم يكن ذلك الا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المراجع تشير الى بعض البابوات(١) الذين لعبوا دورا فعالا فى توجيه سياسة الكنيسة . ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (Damasus) (٣٦٦ — ٣٨٤) الذى كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسى روما الأسقفى وأكد سيادة البابوية وسموها(٢) . كذلك عهد هذا البابا الى جيروم بترجمة الانجيل الى اللاتينية . أما خليفته البابا سيركيوس (Siricius) ٣٨٤ — ٣٩٩ ، فترجع اليه أولى المراسيم البابوية التى وصلتنا ، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها . وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ — ٤٦١)الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب .

وفى هذه الأثناء كان الشرق البيزنطى مصرا على عناده ، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر فى المسائل الدينية المعلقة ، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الدينى . وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية فى مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ تأكيد هذه المساواة فى المكانة والامتيازات بين كرسى روما وكرسى القسطنطينية ، ولكن مندوب البابا ليو الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسى روما(٣) . وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس ، حتى اعترف بزعامتهم جميع أسقفيات الغرب فى القرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية . وفى سنة ٤٥٥ أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما يقضى بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا(٤) . وهنا نشير الى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت

---

(١) من الواضح أن لفظ بابا Pope انما هو تحريف للفظ اللاتينى Papa بمعنى أب ويمكن اطلاق هذا اللفظ على أى فرد من رجال الكنيسة ، ولكن العرف جرى فى الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف .

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 171—173

(3) Idem : Vol. I pp. 510—511

(4) Duchesne : op. cit. pp. 631—632

على تحقيق سيادة البابوية ، منها ازدياد الالتجاء الى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التى أصدرتها المجامع الاقليمية أو صغار الأساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبر والسند الأعلى(١) • ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوى الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفى مثل ليو الأول وجريجورى الأول ، هذا فضلا عن أن سقوط الامبرطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سياسى فى الغرب ، فى الوقت الذى كان بعيدا عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه فى الشرق •

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس(٢) • أما الشرق فقد ظل على عناده مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب • وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية • ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح ، اذ أدان مجمع افسوس سنة ٤٣١ الرأى القائل بفصل طبيعة المسيح الالهية عن طبيعته البشرية(٣) • ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية ، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة Monophysite» • وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو اله من طبيعة أبيه وبشر من طبيعة أمه - وهو المذهب الملكانى - الا أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب (٤) •

---

(1) Thompson : op. cit. pp. Vol. p. 54
(2) Deanesly : op. cit. pp. 177—184
(3) Duchesne ; op. cit. pp. 459—463
(4) Bury ; op. cit. Vol. I pp. 357—358

الباب الثالث

البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن أوجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير • ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة ، بل انه الحقيقة التاريخية في تاريخ عالم البحر المتوسط في الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الاسلام وانتشاره من جهة أخرى(١) • ويكفي أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهار أمام عقيدة جديدة ومبادىء جديدة وآراء جديدة ، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر ، وبين الحكام ورعاياهم ، وبين الناس بعضهم وبعض، على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم • أما نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا في مسخ وجه العـالم القديم ، اذ أحس المعاصرون بأن القديم المـألوف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم في طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل(٢) • ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما ــ وهي المدينة الخالدة الجبارة مهد الأباطرة العظام والتي سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدنيـة والحضارة وصار كل ما عداها رمزا للبربرية والتأخر ــ هذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الأباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف ، في حين أقام الأباطرة على شاطىء البسفور حيث بنوا القسطنطينية ليجعلوا منهـا روما جـــديدة ترث روما القديمة في مجدها

---

(1) Lot : op. cit. p. 39
(2) Katz :o p. cit. pp. 50-51.

وعظمتها(١) • ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة الامبراطور قسطنطين من طابع وراثي بحيث أصبحت الامبراطورية في هذا العهد الحديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة • كذلك شهدت هذه المرحلة بعينها اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانيه — الرومانية ، هي فكرة المواطنة ، اذ لم يعد هناك مجال في العصر الذي أعقب قسطنطين للمواطنين الذين اكتظت بهم المدن الحرة في العالمين اليوناني والروماني ، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى أن جميع رعايا الامبراطور أصبحوا متساوين في تبعيتهم له(٢) •

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التي أخذت تبدو على مسرح العالم الروماني في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، تجعلنا نعتقد أن أوربا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى ، تحملها من العصور القديمة الى العصور الوسطى • ولعل هذا التطور هو الذي دفع مؤرخا مثل بيوري الى القول بأن حكم قسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطين مؤسس الامبراطورية(٣) • والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة : أولها التراث الكلاسيكي بوجه عام والروماني بوجه خاص ، وثانيها المسيحية وكنيستها وثالثها الجرمان(٤) • أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربري الواسع الذي أحاط بالامبراطورية الرومانية من معظم نواحيها ، والذين لم يلبثوا أن أثروا في تغيير مصائر هذه الامبراطورية عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثاني • والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الامبراطورية الرومانية في الغرب عمرا أطول وأن تموت موتا أبطأ رغم الانحلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي تعرضت له ، لولا هجمات البرابرة التي

---

(1) Charlesworth: op. cit. pp. 180—181
(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. p. 11. p. 333.
(3) Bury : op. cit. Vol. 1. p. 1
(4) Thompson : op. cit. 1 p. 56

أسرعت بالامبراطورية نحو مصيرها المحتوم(١) .

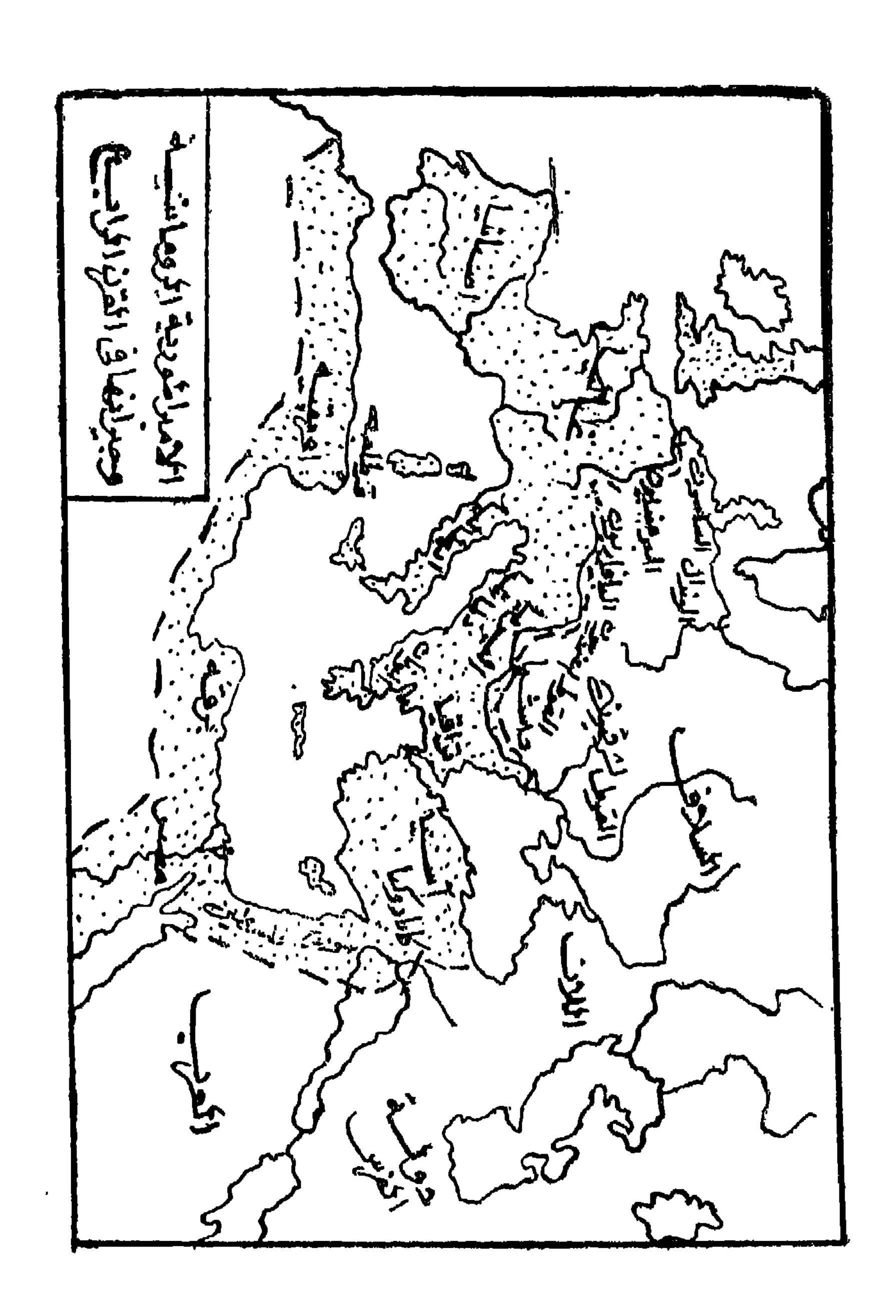
وهنا ينبغى أن نلاحظ أن لفظ « بربرية » بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ « همجية » أو لفظ « وحشية » بأى حال ، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعى القبلى ، الذى لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدنى واقامة الدول ذات الحدود الثابتة . فالمجتمع البربرى يعتمد على أســاس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده ، ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت سلبية مفتقرة الى أسس ودعائم حضارية ، لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد أمامنا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد الى ما قبل التاريخ(٢) .

أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعـالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة ، ففى الجنوب كان البربر فى غرب افريقية ، وفى الجنوب الشرقى كان العرب ، وفى الشرق وجد الفرس ، وفى الشمال الشرقى - بين جبال اورال وألطاى - ربضت شعوب آسيوية رعوية مثـــل السكيثيين Scythians والسارماشيين Sarmatians والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والأتراك ، والى الغرب من هذه الشعوب - أى داخل الحدود الأوربية - وجد السلاف والجرمان والكلت .

أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية ، فكانت فى أول الأمر تبـــدو بعيدة جدا عن حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ ظلت تعيش فى ســـهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية ، وتنتقل وراءها من مرعى الى آخر تبعا لظروف الأمطار والمناخ(٣) . على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض الشعوب

---

(1) Lot : op. cit. p. 187
(2) Dawson . The Making of Europe, p. 68
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 323 — 330


الامبراطورية الرومانية
وجيرانها في القرن الرابع
اسبانيا
افريقية
برقة
مصر
العرب
دولة الفرس
اللان
السلاف
آسيا
كبادوكيا
تراقيا
دلماشيا
ايطاليا

الآسيوية الى القيام باغارات مدمرة للسلب والنهب • ولم تك أوربا بمنجاة من هذه الاغارات ، لأن السهول الواقعة شمالى بحر قزوين فتحت بابا أمام القبائل الرعوية الآسيوية ــ وبخاصة قبائل الهون ــ نفذت منه الى أوربا ، وبالتالى أثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية(١) •

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الآسيوية الرعوية ــ وبخاصة الهون ــ هم السلاف الذين استقروا فى المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا • ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال ، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى اشتقت كلمة عبد فى كثير من اللغات الأوربية Slave من اسم السلاف•ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحة الأرض وأخذوا ينتشرون تدريجيا فى الأجزاء الشرقية من أوربا حتى حولوها الى كتلة سلافية(٢) •

أما الكلت Celts ــ وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls فكانوا يحتلون فى أول الأمر الغابات الواقعة فى شمال أوربا حتى نهر الألب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال ، اذ تدفقوا عبر جبال الألب فى ايطاليا وعبر نهر الراين فى الأراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية، وبذلك أصبح الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسى(٣) • وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين ، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان

---

(1) Stephenson : op. cit. p. 59 & Deanesly, op. cit. p.22
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 349—355
(3) Idem; Vol. I pp. 186—187

لها ٠ ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا فى القرن الأول الميلادى ، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلند(١) ٠

الجرمان :

والواقع ان الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة الى حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ انتشروا فى القرنين الأول والثانى فى أواسط أوربا وشرقيها عبر نهرى الراين والدانوب ٠ أما الموطن الأول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطى(٢) ٠ ومن هنالك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا فى المناطق الواقعة بين نهرى الألب والراين ، حيث حالت استحكامات الامبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك(٣) ٠ ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم بالرجوع الى كتابات قيصر وتاكيتوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التى كانت تتعارض الى حد كبير مع ما ألفته العقلية الرومانية(٤) ٠ ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية فى كل شىء ، فالفرد هو محور الحياة ، وعلى أساس قوته الشخصية وسطوته كانت أهميته ونفوذه ٠ واذا كان الجرمانى قد تمسك بطاعة زعيمه فان هذا الشعور بالطاعة انبثق عن احساس باطنى لا تنفيذ لأمر أو قانون ٠ أما أخلاق الجرمان الأوائل فكانت مزيجا من الفضائل والنقائص التى عرفت بها الشعوب البدائية (٥) ٠ ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة وبين الكرم وعدم مراعاة أصول الجيرة، هذا فضلا عما عرفوا به من احترام للعهد وترابط بين أفراد الأسرة الواحدة ورعاية للمرأة ، وهى الصفات التى ظلوا عليها والتى لم يفسدها سوى اختلاطهم

---

(1) Painter : op. cit. p. 19
(2) Deanesly : op. cit. p. 25
(3) Hubert: Les Germains. pp. 16—17
(4) Painter . op. cit. pp. 20—21. &
ابراهيم طرخان : تاكيتوس والشعوب الجرمانية ٠
(5) Katz : op. cit. pp. 100—101.

بالرومان وتأثرهم بهم (١) • كذلك أولع الجرمان بالميسر والمقامرة حتى بلغ الأمر بالشخص الذى يفقد ماله أن يقامر على حريته • وكان أهم ما امتدحه تاكيتوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس(٢) • والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة ، وان كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم • أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والرعد وغيرها ، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم ، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم(٣) •

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرمانى فى أول الأمر ، حيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه فى سلبهم الحياة • ومن مجموعة الأسر التى تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة ، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر(٤) • ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحد أفرادها من جرائم • وفى حالة القتل كان لابد لأهل القتيل من الأخذ بثأره الا اذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية •

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى الى ثلاث طبقات : النبلاء والأحرار والعبيد (٥) • وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التى تمتعت بنوع خاص من التشريف ، فلا يشتغل أفرادها بالفلاحة وانما يقضون وقت السلم فى الأكل والنوم والصيد والتسكع ، فى حين تقع بقية أعباء المجتمع — وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل — على غير المحاربين من النساء والأولاد

---

(1) Lavisse : Hist. de France; Tome II, Première Partie,. p. 46

(2) Tacitus : Germania, p. 11

(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 63

(4) Eyre : European Civilisation. Vol. III, p. 13.

(5) Lavisse, op. cit. pp. 48—49

والعبيد • ولم يقم هؤلاء العبيد بدور هام فى الخدمة المنزلية – مثل عبيد الرومان – وانما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصصا من الأرض يدفعون جزءا من غلتها فى نهاية الموسم (١) • أما الأحرار – من غير النبلاء – فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العبيد(٢) • وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا الى جنب فى المجتمع الجرمانى ، وثانيهما أن النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض •ولم يعرف الجرمان حياة المدن فى عصورهم الأولى • وانما عاشوا فى قرى متناثرة وسط الأضحال والغابات ، فى حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطمى(٣) • واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعر رؤوسهم ولحاهم ، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم • أما طعامهم فكان بسيطا يتألف من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب (٤)• ولم يعرف الجرمان النبيذ الا عندما استقروا على الحدود الرومانية ، أما شرابهم الأساسى فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير ، أى أنه كان أقرب الى الجعة منه الى النبيذ • وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار ، فى حين أن القرى لم تك فى عزلة عن بعضها البعض ، وانما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات(٥) • والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيل والماشية وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة • حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الأوانى الذهبية والفضية ، ولكن الحيوانات السابقة حلت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة(٦) •

---

(1) Tacitus : Germania; p. 15
(2) Stephenson : op. cit. p. 61
(3) Katz : op. p. 99 & Tacitus: Germania ; p. 10
(4) Tacitus ; Germania, p. II
(5) Thompson, op. cit. Vol. I p. 64

(١) ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ •

أما التنظيم السياسى فكان بسيطا ، وحدته القرية أو المارك Mark ، ومن بعدها تأتى المائة hundred وهى وحدة عسكرية تكبر القرية(١)، ثم تأتى المقاطعة أو المديرية (Gau) وتتألف من عدة مئات ، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التى أطلق عليها فيما بعد مملكة أورايخ Reich عندما تقدم النظام الملكى بين الجرمان(٢) • وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد الا فى حالة الحرب أو الهجرة • كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر ، تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع فى وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية • وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية وجد بعض الرؤساء أو القادة Principes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء ، وانما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة • وفى وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والاقدام ، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب(٣) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة ، فان هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حينا بعد آخر • ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته ، مما أدى تدريجيا الى قيام نظام ملكى وراثى فى الدول والجماعات الجرمانية(٤) • على أن ملوك الجرمان لم يكونوا فى هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين ، دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة فى التشريع أو فرض العقوبات ، وهى المسائل التى حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الأوضاع المألوفة(٥) • واذا كان بعض المؤرخين يميلون

---

(١) يرجع اصطلاح المائة الى الجرمان الأوائل الذين انتشروا فى شمال أوربا ووسطها • ويرجح أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عددهم مائة فرد • وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سويا فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سويا ، ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التى تتوسط القرية والمقاطعة •

(Karsten : Les Anciens Germains, p. 178) :

(2) Moss : op. cit. pp. 40—41.

(3) Tacitus : Germania, p. 9

(4) Thompson : op. cit. Vol. I p. 65

(5) Stephenson : op. cit. p. 62

الى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديموقراطية ، فانه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديموقراطيا فى الحكم ، لأننا سبق أن رأينا أن المجتمع الجرمانى قام على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته . وانما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادىء التى تنم عن اتجاهات ديموقراطية فى المجتمع الجرمانى مثل انتخاب الزعماء ، والفصل فى القضايا فى محاكمات عامة(١) .

هذه هى خلاصة أحوال الجرمان الذين استقروا على حدود الامبراطورية الرومانية من جهتى الشمال والغرب . وهنا نلاحظ عدم وجود أى عداء بين الرومان والجرمان فى أول الأمر ، كما أنه لم توجد مطامع للجرمان فى أراضى الامبراطورية ، وانما كل ما أراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة فى بلاده . وعلى هذا ليست من الواقع فى شىء تلك النظرية التى تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش فى رعب من الخطر الجرمانى ، وأن الجرمان أخذوا منذ أول أمرهم يمنون أنفسهم بغزو الامبراطورية الرومانية والقضاء عليها(٢) . وهناك من الدلائل ما يثبت أن السنوات الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق.م. - ١٨٠ م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان ، كما أن القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الامبراطورية عاشت حينئذ فى حالة واضحة من الهدوء والاستقرار . على أن هذا الوضع أخذ يتغير فى أواخر القرن الثانى ، عندما تعرض المجتمع الجرمانى لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة (٣) . ذلك أن السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق ، فى الوقت الذى ازدادت أعداد الجرمان وضاقت أمامهم سبل العيش . وهنا تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا الا أرضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات،

---

(1) Painter . op. cit. p. 23
(2) Katz: op. cit. p. 103
(3) Cam. Med. Vol. I p. 188

فضلا عن تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة الى قحط ومجاعات ، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الأقوات دفعتهم الى الحركة . وهكذا أخذ الجرمان يتطلعون الى أراضى الامبراطورية الرومانية التى جذبتهم اليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضـارتها الزاهرة (١) .

وقد بدأ موقف الجرمان السلبى من الامبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) ، عنـدما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعـروفة باسم المـاركومانى Marcomanni والقواضى Quadi لمهاجمة جبهة أعالى الدانوب عند بانونيا(٢) . وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم ، الا أن تهديد الجرمان لحدود الامبراطورية لم ينقطع بعد ذلك ، اذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الامبراطور كارا كالا (٢١١ — ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطىء البحر البلطى فسحقوا السارماشيين وهاجموا اقليم داشيا على الدانوب ، حيث ظلوا خمسين سـنة يعيثون فسادا فى البلقان حتى هزمهم الامبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨—٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩(٣) .

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن أباطرة الرومان اختاروا أن يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان ، فتنازلوا لهم عن اقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور أورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) ، وعندئذ استقر القوط وأعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية الرومانية(٤) .

---

(1) Katz : op. cit. pp. 101—102
(2) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 29
(3) Thompson. op. cit. Vol. I p. 72
(4) Cary : op. cit. p. 728

أن الخطر الذى هدد الامبراطورية الرومانية فى هذا الدور لم يأت من جانب القوط وحدهم ، وانما قام الألمان والفرنجة والبافريون والسكسون والبورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة ، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٠٠ لتبدأ فترى أخرى جديدة من العلاقات السلميه الهادئة بين الرومان والجرمان (١) • على أن توغل الجرمان داخل حدود الامبراطورية لم يتوقف فى هذا الدور السلمى الجديد ، وانما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة الى الزحف البطىء والتسلل السلمى الهادىء • وهنا نجد الامبراطورية تفتح صدرها لهـؤلاء الوافدين من الجرمان ، فتستخدمهم جنـودا فى بعض الفـرق وتمنحهم مستعمرات وأراضى يقيمون فيها داخل الحـدود الرومانية ، بل أن بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين فى تلك الفـترة جرت فى عروقهم دماء جرمانية (٢) • حقيقة أن استخدام الجرمان فى الجيش الرومانى والسماح لهم بالاقامة السلمية لم يك أمرا جديدا ، اذ ترجع جذور هذه الظاهرة الى أيام الامبراطور أوغسطس نفسه ، ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق فى القرنين الثالث والرابع ، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد الى التزاوج والتفـاعل الاجتماعى ، مما ترك أثرا بعيد المدى فى مستقبل الحوادث • وهكذا لا يمكن القول بأن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية كانت فى القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى لأن كلا من الطرفين أخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه (٣) •

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حدود الدولة الرومانية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا • فحتى هذا التاريخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولا توحد بينها خطة جامعة • وكان يكفى أن تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى ، أو تصاب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 207.
(2) Painter : op, cit. p, 19.
(3) Eyre : op. cit. p. 15.

منطقة من مناطق الجرمان بقحط أو نقص فى الأقوات ، أو يستكشف أحد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف فى الحدود الرومانية ، للقيام بهجوم جزئى محلى على أراضى الامبراطورية . ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ (١) وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ أى نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوربا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحا (٢) . وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث ، أن نشير الى أن هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة ، فطعمت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة . وليس من الصواب فى شىء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية ، وأنهم مسئولون عن تدمير هذه الحضارة ، لأن الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، وأخذت تتدهور فعلا فى طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون الى جسم الامبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجىء السريع أو عن طريق التسلل الهادىء البطىء (٣) . وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذى أحدثته غزوات الجرمان فى جسم الامبراطورية الرومانية وكيانها ، أن نذكر دائما أهمية هؤلاء الجرمان فى تاريخ غرب أوربا وحضارتها .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن شدة التباين بين جموع البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسادس تجعل من الضرورى التفرقة بين الجماعات التى أخذت تجتاح البلاد لتسلب كل ما يصادفها دون أن تحاول الاقامة والاستقرار فى تلك البلاد أو تترك أثرا فى تاريخها سوى الخراب والتدمير ، وبين الجماعات المترابطة التى غزت اقليما من أقاليم الامبراطورية لتستقر فيه وتختلط بالأهالى الأصليين اختلاطا جنسيا وحضاريا

---

(1) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 59.
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 79.
(3) Stephenson : op. cit. p. 68.

مما ترك أثرا عميقا فى تاريخها • ومن أمثلة النوع الأول اتباع راداجيسوس Radagaisus وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحطيمهم فى ايطاليا سنة ٤٠٥ (١) • وكذلك أتباع اتيلا من الهون وغير الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضى الامبراطورية بدون ضابط • أما النوع الثانى فمن أمثلته القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال والأنجلوسكسون واللمبارديون (٢) •

القوط الغربيون :

أما القوط فيبدو أنهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا • وقرب منتصف القرن الثانى الميلادى بدأت قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث استقروا شمالى البحر الأسود • وهناك انقسم القوط الى قسمين شرقيين وغربيين (٣)• فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات (٢٧٥ — ٣٧٥)(٤)

وكان أن ترتب على أحتكاك القوط بالعالم الرومانى أن أفادوا من حضارة

---

(1) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 33.
(3) Fliche : La Chretienté Mediévale, pp. 10-14.

(٣) يلاحظ أنه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسيم القـــوط الى شرقيين وغربيين • ويبدو أن هذه التسمية التى اطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن تكون نوعا من الخطا التاريخى الذى اكتسب صيغة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجع التاريخية • ذلك أن المدلول الأصلى للفظ Ostrogoths — وهو اللفظ الذى جرى العرف على ترجمته فى المراجع الى القوط الشرقيين — هو فى الحقيقة القوط الساطعون أو الزاهـــــرون (auster) لا الشرقيون ، كما أن المدلول الأصلى للفظ Visigoths — الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين ، هو القوط الأذكياء Wise • واذا كانت الظروف شاءت أن يتجه القوط الغربيون غربا وان يستقر القوط الشرقيون شرقيهم ، فان هذا كان من محض المصادفات التاريخية •

(Lot : The End of the Ancient World, p. 191).

(3) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44.

الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء فى اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ – ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية . وعندما عين ولفلاس هذا اسقفا على القوط حوالى سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القوطية ، وتعتبر هذه الترجمة – التى مازال جزؤ منها باقيا حتى اليوم – أقدم آثار اللغة الجرمانية (١) . على أن المهم فى أمر اعتناق القوط للمسيحية هو أنهم تلقوها فى مذهبها الأريوسى ، لأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا ، الأمر الذى ادى الى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل الوندال والبرجنديين واللمبارديين ، مما كان له أبعد الأثر فى مستقبل الحوادث التاريخية فى أوربا العصور الوسطى (٢) .

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع ان اندفع الهون الأسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا ، وبالتالى انقضوا على القوط (٣) . ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان والجرمان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك . على أن ضغط الهون أحدث رد فعل عنيف بين الجرمان ، مما أثر بالتالى فى أوضاع الامبراطورية الرومانية تأثيرا خطيرا . ذلك أن القوط الغربيين لم يجدوا بدا من الفرار من وجه الهون فطلبوا من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . واذا كان الامبراطور قد وافق على طلبهم ليتخذ منهم ستارا يحمى الحدود الرومانية من خطر الهون (٤) ، الا أن عبور ما يقرب من مليون ومائة ألف محارب من القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ – حيث سمحت لهم الحكومة الرومانية بالاقامة فى مواشيا وتراقيا – أحدث هزة عنيفة فى جسم الامبراطورية . ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا على الامبراطورية ، وأنزلوا الهزيمة

---

(1) Bradley : The Goths, p. 61.
(2) Moss : op. cit. p. 44.
(3) Lot : Les Invasions Germaniques. pp. 56-57.
(4) Painter . op. cit. p. 24.

بالامبراطور فالنز وذبحوه فى أدرنة سنة ٣٧٨ (١) ، مما دفع خليفته الامبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥) الى العمل على اتقاء شر القوط ، فعقد معهم اتفاقية اصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطور ، كما سمح للقوط الشرقيين بالاقامة فى اقليم بانونيا والقوط الغربيين بالاقامة فى شمال تراقيا • وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة فى هذه الأقاليم التى احتلوها ، فأعفوا من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التى تعهـدوا بتقـديمها الى الامبراطورية (٢) • وتعتبر هذه الاتفاقية التى عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى فى سياسة الامبراطورية الرومانية تجاه الجرمان، الذين اخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الامبراطورية ، بعد ان اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالاقامة السلبية فى ظل الادارة والنظم الرومانية • على أن القوط الغربيين ظلـوا محتفظين بطابعهم ، فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسى مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للامبراطورية وحراسة حدودها • واستمر هذا الوضع سائدا حتى وفاة الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد (٣) •

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب اركاديوس والغرب من نصيب هنريوس (٤) • وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسى والحربى يزداد قوة داخل الامبراطورية فاعتمد هنريوس فى الغرب على قائد وندالى قدير هو ستليكو ومنحه تفويضا تاما من الناحية الحربية ، فى حين اعتمد أركاديوس فى الشرق على روفينوس

---

(1) Wallace - Hadrill : The Barbarian West. p. 21,
(2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 48.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 90.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : Les Destinees de L'Empire-En Occident, p. 24.

Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالأنانية والقسوة وعدم الاخلاص (١) ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الامبراطورية سنة ٣٨٢ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للامبراطورية فى الوقت الذى كانوا ينشدون حياة الاستقرار والهدوء • لذلك ثاروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم ألرك فغزوا مقدونيا وتساليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية (٢) • وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين ، مما جعل ستليكو قائد الامبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة ، فعبر البحر الأدرياتى وحصر القوط فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة اليس Elis) وان كان ملكهم ألرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦) •

وأخيرا رأى اركاديوس امبراطور الدولة الشرقية أن يمنح ألرك اقليم اليريا سنة ٣٩٨ ، حيث ظل القوط الغربيون قابعين أربع سنوات ، فى حين عاد ستليكو الى غاليا وجبهة الدانوب لمحاربة الوندال (٣) • وفى سنة ٤٠٢ حاول ألرك غزو ايطاليا لأول مرة ،ولكن ستليكو رده على أعقابه•ولم تلبث ايطاليا أن تعرضت مرة أخرى سنة ٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال والسويفى والبرجنديين واللان الذين اضطروا الى الاتجاه نحو ايطاليا أمام ضغط الهون، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة وأسر زعيمهم راداجيسوس وأعدمه سنة ٤٠٦ ، وبذلك نجت ايطاليا مرة أخرى من غزو البرابرة(٤) • على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن ايطاليا فى هذه المرة الأخيرة الى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين ، مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال واللان والسويفى لعبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦ ، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحوا فيها البلاد ونهبوها ثم اندفعوا منها الى

(1) Cam Med, Hist. Vol 1, p. 260.
(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 110.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 116.
(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 28.
(5) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 168.

أسبانيا سنة ٤٠٩(١) • وقد أفزعت هذه الأحداث الامبراطور هنريوس الذى رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائدة ستليكو بعد أن ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى أوشك أن يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة — مما اثار حقد الامبراطور — فوجه اليه تهمة الاهمال فى حماية حدود الامبراطورية والتامر ضد سلامتها وسلامة الامبراطور نفسه ، وبالتالى تم اعدامه سنة ٤٠٨ (٢) •

ويبدو أن الامبراطور تطرف فى التخلص من أتباع ستليكو عن طريق القتل ، مما جعل بعضهم يفرون نحو ألرك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو ايطاليا (٣) • وقد وجد ألرك فرصته سانحة بعد مقتل ستليكو — لرجل الوحيد الذى استطاع انزال الهزيمة به — فزحف على رأس رجاله من القوط الغربيين الى روما التى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش أجنبية معادية • وعندما فشلت المفاوضات بين ألرك والامبــــراطور هنريوس — الذى كان عندئذ آمنا فى عاصمته الجديدة رافنا — اقتحم القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ (٤) ، فنهبوا بيوت نبلائها وأحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى ، كما احترموا الكنائس على الرغم من أريوسيتهم• أما ألرك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير أنه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب ايطاليا (٥) •

وأخيرا لم يجد الامبراطور وسيلة لاخراج القوط الغربيين من ايطاليا سوى اعطائهم اقليم اكوتين من اللوار حتى البرانس (٦) • والواقع أنه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا لاستخلاص هذه الهبة من جموع الوندال واللان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا الى هذه الأقاليم الغالية كما

---

(1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 266-268.
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 202-204.
(3) Lot . Les Invasions Germaniques, pp. 74-75,
(4) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 180.
(5) Deanesly : op. cit. pp. 27-28.
(6) Bradley : The Goths,, pp. 106-107.

سبق • وقد استطاع واليا ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفي الى الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا وأن يزيح الوندال الى جنوبى نهر ابرو ، وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى من غاليا ـ أى فى اقليم اكوتين وحول تولوز ـ بعد ان قضوا زهاء أربعين عاما فى التنقل والترحال (١) • وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون الى اسبانيا ، التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩ •

وعندما توفى واليا خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ ـ ٤٥١) الذى عمل على تثبيت أركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها • وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦ (٢) • وقد حاول الرومان الوقوف فى وجهه ولكنه أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٩ ، ومن ثم ساد السلام بين الطرفين • أخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ أثناء حربه مع الهون ، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ ـ ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالية الأسبانية كما مد مملكته حتى نهر اللوار • على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه ايورك (٤٦٥ ـ ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين (٣) • ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا ، وأخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Amtiqua) والحق ان مملكة القوط الغربيين – التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح العربى فى أوائل القرن الثامن ـ تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة ، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة أخرى (٤) •

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 205.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 279.
(3) Bury . op. cit. Vol. 1, p. 341.
(4) Thompson ; op. cit. Vol, 1, p. 94.

الوندال :

أما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين فى أسبانيا طوال أربع عشرة سنة اضطروا بعدها الى عبور البحر الى شمال افريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric (١) • وصادف عندئذ قيام حرب أهليـــة فى ولاية شمال افريقية ، وقيام امبراطور قاصر هو فالنتسيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) على عرش الامبراطورية ، مما سهل على الوندال مهمتهم • وسرعان ما أثبت جزريك — ذلك الرجل القصير الأعرج — أنه على جانب كبير من المقدرة والكفاية (٢) ، اذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس ، كما سقطت قرطاجة — أهم مدينة فى الغرب بعد روما — فى أيدى الوندال سنة ٤٣٩ ، وبذلك ضاعت ولاية شمال افريقية فخسرت الامبراطورية الرومانية بضياعها جزءا آخرا من أهم اجزائها التى كانت تمونها بالغلال (٣) • ولم يستطع أهالى شمال افريقية سوى الامتثال لحكم القدر ، لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحوا من ثمانين ألفا من رجال ونساء وأطفال • وزاد من سوء أحوال الأهالى ان جزريك نهج فى حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديا عنيفا فصادر الضياع وانتزع الأراضى من أصحابها ، كما تعسف فى جمع الأموال والضرائب من الأهالى وعاملهم فى قسوة بالغة (٤) • هذا الى أنه أثار حنق أهالى البلاد الأصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة ، فصادر — وهو الملك الأريوسى — ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال افريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادا بالغا أثار سخط الرأى العام ،حتى أصـــبح لفـظ الونداليـة Vandalism » فى اللغـــات الأوربيـــة الحديثة يستخدم مرادفا للهمجية والوحشية (٥) •

---

(1) Wallace-Hadill : op. cit. pp. 38-39.
(2) Oman : The Dark Ages, p. 7.
(3) Lot & Pfistor & Ganshof; op. cit. p. 63.
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 95.
(5) Oman : The Dark Ages, pp. 7-9.

على أن خطر الوندال لم يقف عند هذا الحد ، اذ لم يلبثوا أن أصبحوا قوة بحرية خطيرة فى البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فضلا عن ايطاليا حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥(١) • ومهما يكن من أمر فان عظمة دولة الوندال فى شمال افريقية سرعان ماولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ ، هذا على الرغم من أنه ترك بعده أسطولا قويا وثروة طائلة وقصرا ذاخرا بالمنهوبات • وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزاريوس قائد جيوش الامبراطور البيزنطى جستنيان أن يسترد ولاية شمال افريقية من الوندال ، بعد أن عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩ (٢) •

الهون :

أما الهون الأسيويون فكانوا قد اجتاحوا اقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغلغل القوط الغربيون داخل جسم الامبراطورية سنة ٣٧٥(٣) • ثم ظل الهون مقيمين على شواطىء البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا الى تراقيا وأخذوا يهددون القسطنطينية نفسها • ويبدو أنه اشتد عبث الهون – تحت زعامة أتيلا بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى بين سنتى ٤٣٠ و ٤٣٣ ، مما اضطر تيودوسيوس الثانى امبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ – ٤٥٠) الى دفع جزية مالية سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضى دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب • وكان أن تقدم أتيلا غربا بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ فخرب مواشيا وتراقيا واليريا وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١(٤) • وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 306-308.
(2) Deanesly : op. cit, p. 77.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 215
(4) Lot & Pfister & Ganshof ; op. cit. p. 66.

تريف وميتز وتروى وشالون وغيرها من المدن المهمة التى فر أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم(١) • ولم يكن منتظرا من الامبراطور الغربى عندئذ ــ وهو فالنشيان الثالث ــ أن يقوم بعمل ايجابى ضد هذا الخطر الجاثم ، ولكن قائده أيتيوس Aetius برز فى هذه الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا • وهنا حدثت ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وهى أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية لدفع خطر الهون المشترك ، حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع أتيلا قرب شالون سنة ٤٥١(٢) • ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، اذ أنقذت غرب أوربا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة أتيلا بغزوة مفاجئة لايطاليا فى العام التالى (٤٥٢)(٣) • ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد ، مما جعل أسقفها البابا ليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة أتيلا(٤) وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس بطرس أفزع أتيلا فأسرع بالاياب ، وان كان الواقع هو أن أتيلا أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الرومانى الشهير أيتيوس ، مما جعله يسرع باخلاء ايطاليا فى يوليو سنة ٤٥٢ بعد أن أخذ وعدا بتسلم جزية سنوية • ولم يلبث أن توفى أتيلا العام التالى (٤٥٣) فى بانونيا وعندئذ حاول أبناؤه اقتسام امبراطوريته الواسعة(٥) ، ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم الهزيمة فى موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤ • وبذلك انهارت امبراطورية الهون قبل أن تمضى على وفاة أتيلا عشرون عاما(٦) •

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 291-293.
(2) Cam. Med Hist. Vol. 1, pp. 280-281.
(3) Bury : op. cit. Vol, 1, 294.
(4) Fliche . La Chretiente Medievale, p. 24.
(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.
(6) Lot : The End of the Ancient World. 288.

البرجنديون :

أما البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون أضعاف ما ذاقته بقية قبائل الجرمان فى الغرب ، كما أنهم كانوا أول من استفاد من تفكك امبراطورية الهون . وقد ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الحوادث الأوربية فى النصف الثانى من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧(١) . وفى القرن الرابع استخدمتهم الامبراطورية الرومانية فى جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان . وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة الا أنهم اضطروا الى استخدام العنف فى شق طريقهم الى غاليا عبر الراين ، وذلك تحت ضغط الهون(٢) ، حتى سمح لهم القائد الرومانى أيتيوس بالاقامة أخيرا فى المنطقة الواقعة قرب نهر الساؤون . وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون فى موقعة شالون سنة ٤٥١ ، وأخذوا يتوسعون سلميا حتى انتشروا سنة ٤٦٨ فى جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولم يحل دون وصولهم الى شاطىء البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لاقليم بروفانس(٣) .

سقوط الامبراطورية الغربية :

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان أنه لم يكد ينتصف القرن الخامس حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد مزقت اربا بضياع معظم أجزائها . ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢ ، فى حين انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها . هذا فى

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 98.
(2) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 249
(3) Deanesly : op. cit. p. 30.

الوقت الذى عبر الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس ، كما عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وبذلك فقدت الامبراطورية الغربية معظم أعضائها مما آذن بسقوط هذه الامبراطورية وضياع البقية الباقية منها (١) .

والواقع أن عوامل الاضمحلال التى أخذت تنخر ببطء فى عظام الامبراطورية الغربية على عهد الامبراطور هنريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) والامبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٥) ازدادت خطورة بعد ذلك ، لاسيما بعد أن كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ ، وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين(٢) . ذلك أن الوندال أصبحوا بعد احتلالهم ولاية افريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . ولم يلبث أن ظهر أسطول وندالى عند مصب نهر التيبر فى صيف سنة ٤٥٥ ، وعندئذ حاول البابا ليو العظيم انقاذ روما من الوندال ، كما سبق أن أنقذها منذ سنوات قليلة من أيدى الهون ، ولكنه فشل فى هذه المرة(٣) وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها أربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينة كنوزها ، فنهبوا ما فى القصر الامبراطورى والمعابد والكنائس والبيوت من نفائس ، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم عبيدا عند انصرافهم(٤) . ولعلنا نلمس فى هذه الاغارة دليلا واضحا على أن مجد روما السياسى والحربى أدبر وتولى ، وبالتالى أضحى مستقبلها ومصيرها رهينا بمقدرة الكنيسة البابوية . والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتى ٤٥٥ ، ٤٧٦ أى بين مقتل الامبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الامبراطورية فى الغرب ، تعتبر من أظلم عصور تاريخ الامبراطورية الغربية ، بعد أن فقدت هذه الامبراطورية معظم أراضيها(٥)

---

(1) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 77-94.
(2) Cam. Med, Hist. Vol, 1, pp. 418-420.
(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 78.
(4) Thompson : op. cit. Vol, 1, pp. 100-101
(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

ـ وأصبحت القوة الفعلية فى ايطاليا بأيدى فئة من قادة الفرق الجرمانية المأجورة ، الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعدم وجود قوة أخرى تقف فى طريقهم وتحد من بطشهم . أما الأباطرة فقد أصبحوا ألعوبة فى أيدى الجند ، يولونهم ويعزلونهم وفق ارادتهم ، حتى انتهى الأمر بأن ثار أودواكر ـ زعيم بعض جموع الجرمان ـ ودخل رافنا سنة ٤٧٦ ، حيث كان الامبراطور عندئذ وهو رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus فى الثانية عشر من عمره ، فاكتفى أودواكر بنفيه الى جنوب ايطاليا مع تخصيص معاش كاف له(١) .

وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وأصبحت ايطاليا من الوجهة القانونية تابعة للامبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد الحياة وهى الامبراطورية البيزنطية . وحتى هذه الامبراطورية لم يكن لها عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى ايطاليا ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها الايطاليون طوال القرون التالية ، ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم .

واذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت سنة ٤٧٦ ، ويتخذون هذه السنة التى سقطت فيها الامبراطورية الغربية حدا فاصلا بين عصرين ، فاننا يجب ألا ننساق معهم فى تفكيرهم وتيارهم . ذلك أن الامبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة ، فى الوقت الذى سقطت امبراطوريته ، هذا فضلا عن أن ايطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت اليها . ومن هذا يبدو أن عزلَ الامبراطور الطفل رومولس أوغسطولس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد الى تغير كبير فى الحالة القائمة فعلا(٢) . وهنا ينبغى أن نسجل أيضا أن أودواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ عهدا جديدا أو يحدث انقلابا من نوع غير معروف،وانما كل ماكان يطمع فيه هوأن يحظى بما حظى بهفعلاغيره من

(1) Bury : op. cit. Vol. I, p. 406.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. I, pp. 430-432.

زعماء الجرمان داخل حدود الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من البعثتين اللتين أرسلهما الى زينون امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨(١) . حقيقة أن العالم الغربى ظل بدون امبراطور منذ سنة ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ ، الأمر الذى ظهر أثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وفى تطور البابوية من جهه أخرى ، ولكن عدم وجود أباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى بأى حال زوال فكرة الامبراطورية ، تلك الفكرة التى ظلت تصور الامبراطورية طوال العصور الوسطى على أنها وحدة لا تتجزأ(٢) . هذا وان كان بعض الكتاب ـ مثل أومان ـ يعترفون بالآراء السابقة ، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها أهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى(٣) .

ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب أوربا على أنقـــاض الامبراطورية الرومانية . وهذه الممالك هى مملكة أودواكر فى ايطاليا ، ومملكة الوندال فى شمال افريقية ، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون ووادى الســـاؤون ، ودولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى ، وأخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السويفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا(٤) .

الفرنجة :

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة ، وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل حـــدود

---

(1) Eyre : op. cit. p. 23.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p, 431.
(3) Oman : The Dark Ages, p. 3.
(4) Idem, p. 5.

الامبراطورية • ذلك أن قبائل الفرنجة المتقلبة التى كونت فيما بينها حلفا مائعا فى القرن الثالث ، أخذت تظهر عنـــد بداية القـــرن الخامس فى هيئة كتلة متراصة أهم عناصرها الفرنجة البحريون Francs Ripuaires والفرنجة البريون Francs Saliens وكان كل من هذين الفرعين قد استقر فعلا فى القرن الرابع داخل حدود الامبراطورية الرومانية ، فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى والميز والشلد ، فى حين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى(١) •

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ – ٥١١) المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجة البحريين ، اذ اســـتطاع أن ينزل الهزيمة فى ســـواسون سنة ٤٨٦ بســـياجريوس Syagrius ، وهو الذى ظل يمثل آخر بقايا الادارة الرومانية فى حوض السين على الرغم من سقوط الامبراطورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات(٢) • وقد أخذ كلوفس يعمل بسرعة – بعد انتصاره فى سواسون – على مد نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا • وكان من الطبيعى أن يقابل أهالى البلاد الأصليين هذا التغيير بقليل من الدهشة وكثير من الفتور بعد أن اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة الجرمان الفينة بعد الفينة • وهكذا جاء وقت على غاليا الرومانية أصبحت مقسمة بين القوط الغـــربيين والبرجنديين والفرنجة(٣) •

على أن حركة الفرنجة اختلفت كثيرا فى طابعها عن الحركات التى قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو • ومن هنا يميل بعض المؤرخين الى عدم اعتبار كلوفس فاتحا بكلى معانى الكلمة ، والى وصف نضاله ضد سياجريوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين متعاديتين(٤) • ذلك أن بقية الشـــــعوب

(1) Fliche : La Chretienté Mediévale, p. 30.
(2) Deanesly : op. cit. p. 58, & Gregory of Tours; The Hist. of the Franks 11 27.
(3) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 108.
(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

الجرمانية كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية ، وأخذت تجوس خلال الأقاليم الأوربية عدة سنوات ، حتى استقر كل منها أخيرا وسط جزء من المحيط اللاتينى الغربى بعيدا عن موطنها الأول . أما الفرنجة فانهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى ، وانما أخذوا ينتشرون منه ويضيفون اليه اقليما بعد آخر ، دون أن يتخلوا عن مركزهم الأساسى أو يقطعوا صلتهم به (١) . وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية ، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتينى الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى . كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمة التى امتازت بعدم الافراط فى العنف والاساءة الى أهالى البلاد الأصليين . ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضياع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة ، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غاليا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم(٢) ، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الامبراطورية الرومانية فى معظم الحالات(٣) . ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين ، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦ (٤) . وليس المهم فى هذه الخطوة الهامة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعبه من الفرنجة ، وانما المهم هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغربى مخالفا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت ممقوتة فى الغرب بسبب

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 108.

(2) Dill : Roman Society in Gaul, p. 89.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 285.

أريوسيتها(١) . والواقع أن رجال الكنيسة الكاثوليكية فى جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة فى الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر ، لأنهم رأوا فى كلوفس وأتباعه الوثنيين مادة خاما يسهل تشكيلها وفق مبادىء الكنيسة الغربية ، لا سيما أن مسلكهم تجاه أهالى البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين أو القوط الأريوسيين . لذلك أخذ رجال الكنيسة فى غاليا يترقبون اليوم الذى اعتنق فيه كلوفس المسيحية فى صورتها الأثناسيوسية ، لا سيما بعد أن تزوج من كلوتيلدا ، وهى أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية(٢) . ويقال ان الظروف التى أحاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمانى فى الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره ، وكان أن أوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦(٣) .

وهنا نستطيع أن نقول أن كلوفس استطاع بهذه الخطوة أن يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم ، ليس فقط فى غاليا وانما فى جميع أرجاء غرب أوربا(٤) ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان ، وهو أمر كان لا يمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين من جهة والبرجنديين أو القوط الأريوسيين من جهة أخرى(٥) . ويكفى أن الملكية الفرنجية كانت الوحيدة بين الملكيات الجرمانية التى اكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم فى غرب أوربا ، حتى أصبح كلوفس قسطنطينا آخر(٦) فى حين ظهر ملوك الفرنجة فى ثوب حماة المسيحية ورجالها فى الغرب مما مهد لايجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul, pp. 86-89.
(2) Deanesly : op. cit. p. 59.
(3) Gregory of Tours : The Hist of the Franks, p. 2-30.
(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 33.
(5) Lavisse : Hist de France. Tome, 11, Premiere. Partie, p. 99.
(6) Lot : The End of the Ancient World p. 317-318.

الفرنجة ، وهو التحالف الذى كان له اثر بعيد فى مستقبل أوربا العصور الوسطى .

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب سنة ٤٩٦ ، بعد أن أخذ الأهالى من الرومان الكاثوليك فى بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفس ـ الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب (١) . على أنه يلاحظ أن توسع الفرنجة فى هذه المرحلة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية وانما امتد ايضا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى . وقد حدث سنة ٤٩٦ أن أخذ الألمانى يباشرون ضغطهم من أعالى الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا الى الجنوب منهم ، فاستنجد هؤلاء الأخيرون بكلوفس الذى أسرع لنجدة أقاربه فشن هجومين على الألمانى أحدهما سنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١ ، حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقة بالألمانى الذين اضطروا الى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين لحماية انفسهم من الفرنجة (٢) وتعتبر هذه الحرب بين الفرنجة والألمانى على جانب كبير من الأهمية حيث أنها أدت الى توسع الفرنجة فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى ، كما أنه ترتب على نجاح الفرنجة فى صد الألمانى عدم قطع الصلة بين الفرنجة من جهة ووطنهم الجرمانى الأول فيما وراء الراين من جهة اخرى ، فضلا عن نجاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العناصر الجرمانية مثل البافاريين والثورنجيين والسكسون (٣) .

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا ، مثل البرجنديين والقوط الغربيين . أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس

---

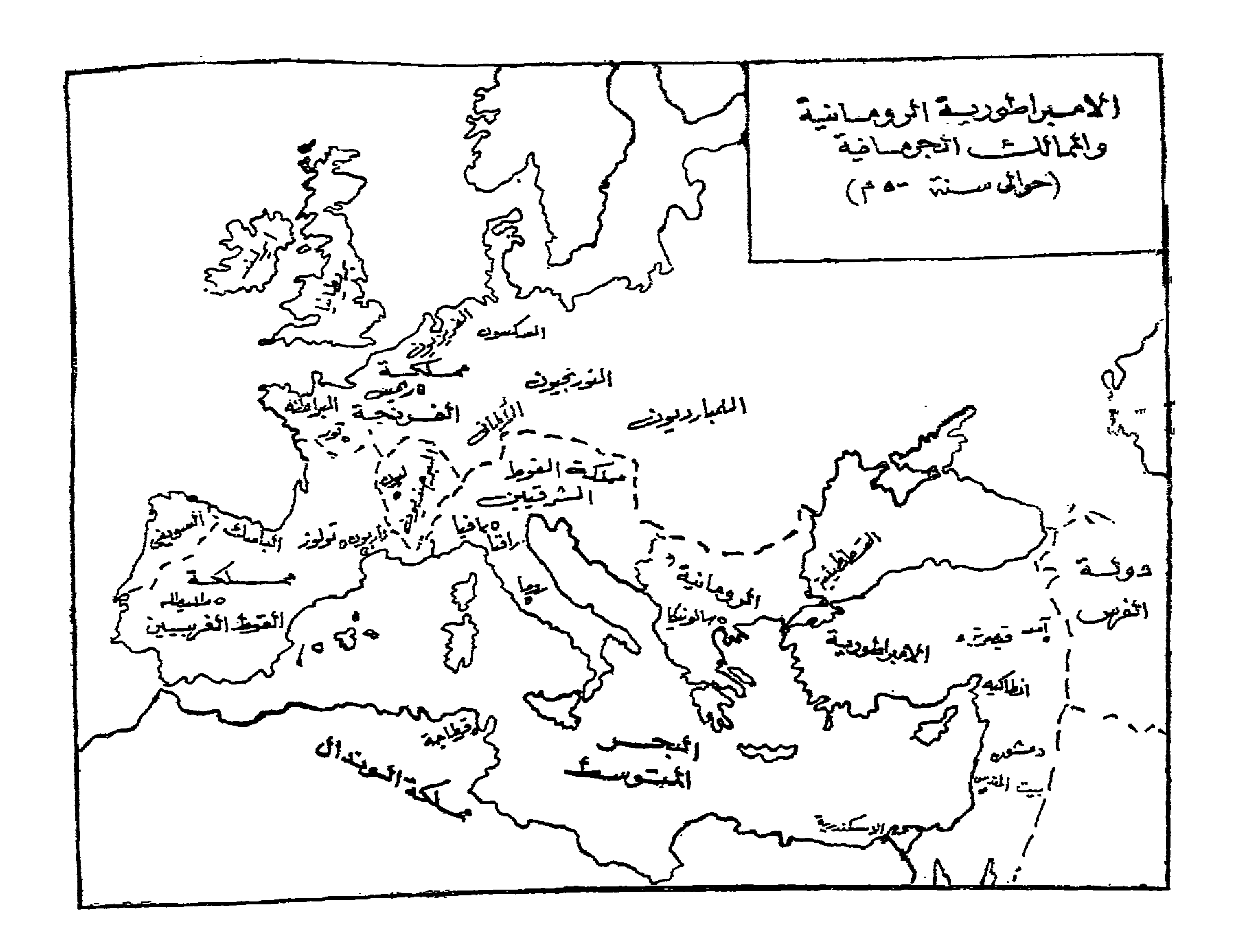
(1) Deanesly : op. cit. p. 60.
(2) Lot : The End of the Ancient World, p. 317.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 109.

أن يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزا للتبعية (١) • وأما القوط الغربيون فان كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم آلرك الثانى بعد أن هزمه فى فوجليه Vougle كما استولى على تولوز سنة ٥٠٨ • ولم ينقذ القوط الغربيين من أيدى الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى أسرع لنجدة أقربائه (٢) • وأخيرا حل الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون ـ بما فيه مدينة تولوز ـ فى حين احتفظ ثيودريك باقليمى بروفانس وناربونيس (سبتمانيا) (٣) •

وعندما توفى كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جـــانبى الراين ، وتشمل جميع غاليا ما عدا أرموريكا (بريتانى) وجاســكونى وبروفانس • على أن هناك حقيقة هامة أثرت فى تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا ، هى أنهم ظلوا يعتبرون الملك ارثا يقسم بين سائر أبناء الملك أسوة بسائر أنواع الارث ، ووفقا لهذا المبـــدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين فى الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة (٤) • ومع ذلك فان توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين كلوفس من نزاع وخلاف • ففى سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا، كما استولى على اقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢ ، وبرجنديا سنة ٥٣٤ ، وبافاريا سنة ٥٥٤ ــ ٥٥٥ ، وجاسكونى سنة ٥٦٧ • وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة ، أن لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة اخوته الثلاثة ، أى أنه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنـــديا وثورنجيـــا وبروفانس وبافاريا (٥) •

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul. p. 91.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 484.
(3) Lot : The End of the Ancient World pp. 318-319.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. Vol, 1. p. 484,
(5) Deanesly : op. cit. p. 67.


الامبراطورية الرومانية
والممالك الجرمانية
(حوالى سنة ٥٠ م)
السكسون
الفرنجة
مملكة
الفرنجة
ريمس
البرطانيون
تور
اللومبارديون
الألمان
مملكة القوط
الشرقيين
البرجنديون
ليون
أربونة
تولوز
رافنا
ميلان
الباسك
السويفي
مملكة
القوط الغربيين
طليطلة
روما
الرومانية
سالونيكا
القسطنطينية
الامبراطورية
دولة
الفرس
قيصرية
انطاكية
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
قرطاجة
مملكة الوندال
البحر
المتوسط

على أن مملكة الفرنجة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سنة ٥٦١ (١) • وقد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هذه المرة بين الأقسام التى انقسمت اليها مملكة الفرنجـــة وهى أوستراسيا ونستريا ، فى حين كان الطابع اللاتينى هو الغـــالب على برجنديا واكوتين • ومهما يكن من أمر فان العصر الأول لتاريخ الفرنجة ـ وهو عصر البطولة الذى امتاز بالتوسع والغزو ـ انتهى سنة ٥٦١ (٢) ، ليبدأ عصر آخر سنعود اليه بعد قليل •

القوط الشرقيون :

رأينا ما كان من أمر سقوط الامبراطورية العربية فى ايطاليا سنة ٤٧٦ ، وهو الأمر الذى جعل لأباطرة الدولة الشرقية نوع من السيادة الاسمية على ايطاليا بحكم ما لأباطرة هذه الدولة من حق فى وراثة أباطرة الغرب •ولكن حدث سنة ٤٨٩ ـ أى بعد موقعة سواسون بثلاث سنوات ـ أن انتهى ما كان لأباطرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية فى ايطاليا وذلك عندما غزاها القوط الشرقيون تحت زعامة ثيودريك (٣) •

وكان القوط الشرقيون قد تعرضوا سنة ٣٧٥ لخطر الهون ولـــكنهم لم يستطيعوا الفرار عبر الدانوب كما فعل اقرباؤهم القوط الغربيون ، ومن ثم ظلوا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سنة ، أى حتى سنة ٤٥٢ عندما توفى أتيلا وتفككت امبراطوريته وأخذت الشعوب الخاضعة للهـــون تتحرر من سيطرتهم (٤) • على أن القوط الشرقيين وجدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهون فى حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق أقاليم

---

(1) Lavisse : Hist. de France, Tome 11, Premiere Partie, p. 132.
(3) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 114.
(3) Oman : The Dark Ages. p. 16.
(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 365.

الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى أصبحت الاقامة فيها أمرا متعذرا . لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الامبراطورية حيث أخذوا يسببون لها مضايقات شتى (١) . وعلى الرغم من أن قوات الامبراطورية الشرقية أسرت تيودريك - ابن ملك القوط الشرقيين - وأرسلته رهينة الى القسطنطينية ، الا أن المناصب والألقاب البراقة التى خلعها عليه البيزنطيون ، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية ، لم تنس ثيودريك أهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيئتهم الفقيرة ، ففر اليهم سنة ٤٧٤ وأخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان (٢) . وأخيرا رأى الامبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهيهم بايطاليا ، فألقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨ . وكان أن نفذ القوط الشرقيون الى ايطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند ايسونزو Isonzo وفيرونا ، حتى اعتصم أودواكر برافنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣ . ولم يلبث أن دخل ثيودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد ايطاليا (٣) ، والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا عن امبراطور الدولة الشرقية فى ايطاليا ، حتى أنه سك اسم الامبراطور البيزنطى على العملة (٤) ، ولكنه أصبح من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت ايطاليا وصقلية وغيرها من الأقاليم المجاورة مثل بانونيا ودلماشيا واليريا وبروفانس ، فى حين ظلت كورسيكا وسردينيا فى أيدى الوندال .

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لايطاليا شكل هجرة عامة ، اذ اصطحبوا

---

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 115.

(2) Deanesly : op. cit. p. 35.

(3) Eyre : op. cit. p. 25.

(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

معهم نساءهم وماشيتهم(١) • أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصيه سياسيه في عصره ، بل انه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمة والوسطى • ذلك أنه دخل الامبراطورية صديقا لا عدوا ، كما أراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا • ويكفى أن ايطاليا تمتعت فى عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية (٢) • من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليله نسبيا فى النظم القائمة بايطاليا ، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦ ، فاتخذ قصره فى رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه فى طابعها النظام الامبراطورى القديم ، كما احتفظ بالسناتو والوظائف العمومية والنظام الادارى والمدارس ، فضلا عن أنه أبقى ملكية الأرض الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى • واذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصلى بعد عدة أجيال (٤) • اما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فان ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الايطاليين الكفاة لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الامبراطورية الرومانية فى سابق مجدها • ومن أمثلة الرجال الذين استعان بهم ثيودريك كاسيدورس Cassiodorus وانوديوس Ennodius وسناريوس Senarius وأجابيتوس Agapitus وبيوثيوس Boethius وغيرهم (٥) • كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ، الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل

---

(1) Eyre : op. cit, p. 25.
(2) Idem : pp. 25-27.
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 241.
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 22-24.
(5) Eyre : op. cit. p. 6.

بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين .

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صادقة فى التوفيق بين أهالى ايطاليا الاثناسيوسيين والقوط الاريوسيين ، الا أن الخلاف المذهبى ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين . حقيقة ان ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية ، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيودسيوس ، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناة الحضارة فى اوائل العصور الوسطى (١) . ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا البناء الكبير الذى أجهد ثيودريك نفسه فى اقامتـــه كان لا يمكن أن يدوم أو يستمر طويلا . فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا أقاموا وسط مجتمع كبير من أهالى ايطـــاليا الأصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين ؛ هذا فضلا عن أن القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيمـــا وراء الدانوب والراين — بعكس الحال مع الفرنجة — مما ترتب عليه انقطـــاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فيهم روحهم ويذكرهم بأصولهم ومبادئهم الجرمانيه (٢) لذلك نجد أنه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطه فى فيرونا أو رافنا ، وتسامحه الدينى والسياسى ، ورعايته للآداب والفنون ، وحرصه على اقامة كثير من الجسور والطرق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة ، الا أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالى لم يقدر له البقاء طويلا (٣). ذلك أن ذكرى روما القديمة ، وموقف الامبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان ، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالى ايطاليا الأصليين ، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمـــل ثيودريك فى اقامة مملكة قوطية ثابتة الأركان فى ايطاليا . وقد اتضحت هذه

---

(1) Idem : op. 27.
(2) Thompson : op. cit. Vol, p. 118.
(3) Lot & Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 113-116.

الحقيقة المؤلمة لثيودريك فى أواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول — امبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ — ٥٢٧) بحركة اضطهاد واسعة ضد الاريوسيين أدت الى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم ، الأمر الذى جعل ثيودريك يرسل بعثة برياسة البابا حنا الأول سنة ٥٢٥ الى الامبراطور البيزنطى للعدول عن سياسته (١) • ويبدو أن فشل هذه البعثة فى تحقيق أغراضها جعل ثيودريك يتشكك فى جميع من حوله ، حتى قام بحركة اضطهاد مماثلة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى ايطاليا • ولم ينج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف بوئيوس الذى أعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به فى السجن البابا حنا الأول فى العام التالى • وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات فى العام نفسه (٥٢٦) بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية فى ايطاليا للأريوسيين (٢) •

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى أرسل جستنيان — امبراطور الدولة الشرقية — جيشا الى ايطاليا سنة ٥٣٦ لاستردادها من القوط واعادتها الى أحضان الامبراطورية • وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة الا أن قوتهم انهارت بعد سنوات قليلة (٥٥٢) وبذلك اختفى القوط الشرقيون كأمة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ (٣) •

الانجلز وبريطانيا :

صورت لنا الحوادث السابقة الخاصة بتسلسل الغزوات الجرمانية كيف تفككت الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس بعد أن استولى الجرمان على غاليا وأسبانيا وافريقية وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة • أما بريطانيا التى أشرنا الى أن الفرق الرومانية انسحبت منها فى أوائل القرن الخامس (٤)

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 454.
(2) Deanesly : op. cit pp. 43-44.
(3) Cam. Med Hist, Vol, 2. p. 18.
(4) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 72-73.

فلم تلبث الأحداث التى تلاحقت عليها فى المائة والخمسين سنة التـالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ ، حتى اذا ما ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت انجلترا لا بريطانيا •

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطىء بحر الشمال وفى شبه جزيرة جتلاند — مثل الأنجلز والسكسون والجوت — أخذت تواصل اغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع (١) • وقد جـددت هذه العناصر اغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢ ، ولكنهم أغاروا فى هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الاقامة ، حتى تم لهم — عند نهاية القرن السادس — اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم انجلترا ، ماعدا اقليم كورنوول فى الجنوب الغربى (٢) • ولكن اذا كان أمر الجرمان فى صلب القارة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وســط الشعب الرومانى المغلوب على أمره ، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحى اللغوية والدينية والحضارية ، الا أن الموقف اختلف فى بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالى البلاد الأصليين من الكلت ، مما جعل المسيحية تختفى مؤقتا من البلاد •

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم ، وانما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (٣) ، وهى مملكة كنت التى تألفت من الجوت ، وممالك اسكس Essex وسسكس Sussex ، ووسكس Wessex التى كان أهلها من السكسون ، ثم ممالك انجليا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند ، وكان أهلها من الأنجلز • وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (٥٦٠ — ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا • وكان هذا الملك قد تزوج برتا Bertha — وهى أميرة فرنجيـة مسيحية —

(1) Cam. Med. Hist. Vol, I, pp. 378-381.
(2) Hadgkin : The Hist of England. p. 108.
(3) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 95.

فى الوقت الذى وصل انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم • وكان وصول أوغسطين الى كنت سنة ٥٩٧ واعتناق ملكها أثلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهـة وسرعة انتشار المسيحية فى انجلترا من جهة أخرى ، الأمر الذى أدى الى خروج أهالى بريطانيا عن عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية(١)• وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جـزءا من الخسارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد باستيلاء المسلمين على أسبانيا • هذا الى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى انجلترا ، فظل الانجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الامبراطـورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لا يجدون أمامهم سوى روما والبابوية (٢) •

والواقع ان القديس أوغسطين - الذى اصبح أول أساقفة كانتربورى (٥٩٧ - ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت ، ولـكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة • وعلى الرغم من ذلك فان المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها • حقيقة أن الكنيسة فى انجلترا صادفت عدة صعاب اعترضت سـبيل تنظيمها وربطها بالبابوية ، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع ممـا أتاح لانجلترا نصيبا عن تراث الحضارة الكلاسيكية • ومن أبرز أسـاقفة كانتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ - ٦٩٠) الذى نظم الأسقفيات فى انجلترا وزاد منها ، كما جعل من يورك كرسيا لرئيس أساقفة ، وعقد اولى المجامع الدينية التى عرفتها الكنيسة الانجليزية (٣) • وهكذا ليست هناك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار تيودور هذا مؤسـس الأمة الانجيلزية التى كانت حتى ذلك الوقت

---

(1) Idem. p. 96.
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 303-304.
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 540.

مفتتة الى قبائل صغيرة ، كما اعتبروه واضع دعائم الحياة العلمية فى انجلترا وهى الحياة التى بلغت ذروتها على عصر بدة Bede. (٦٧٥ – ٧٣٥) (١)٠

أما فى الجانب السياسى فقد ظلت انجلترا تعانى الكثير بسبب الانقسامات وعدم الوحدة حتى استطاع اجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ – ٨٣٩) ان يغزو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة سنة ٨١٥ ، وأن يهزم مرسيا سنة ٨١٩ وبذلك اصبح سيد انجلترا وصارت وسكس أكبر قوة سياسية عندما بدأت تشتد اغارات الفيكنج فى القرن التاسع (٢) ٠

* * *

وبعد ، فعله من الواضح الآن أن الغزوات التى قام بها البرابرة – من جرمان وغير جرمان – تركت أثرا واضحا فى المجتمع الرومانى ٠ ذلك أن هذه الغزوات أدت الى تحطيم الامبراطورية الرومانية فى الغرب وضياع معظم أقاليمها غنيمة فى أيدى الغزاة ٠ حقيقة ان جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ – ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها الامبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية وايطاليا واسبانيا ، ولكن نجاحه كان مؤقتا سريع الزوال (٣) ٠ أما فى الناحية الاقتصادية ، فقد رأينا أن الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها ، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة لأن التدمير الشامل الذى نتج عنها وما صحبها من حروب بين الغزاة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية أدت الى توقف التجارة والزراعة والصناعة بل الى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام ٠ ولا شك فى أن الأثر النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية الغربية فى نفوس المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم(٤)٠

---

(1) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 195-209.
(2) Idem : pp. 263-265.
(3) Eyre : op. cit. pp. 31-32.
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 36.

واذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحى الحياة فى الامبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة ، فانها كانت الكنيسة الكاثوليكية التى احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت فى ذلك العصر قوة ونفوذا • والواقع أن الأخطار التى ألمت بالعالم الرومانى من جهة ، وسقوط الامبراطورية الغربية من جهة أخرى ، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صورة القوة الوحيدة التى يمكنها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث الماضى ، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التى أحاطت بهم (١) •

(1) Painter : op. cit, p. 28.

الباب الرابع

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره فى أوربا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوربا فى تلك العصور دون الاشارة الى هـــذا الأثر . حقيقة أن الدولة الاسلامية فى أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوربا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة فى البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أى بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، فى الوقت الذى كانت حضارة أوربا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر . وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة . هذا فضــلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقية ، وبالتالى انتقل عن طريقهـــا التراث الحضارى للشرق الى أوربا العصور الوسطى(١) .

وتختلف الغزوات التى تعرضت لها أوربا من جانب العرب منذ القـــرن السابع فى طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التى تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب الجرمان . فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمـــة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

وولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التى أدت الى غـــزو أراضى الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها • أما العرب الذين غزوا الامبراطورية فى القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شىء من الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخـــاذ بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة فى الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن اقامة دولة الغساسنة على حدود الشـــام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم • وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهديد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم(١) •

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شـــاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلم سنة ٥٧٠ وهجرته الى المدينة سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة • وبعبارة أخرى فان انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا اله الا الله محمد رسول الله • على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام في بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته والايمان برسالته • ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفـدهم النبى الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبى يعد العدة للغزو والجهاد ، وان كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتتسع الا بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢ •

وليس العجيب فى أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمـــة

---

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذي غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٢٩ ، أى في العام التالى مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس(١) . وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعانى حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها في البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التى أخذت تقوى عند أقباط مصر والأراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا(٢) . ومهما يكن من أمر فان موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبى بكر الذى بادر بايفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبى عبيدة الجراح - تعمل في الشام ضد الروم ، في حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل في العراق ضد الفرس(٣) . وقد حاول هرقل - امبراطور الروم - ارسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانقاذ الموقف في فلسطين ، ولكن القائد العربى - خالد بن الوليد - أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤(٤) . وعندما توفى الخليفة أبو بكر في هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذى اتسعت الفتوح الاسلامية في عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل في هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين ، ولكنه سرعان

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.
(3) Idem pp. 338-339.
(4) Idem, p. 341.

ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب فى جسده • واذا كان هرقل قد أمضى سنتى ٦٣٥ ، ٦٣٦ فى جبهة الشام ، الا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ — ٦٣٨) (١) • ويروى القلقشندى أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى بعدها الا خائفا » • ثم عاد الى القسطنطينية (٢) •

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم • ففى سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفى سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس(٣) • ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس(٤) •

وفى هذه الأثناء استمرت القوات العربية التى اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام • وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدى المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمعاقل الهمة الموجودة فى شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ — ٦٣٩) • وباستيلاء العرب على قيصرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) • ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس • ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على عظم الخسارة التى منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

(1) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ •

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.

(4) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(5) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى(١) • وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط • وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد(٢) • وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس • ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وان كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير •

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين • وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوربا(٣) •

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال افريقية حتى المحيط الأطلسى وانما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

---

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.
(2) Orton : op. cit. p. 81.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١ ، ٧١٣(١) • وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، اذ فقدت بلادا ارتبطت بهـــا أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحى مثل شمال أفريقية وأسبانيا • وفى جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الاسلام « عن اختيار وارادة حرة »(٢) • وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديرة باهتمام المشتغل بالتاريخ • فالعرب الذين غزوا العالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل • ومع ذلك فان الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلبت فى النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، فى حين كانت الغلبة فى الجهات التى انتزعها العرب واستقروا فيها — مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس — لحضارة العرب ودياناتهم • ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخى واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، فى حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة سماوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد(٣) •

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذى أحرزته ، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين • ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى • حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم • وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئـــة — كما تبدو — وانما هى

---

(1) Thompson : op. cit, vol, 1. pp. 163-164.

(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ •

(3) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 150.

حلقة أخيرة من سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب فى القرن السادس (١) • وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) • ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) • أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيرا أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا •

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع • حقيقة ان مؤرخا محدثا مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكما رومانيا معاصرا فى القرن السابع وقد أرسل

---

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ — ١٧) :

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)

(٣) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ •

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ •

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) . أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم . حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجدبدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) .

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطىء هذا البحر واستيلاءهم على موانى الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الجديدة (٣) . والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيطة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعيدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64
(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47
(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكيفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبيه لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة إكتيوم سنة ٣١ قم (١) .
واذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فان الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجة سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجة ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدى المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس Callinicus . أما هذا الاختراع فعبارة عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطيح بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239
(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطىء الأوربى سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامى يهاجمها من ناحية البحر، حتى كادت المدينة تقع فى أيدى المسلمين لولا النار الاغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧- ٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنيب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوربا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوربا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قنسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرس (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامى على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموى • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيها ، ومن ثم قل الضغط الاسلامى على حدود هذه

---

(1) Idem : pp. 313—314
(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 139
(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

الدولة بصورة واضحة فى العصر العباسى (١) . ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، اذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالمة المسلمين بالمال (٢) . هذا فى الوقت الذى استمرت اغارات العرب البحرية على شاطىء الدولة البيزنطية وثغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٦٠٤ على سالونيكا ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها .

ويلاحظ أن صمود الدولة البيزنطية ونجاحها فى صد المسلمين ، فى الوقت الذى نجح الفرنجة فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير فى مستقبل تاريخ القارة الأوربية . ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الاسلامية تمثل المركز الأساسى للحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامى لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقى للحضارة الأوربية لا مركزها الأساسى . وهكذا أخذ التاريخ البيزنطى منذ اتساع الفتوح الاسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمى أوربا من خطر آسيا ، فى حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوربية الى الغرب (٣) .

على أن أثر العرب والاسلام فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، وانما يبدو هذا الاثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى . وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) . ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة

(1) Painter : op. cit. p. 44
(2) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 317
(3) Eyre : op. cit. p. 64
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشـــارها من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية فى أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويـــلا ـ باستثناء فرس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية الا فى ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوربا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكان الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام فى هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السيف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة ـ التى ما زال بعض المتعلمين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها ـ بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العنـــاصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابو داخل الامبراطورية الرومانية، والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330
(2) Ibid.
(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوربا وأفريقية ، اذا بالبلاد التى فتحها العرب واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة • وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكرى وتقدم اقتصادى وعمران شامل وازدياد مطرد فى السكان والأموال (١) •

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة • ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها • وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التى ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) • وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخى ثابت ومستمر • وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهللينستية وتعهد هذه الحضارة بالحفظ والعناية والتغذية المستمرة • ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف ــ الى حد ما ــ فى الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية • وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوربا يزداد ــ هو الآخر ــ تباعدا عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) • وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330
(3) Ibid.

مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) •

وكان أن أفاقت أوربا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوربا تقبل على هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوربيون الى مراكز الحضارة الاسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب • وازداد تدفق طلاب العلم الأوربيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكرى (٢) • حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليونانى القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ، حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى — أو كاد يضيع — فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التراث اليونانى الفكرى قائما فى كثير من الحالات الا فى التراجم العربية (٣) • وحسبنا ما أحدثه شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوربا العصور الوسطى (٤)، وما سببته معارف العرب فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطور التفكير الرياضى الأوربى ، وما ترتب على انتقال معلومات العرب فى الفلك والجغرافيا الى الأوربيين من تطور شامل ، وما اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) • هذا كله

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48
(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.
(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.
(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوربا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوربيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى (٤) .

---

(1) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.
(2) Orton : op. cit. p. 91
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287
(4) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93

الباب الخامس

إيطاليا بين ثلاث قوى

اللمبارديون ـ البابوية ـ الدولة البيزنطية

لم تكد تمض سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال ايطاليا للقائد البيزنطى نارسيس ، أو على وفاة الامبراطور جستنيان العظيم سنة ٥٦٥ بعد أن اطمأن الى سيطرة قواته على شبه الجزيرة الايطالية ، حتى تعرضت ايطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثرا واضحا فى كيانها السياسى ونظمها الاجتماعية وقوانينها العامة والخاصة (١) .

أما هؤلاء اللمبارديون فكانوا آخر الشعوب الجرمانية التى اقتحمت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها . وقد أقاموا فى القرن الأول عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الالب ، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل . ثم كان أن ظهروا فى بانونيا فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجبداى ، وخرجوا منتصرين من هذا الصراع سنة ٥٦٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الآفار الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوربا (٢) . على أنه يبدو أن اللمبارديين لم يشكلوا فى هذه المرحلة خطرا على الامبراطورية ، بل عملوا كجند مرتزقة فى جيوش جستنيان حتى أن الجزء الأكبر من الجيش البيزنطى الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى ايطاليا لطرد القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين (٣) . ولم تلبث الظروف أن جعلت من اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الامبراطورية ، وذلك عندما اتحدت قبائلهم

---

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 289
(2) Wallace -- Hadrill : The Barbarian West, p. 45
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

تحت زعامة ملك واحد . وكان ذلك في الوقت الذى اضطروا تحت ضغط الآفار الى الجلاء عن بانونيا . وهنا تلفت اللمبارديون حولهم فلم يجدوا بلدا أصلح لهم وأقرب اليهم من ايطاليا .

وهكذا أخذت جموع اللمبارديين تتدفق على ايطاليا فى ربيع سنة ٥٦٨ تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin فى وقت كانت الامبراطورية البيزنطية – تحت حكم جستين الثانى – فى حالة لا تسمح لها بارسال جيوش لصد هذا الخطر الداهم ، لذلك تركز الدفاع عن ايطاليا ضد الخطر اللمباردى فى المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة . ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود ، فلم يكد يمض عام حتى انتشر اللمبارديون فوق سهول نهر البو ، واستولوا على فيرونا وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جديدة من الأهالى او من الحامية البيزنطية . ثم استطاع اللمبارديون اخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة مملكتهم الجديدة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى الاتساع السريع (١) . ذلك أن مقتل ألبوين أثناء حركة توسع اللمبارديين لم يؤثر فى موقفهم وقوتهم ، اذ استطاع أشراف اللمبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة ، بل انزال الهزيمة بها ، حتى استولوا على تسكانيا والأجزاء الوسطى من ايطاليا حتى بنفنتوم ، فضلا عن السهول الشمالية التى لصق بها اسم اللمبارديين حتى اليوم (٢) .

ولم تكن هذه أول مرة تتعرض فيها ايطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا ، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا من قبل لم تنتزع كل الأراضى من أصحابها الرومان ، وانما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الأراضى ونصفها ، وتركت الباقى لأصحاب البلاد الأصليين (٣) . أما اللمبارديون ، فقد وضعوا أيديهم على جميع الأراضى المفتوحة وأنزلوا الملاك الأصليين الى مرتبة التبعية ، كما أذاقوا الفلاحين كثيرا من الضغط والجور . وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على استمرار هذا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196
(2) Oman : The Dark Ages. p. 187
(3) Thompson. op. cit. vol. 1 p. 170

الضغط ، الا أنه من الثابت أن اللمبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التى غزت ايطاليا وأشدها قسوة (١) • هذا الى أن اللمبارديين امتازوا عن غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها • وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا ايطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للامبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل • هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسى من جهة وقلة عددهم بالنسبة لأهالى البلاد من جهة أخرى ، مما جعلهم شديدى التعصب لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية • ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللمباردية ظلت انتخابية فى حين أصبحت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية (٢)•

وقد وجد موريس امبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ — ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللمباردى لايطاليا غير مجدية ، فلجأ الى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى اعادة تنظيم الادارة الامبراطورية فى ايطاليا ، على أساس اقامة نظام الدوقيات فى روما وبيروجيا ونابلى وكالبريا ولبجوريا ، بحيث تخضع كلها للنائب الامبراطورى فى رافنا • وكان النائب الامبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته ، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللمبارديين (٣) • على أن أهم ما يلاحظ على الأملاك البيزنطية فى ايطاليا عندئذ هو تناثرها وعدم ارتباطها ، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين (٤) • وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Authari ملك اللمبارديين (٥٨٤ — ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سيادته ، حتى اذا ما تم له ذلك بدأ

---

(1) Orton : op. cit. p. 103
(2) Wallace — Hadrill : op. cit. p. 45
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 178
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 190—191

يوجه كل جهوده نحو حرب الفرنجة وصد خطرهم (١) • وثمة تطور آخر هام حدث فى عهد أوثارى هو زواجه من ابنة دوق بافاريا ، وهى أميرة كاثوليكية ، الأمر الذى نشأ عنه اعتناق زوجها للمذهب الكاثوليكى الذى أخذ ينتشر بين اللمبارديين فى القرن السابع (٢) •

وبعد أوثارى جاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللمبارديين (٥٩٠ — ٦١٦) وقد شاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالمنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللمبارديين ، مما مكن الملك اللمباردى من انتزاع أجزاء جديدة من أملاك الدولة البيزنطية فى ايطاليا ، حتى توسط البابا جريجورى العظيم فى عقد اتفاقية بين اللمبارديين والامبراطورية البيزنطية سنة ٥٦٨(٣) • على أن نقض النائب الامبراطورى فى ايطاليا لهذه الاتفاقية جعل اللمبارديين ينزلون خسارة جسيمة بالامبراطورية ، اذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم مانتوا — آخر المعاقل البيزنطية فى حوض البو — فى السنة نفسها • وهنا لجأ الامبراطور فوقاس — ازاء الأخطار الجسيمة التى تهدد دولته عندئذ ، وبخاصة من جانب الفرس — الى شراء مسالمة اللمبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم • وقد تعرض اللمبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية ، فضلا عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الأفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية • ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا العصر يمثل دور النضج بالنسبة للمبارديين وحضارتهم فى ايطاليا ، اذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمون ببناء الكنائس وينصرفون نحو كثير من المشروعات السلمية(٤) •

على أن أشهر ملوك اللمبارديين وأهمهم فى التاريخ كان روثارى Rothari (٦٣٦ — ٦٥٢) الذى شهد عصره اتمام غزو شمال ايطاليا

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 190—200
(2) Oman : op. cit. p. 193
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 201
(4) Oman : The Dark Ages, p. 195


ايطاليا
سنة ٥٩٠
بافاريا
برجنديا
اوستريا
نستريا
فيرونا
رافنا
انكونا
دوقية
سبولتو
دوقية
روما
بنفنتو
نابلي
كورسيكا
سردينيا
ممتلكات البيزنطيين
ممتلكات اللمبارديين

وانتزاع المنطقتين اللتين كانتا لا تزالان تحت سيطرة البيزنطيين ، وهمـــا منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا — بما فيها مدينة جنوا العظيمة — ، والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو Oderzo على شاطىء البندقيـــة • ولم يحصل روثارى على هذه الجهات الا بعد جهاد عنيف وقتال شاق ضـــد البيزنطيين ، انتهى بانتصاره عليهم بعد أن حملهم خسارة فادحة (١) • ولا ترجع أهمية روثارى فى التاريخ الى انتصاراته السابقة فحسب ، بل يرجع جانب كبير من شهرته الى أنه شكل القانون اللمباردى ونظمه ، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين العرفية الخاصة بالشعب اللمباردى والتى لم يسبق تدوينها أبدا من قبل • حقيقة ان القوانين والتشريعات التى أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأحراش والغابات ، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب ايطاليا • ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية والتزامات الاتباع نحو سادتهم وتنظيم حقوق الوراثة ، دون أن تحوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة ، فان أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضاع الشعوب الجرمانية ، فضلا عن كونها أول قانون مدون للمبارديين (٢) •

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضد الفرس ثم العرب ، حاولوا فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ — ٦٦٨) أن يقفوا موقفا قويا تجاه اللمبارديين فى ايطاليا ، ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التى أمسى فيها اللمبارديون عقب وفاة ملكهم روثارى سنة ٦٥٢ فى احياء النفـــوذ الامبراطورى واسترداد ما فقدته الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية(٣)• ولذلك هجم البيزنطيون على بنفنتوم (٦٥٠ — ٦٦٣) ولكن اللمبـــارديين اتحدوا واختاروا جريمولد دوق بنفنتوم ملكا عليهم (٦٦٢ — ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين(٤) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 203
(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 289 -290
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 9 ---293
(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 239.

وهكذا نجح الغزو اللمباردى فى القضاء على الوحدة الايطالية التى أجهد الامبراطور جستنيان نفسه فى احيائها ، فظلت ايطاليا حتى القرن التاسع عشر مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها • والواقع أن ايطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى : اللمبارديون والدولة البيزنطية والبابوية • وان نظرة عابرة يلقيها الباحث على خريطة ايطاليا عندئذ لتوضح له ما كانت عليه من انقسام وبعثرة سياسية حتى صار من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا بعضها ببعض الا عن طريق البحر(١) •

ازدياد نفوذ البابوية :

أما الأهمية القصوى لعصر استقرار اللمبارديين فى ايطاليا فترجع قبل كل شىء الى ما شهده ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها السياسى ، حتى غدت تمثل احدى القوى الحاكمة فى ايطاليا الى جانب اللمبارديين والدولة البيزنطية • وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الفترة هو تضاعف ممتلكات الكنيسة فى ايطاليا ، وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية موردا ماليا ضخما فحسب بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى البلاد(٢) • ذلك أن أساقفة ايطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التى سادت ايطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضى ويتخذون لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين ، فيعينون موظفى البلديات فى المدن ويشرفون على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الأعمال التى هى فى الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين(٣) • وقد ساعد رجال الكنيسة على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الأراضى ، أن صغار ملاك الأراضى فى ايطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها ، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللمبارديين

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. I pp. 172- 173
(2) Moss : op. cit. p. 132
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 229

والبيزنطيين سوى الكنيسة ، فسلموها أراضيهم مختارين وأصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان (١) • أما البابا فكان لا يختلف — من الوجهة النظرية — عن غيره من الرعايا البيزنطيين ، وذلك من حيث تبعيته للنائب الامبراطورى • ولكن نفوذ هذا النائب الامبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس ، ولا سيما أن نواب الامبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزا للدفاع ضد الخطر اللمباردى ، وانما آثروا الاقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها الا سيد واحد هو البابا (٢) • وهنا نلاحظ أنه اذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الأراضى فى ايطاليا فان الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما ، وانما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت الى صقلية فضلا عن ممتلكات البابا خارج ايطاليا ، بحيث أنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كانت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها (٣) • وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) لخطر اللمبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال ايطاليا ، كما أدى توسعهم فى أواسط أيطاليا الى تهديد الأراضى البابوية فى تلك الجهات • وربما كان الخطر اللمبردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تعثر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمبارديين جميعا (٤) •

والواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التى ميزتها طوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم • وقد ولد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء ، ولكنه أظهر منذ حداثته نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية ودير سابع فى روما • ولم يلبث أن استقال من المنصب

---

(1) Moss : op. cit. p. 132
(2) Oman : The Dark Ages. pp. 198—199
(3) Lot : The End of the Ancient World. p. 305
(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 174

الكبير الذى عينه فيه الامبراطور جستين الثانى ، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحياة الديرية (١) • وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ — على الرغم من تمنعه الشديد — أخذت تظهر شخصية هذا البابا الجديد على حقيقتها ، لتعبر عن كثير من الصفات التى امتاز بها أهالى العصور الوسطى ، مثل ولعه باللاهوت واعتقاده فى المعجزات وبغضه للتراث الكلاسيكى وحماسته للديرية (٢) • والى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجم ، حتى اتخذ لنفسه وهو بابا لقب « خادم خدام الله "Servus Servorum Dei" زيادة على بساطته المتناهية • ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة الى معاصريه من الأساقفة والملوك لينهاهم فيها عن المفاسد ويأمرهم بالخير والاستقامة (٣)•

وتبدو عظمة جريجورى الأول أشد ما تكون وضوحا فى النواحى السياسية والادارية والتبشيرية ، فحكومته فى روما كانت أقرب الى الحكومة الدنيوية منها الى الحكومة الدينية • ذلك أنه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد اللمبارديين كاعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع ، بل توجيه الهجمات • وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢ ، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجيولف سنة ٥٩٨ أنهى به الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغزو اللمباردى لايطاليا (٤)• وتشهد رسائل جريجورى الأول — التى دونت عند نهاية القرن السادس—على مدى دقة هذا البابا وكفايته الادارية • ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن كيفية ادارة جريجورى لأملاك البابوية الواسعة ، وعن جهوده فى تنمية مواردها والاشراف اشرافا دقيقا على ايراداتها ومصروفاتها (٥) • وقد أراد جريجورى الأول أن يستغل ايراد

(1) Dudden : Gregory the Great; vol. 1 p. 106
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236—237.
(3) Oman: the Dark Ages, p. 201
(4) Dudden : op. cit. vol. 1, p. 246
(5) Moss : op. cit. p. 132

البابوية الضخم فى مختلف الأغراض التى تعود على أبناء العالم المسيحى بالخير ، مثل فدية أسرى المسيحيين ، وتخفيف آلام المجاعات وانشــــاء المستشفيات للعناية بالمرضى والجرحى ، وتدعيم الكنائس أو اصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لبعث اللمبارديين (١) • وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الايطالية ، لأن هذا البابا حرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحى بأهميته بوصفه أبا روحيا للجميع ، فاذا ســـمع بحدوث أزمة اقتصادية فى القسطنطينية أسرع بارسال السفن اليها من صقلية محملة بالقمح ، واذا علم بحاجة قبط مصر الى الأخشاب أرسل لهم حاجتهم من سردينيا •• وهكذا (٢) •

وعلى الرغم من ان اختيار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الامبراطور البيزنطى وقبول البابا الجديد لجميع قرارات المجـــامع الدينية السابقة ، الا أن جريجورى أظهر دائما تمسكا بسيادة كرسى روما على بقية الكراسى الأسقفية فى الشرق والغرب (٣) ، حتى أنه حاول ـدون جدوىـ فرض سيادة البابوية ــ فى الناحية القضائية ــ على الأساقفة الشرقيين بما فيهم بطريرق القسطنطينية • ويبدو أن ضعف النائب الامبراطورى فى ايطاليا ، وافتقاره فى معظم الحالات الى المال والرجال ، ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدنى فى بقية انحاء ايطاليا ، فضلا عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى الى أفريقية وغاليا وأسبانيا وانجلترا (٤) • ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكى بين القوط الغربيين ، وبذلك أدخل أسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية ،كما أرسل بعثة القديس أوغسطين الصغير الى انجلترا ،الأمر الذى أدى الى انتشار المسيحية فيها من جهة والى سيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى • أما فى ايطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم

---

(1) Deanesly: op. cit. p. 180 & Moss : op. cit. p. 132
(2) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 178
(3) Cam. Med. Hist. vol. 1 p. 246
(4) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 201—237

الكنيسة الكاثوليكية بين اللمبارديين عن طريق تأثيره على زوجـــة ملكهم أجيلولف (١) • وفى غاليا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة ، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة فى جميع أنحاء غاليا • حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معونة الامبراطورية البيزنطية لاخضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقه الدوناتيين فى شـــمال افريقية (٢) ولكنه بلغ بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون الى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، لم يتراجع عن تهديد الامبراطور موريس عندما لجأ الأخير الى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجـــال القادرين على الخدمة العسكرية ، وهكذا استطاع جريجورى — بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها — أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفاؤه من البابوات (٣) ويكفى أنه ترك لخلفائه — عندما توفى سنة ٦٠٤ — بناء بابويا شامخا ونفوذا روحيا واسعا وسلطة زمنية قوية ، كما حقق للمنصب البابوى قسطا من السمو لم يسبق أن حظت به البابوية من قبل (٤) •

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابوية منذ عهد جريجورى الأول ، سرعان ما أدت الى نوع من التنافس بينها وبين الامبراطورية نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه ، وهو تنافس أدى الى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوسطى • وقد بدأ الاحتكاك أول مرة بين الامبراطور قنسطانز الثانى (قنسطنطيوس) ٦٤١ — ٦٦٨ ، والبابا مارتن الأول (٦٤٩— ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجمعا فى روما سنة ٦٤٩ أعلن بطلان المرسوم الذى أصدره الامبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية ، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمع فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها • ولم يستطع الامبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة فأمر نائبـــه فى ايطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البابا ، فتم ذلك وأرسل البابا الى القسطنطينية

(1) Cman : The Dark Ages, p. 202
(2) Moss: op. cit. p. 133
(3) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 238—239
(4) Oman : The Dark Ages. p. 203

حيث حوكم ونفى الى القرم ليموت ٦٥٥ (١) . ويبدو أن حرص الامبراطور قنسطانز على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال الى ايطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللمبارديين فى بعض مواقع فى الجنوب ، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ - ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية (٢) . على أن هذه الزيارات أضرت فى الواقع بالامبراطور وسمعته أكثر مما أفادته ، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التى وجدها فى روما ، هذا فى الوقت الذى لم يغفر الايطاليون للامبراطور قنسطانز ما فعله بالبابا مارتن الذى اعتبروه شهيدا . ويبدو أن قنسطانز أحس عندئذ بخطورة ازدياد نفوذ البابوية ، بدليل انه حاول أن يقلم أظفارها ، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطانها الروحى . وقد استمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة ، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة الى حظيرة البابوية .

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الامبراطور قنسطانز موقفا صلبا عنيدا ، ولتطور الأمر عندئذ الى نزاع خطير بين البابوية والامبراطورية . ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ، فخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع ، الأمر الذى أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ، ولكن الى حين (٤) . ذلك أن قنسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية ، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر فى عهد خليفته جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥) الذى عاد فحرض نائبه فى ايطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وارساله الى القسطنطينية . ولكن النائب الامبراطورى تعرض - عند محاولة تنفيذ هذا الأمر - لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها ، فضلا عن أهل روما ، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا فى الوقت الذى أدت سياسة الامبراطور جستنيان الثانى

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. p. 231
(2) Idem : p. 239
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 394
(4) Oman : The Dark Ages, pp. 277—278

الى عزله (١) • وقد ساعدت الفوضى التى تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية فى الاثنتين والعشرين سنة التالية (٦٩٥ - ٧١٧) على ضعف نفوذها فى ايطاليا ، وهو الأمر الذى أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة ، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) باشر جمع الضرائب فى روما كما عقد المعاهدات مع دوق بنفنتو اللمباردى •

ثم كان أن ساءت العلاقات الى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) عندما أخذ الامبراطور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية • ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة ، كما استغل نفوذ الامبراطورية فى ايطاليا ـ ما عدا الجنوب ـ من جهة أخرى ، ليتحرر من سلطة الامبراطورية تحررا تاما ، ويجعل سلطة البابا الزمنية فى أواسط ايطاليا حقيقة ملموسة • لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الامبراطورية مثل جمع الضرائب فى ايطاليا سنة ٧٣٥ ، كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الامبراطورى مما يعتبر خروجا على الامبراطور (٢) • وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتال بين اتباع الامبراطور وأتباع البابا فى ايطاليا ، أعاد اللمبارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتوبراند (٧١٢ - ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللمبارديين • وقد عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديرة ، فى الوقت الذى اختار ألا يتخذ سياسة معادية للامبراطورية• وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسط سيادة الملكية اللمباردية على جميع أنحاء ايطاليا ، مما أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللمبارديين فضلا عن الامبراطورية والبابوية جميعا (٣) • وهكذا أخذ اللمبارديون يهاجمون الممتلكات الامبراطورية ويستولون على المدن التابعة للامبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا وأوزيمو Osimo وريمينى Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ ، فنزل عند رغبة البابا

(1) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 408—409
(2) Deanesly : op. Cit. p. 411
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 290

رسلمه قلعة سوترى Sutri التى انتزعها اللمارديون من البيزنطيين قرب روما (١) ٠

وفى ذلك الوقت استمر جريجورى الثـــانى يرد على الامبراطور ليو الثالث فى لهجة عنيفة ، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات ، مهددا اياه بالاحتماء باللمبارديين اذا جرؤ الامبراطور على ارســـال جيش ضد روما (سنة ٧٢٩) (٢) ٠ ومن الواضح أن الاحتماء باللمبارديين كان اخر ما يمكن أن تلجأ اليه البابوية ، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل لتوبراند معناه القضاء التام على ما تطمع فى تحقيقه البابوية من سلطة زمنية ٠ ثم انه ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخليص نفسها من سيطرة الامبراطور البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللمباردى ٠ وهكذا يبدو أن جريجورى الثانى ـ عندما هدد الامبراطور البيزنطى بالاحتماء باللمبارديين ـ لم يكن جادا فى تهديده ، بدليل أنه قام عندئذ ببذر بذور الفرقة بين ليتوبراند فى الشمال ودوقتى بنفنتو وسبوليتو فى الجنـــوب (٣) وسرعان ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط ايطاليا ، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد خطرا وهم اللمبارديون ٠

وقد حدث ذلك فى الوقت أن توفى البابا جريجورى الثانى وخلفه البابا جريجورى الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١) ، الذى كان هو الآخر من كبار المتحمسين للأيقونية ، مما أوقعه فى عداء مرير مع الامبراطور البيزنطى ٠ وكان أن رد الامبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد باصدار مرسوم لتحديد اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب ايطاليا عن البابوية وسلطانها (٤) ٠ وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعد الامبراطور ليو الثالث

---

(1) Thompson : op. cit. vol. I p. 181.
(2) Oman : The Dark Ages, pp. 282—283
(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 691—695
(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 267

أسطولا وحملة لاسترداد أملاك الامبراطورية من اللمبارديين ، والقبض على جريجورى الثالث • ولكن الطبيعة أبت الا أن تعاكس الامبراطور ، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتى حطمت الأسطول الامبراطورى وقضت على المشرع البيزنطى • وتعتبر هذه آخر محاولة جدية بذلتها الامبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى ايطاليا ، اذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك الى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الامبراطورى نفوذ يذكر (١)•

التحالف بين البابوية والفرنجة :

أما عن الموقف فى ايطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال ثمانية الأعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠ • وتدل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلا تقيا ، احترم البابوية وناصر المسيحيين ضد أعدائهم • من ذلك أنه عندما غزا المسلمون اقليم بروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس ، فأسهم اللمبارديون فى طردهم من غاليا (٢) • على أن جو السلام الذى ساد ايطاليا حتى سنة ٧٣٨ ، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبوليتو ضد ليتوبراند (٣) • والمهم من أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى الى فرار الأمير الثائر الى روما محتميا بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف الى روما ويحاصرها • وفى هذه الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، فأرسل اليه طالبا المساعدة ضد اللمبارديين (٧٣٩) (٤) • على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمرا متعذرا ، اذ كان الأول مازال مشغولا بأمر المسلمين الذين لم تنقطع اغاراتهم على غاليا ، فضلا عن أن شارل مارتل

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 284—285 e
(2) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 129
(3) Oman : The Dark Ages, p. 285
(4) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 137

كان لا يزال يذكر فضل ملك اللمبارديين فى مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين • وهكذا لم يصادف طلب البابا جريجرى الثالث قبولا من شارل مارتل ، ولا سيما أن رجال الدين الفرنجة كانوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على أراضى الكنيسة • واذا كان ليتوبراند قد استغل هذه الظروف فى الاستيلاء على دوقية سبوليتو ثم مهاجمة المناطق المجاورة لروما (١) ، الا أن الأوضاع أخذت تتغير عندما توفى البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا سنة ٧٤١ ، فى الوقت الذى عاد النائب الامبراطورى الى رافنا ليجدد جهوده ضد اللمبارديين • وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا (٧٥١ — ٧٥٢) ، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة ، ورد كافة المدن والممتلكات التى انتزعها اللمبارديون من البابوية • ومع ذلك فان هذه الحلول لم تنجح فى اطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارتها أعمال اللمبارديين فى نفوس البابوات • لذلك من الخطأ الظن بأن البابوية هدأت بالا بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢ ، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللمبارديين وتترقب الوقت المناسب للايقاع بهم (٢) •

ثم كان أن مات ليتو براند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الامبراطورى ، فتعاقب فى حكم اللمبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ — ٧٤٤)• ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ — ٧٤٩) ثم استولف (٧٤٩ — ٧٥٦)• وقد أظهر أستولف هذا تمسكا شديدا بسياسة ليتوبراند الخاصة بتوحيد ايطاليا ، مما جعل اللمبارديين يعودون من جديد الى تهديد الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا • وكان أن وصلت مملكة اللمبارديين فى عهد أستولف هذا الى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١ (٣) ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، أو حتى معارضة من الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى بلاده

(1) Thompson : op. cit. Vol: 1 pp. 182—183
(2) Oman : The Dark Ages p: 287
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 151

بالحركة اللاأيقونية من جهة وبمحاربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى (١) • وبعد ذلك اتجه أستولف نحو اخضاع الممتلكات البابوية ، بل البابوية نفسها ، فطلب من البابا ستفن الثانى (الثالث) (٧٥٢ — ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية للملك اللمبارديين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية • وقد حاول البابا أن يخيف أستولف بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو أن يهدده بطلب معونة الامبراطور البيزنطى ، ولكن هذه التهديدات وأشباهها لم تنجح فى تحويل الملك اللمباردى عن قصده • وفى هذا الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا الى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق • وشاءت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بيبين القصير — ابن شارل مارتل — نفسه ملكا سنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى • وكان أن تم الاتصال سرا فى أوائل سنة ٧٥٣ بين البابا ستفن الثانى من جهة وبيبين القصير من جهة أخرى ، وترتب على ذلك فرار البابا فى أكتوبر ٧٥٣ الى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بيبين • وفى يوليو ٧٥٤ أعاد البابا تتويج بيبين بيده وأضفى عليه لقب البطريقية من باب التشريف (٢) •

أما أستولف فقد أفزعه نبأ التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية ، وحاول اصلاح الأمور ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم تلبث أن عزت جيوش الفرنجة شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤ • وهنا لم يستطع أستولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا الى بافيا ، حتى حضر بيبين القصير بنفسه وحاصر أستولف فى معقله • وقد عرض أستولف الصلح فى هذه المرحلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية للملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة • وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا الى روما كما رجع بيبين الى بلاده • ولكن لم يكد أستولف يعلم بعودة بيبين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح ، فامتنع عن رد المدن التى سبق أن انتزعها من

---

(1) Lot : The End of the Ancient World. p. 302
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 584—585

البابوية ٧٥٣ ، بل عاد الى محاصرة روما فى شتاء ٧٥٥ — ٧٥٦ ، مما تطلب عودة بيبين القصير الى ايطاليا للمرة الثانية لينزل هزيمة أخرى باللمبارديين(١) وفى هذه المرة كانت الشروط التى عرضت على أستولف أشد قسوة ، اذ ألزمه بيبين بتقديم ثلث دخله الملكى بمثابة جزية سنوية فضلا عن مدينة رافنا وعدد آخر من المدن التى أخلاها اللمبارديون ، فى حين توفى أستولف سنة ٧٥٦ . ومن ثم أخذت دولة اللمبارديين فى الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطرا على البابوية أو تسبب ازعاجا لدولة الفرنجة(٢) .

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة فى ايطاليا ، اذ امتدت من البحر الأدرياتى ورافنا شرقا حتى روما غـــربا عبر الأبنين ، فى حين فشلت المملكة اللمباردية فى محاولتها توحيد ايطاليا . وهـــكذا اكتسبت البابوية سلطانا زمنيا الى جانب سلطانها الروحى ، حتى ظلت عقبة كأداء فى سبيل الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد الى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البـــابوية من روابطها الرسمية بالامبراطورية البيزنطية ، الا أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا — وبطريقة عملية — من تبعيتها للقسطنطينية .

(1) Idem, pp. 589- 590
(2) Thompson : op. cit, Vol. I p. 186

الباب السادس

ظهور الديرية

شهد العصر الذى أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا فى الامبراطورية الرومانية ، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسى • والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت فى أصول المسيحية الأولى ، فالعهد الجديد لم يخل من اشارات عن تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك (١) ، هذا فضلا عما جاء فى أقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة (٢) التى تعتبر ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهبانية (٣) • واذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية (٤) ، الا أن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألوفا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس • ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل ، بل انها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية (٥) •

والواقع أن الزهد والعزلة — وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية — مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد الى حياة ديرية اجتماعية • وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف

---

(١) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل » • (انجيل متى — الاصحاح التاسع عشر ١٢) •

(٢) « وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (العهد الجديد — رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس — الاصحاح السابع — ١) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 521

(4) Bury : Hist of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 383

(5) Thompson : Vol. 1 p. 219

بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومانى فى القرن الرابع من فساد • فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى ، دفع كثيرا من المخلصين الى الفرار نحو الأماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير (١) • هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المسيحيون ، والذى بلغ أشده فى أواخر عهد دقلديانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم الى الأماكن البعيدة • وهكذا أصبح نبذ الممتلكات والأهل والموطن نوعا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمة الدين ، فالفقر والحرمان يؤديان الى طهارة النفس ، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام •

والمعروف أن حياة الرهبانية ظهرت لأول مرة فى المسيحية فى مصر ، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورها (٢) •ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ ــ ٣٥٦) والقديس أنطون ــ المعاصر له ــ أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية • ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن المتأخرين أضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بمصر العليا • أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان فى مصر العليا ، خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة الا فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس ، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية (٣) •

ومهما يكن من أمر ، فان الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف

---

(1) Ibid.
(2) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal p. 86.
(3) Painter. op. cit. p. 17

البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية . فليس من الدين فى شىء أن يبتعد الفرد عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان ، أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية ، ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسد (١). لذلك كان لابد للعقلاء من الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر يتفق وطبيعة البشر . ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى . وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر (٣) . أما القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش قسطنطين ، حتى اهتدى الى المسيحية فانسحب الى الصحراء ليباشر حياة الرهبانية الانفرادية متبعا مذهب « العزلة عبادة » . ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق وطبيعة البشر بحكم أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ولذلك شيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ - ٣٢٠ (٤) . وهنا يلاحظ ان باخوم تأثر عند اقامة ديره الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم ، فجاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شىء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية ، كما أن القديس باخوم استن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعـــــروفة فى الجيش الرومانى ، ففرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، زيادة على مباشرة الطقوس الدينية . وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التعبد ، فأقبلوا على الديرية اقبالا شديدا ، حتى أن المؤرخ المعاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سنة ٣٩٠ قدر أتباع القديس باخوم بثلاثة آلاف راهب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى (١) . على أنه يلاحظ أيضا

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 219—220
(2) Bury : op. cit. p. Vol. 1 p. 338
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 524

بخصوص هذه الأديرة الباخومية ، أنها كانت منفصلة بعضها عن بعض ، ولكل منها ادارته المستقلة (٢) ، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة بل ان الطابع الغالب على الحياة داخل هذه الأديرة كان يميل الى العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مستقل فى خليته أو قليته مع الزامه بالاجتماع مع اخوانه للقيام بالصلوات المشتركة (٣) .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر فى الجزء الشرقى من العالم الرومانى ، أى فى بلاد الشام وقبرص وما بين النهرين وآسيا الصغرى (٤) . ففى بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودى (ت ٤٥٩) الذى اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما ، مكتفيا بأن يدلى سلة صغيرة بواسطة حبل ليحصل فيها على ما يحتاج اليه من لوازم أساسية (٥) . أما فى آسيا الصغرى فقد أسست أخت للقديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ فى اقليم بونطس (Pontus) أما القديس باسل نفسه (٣٢٩ — ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخومية ولم تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية فى قيصرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضا حوالى سنة ٣٦٠ . وسرعان ما أصبحت التنظيمات التى وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للاديرة الباسلية التى انتشرت فى الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية فى الامبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى (٦) .

والواقع أن نظام القديس باسل هذا جاء مزيجا من المثالية والواقع العملى، اذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير ،وجعل

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 220.
(2) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 37
(3) Painter : op. cit. pp. 17—18
(4) Workman : op. cit. pp. 111—113
(5) Stephenson : op. cit. p. 87
(6) Workman : op. cit. pp. 113—115

الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة العامة والطعام والعمل والعبادة ، كما نبذ فكرة اقامة الأديرة فى الصحراوات والمناطق المتطرفة وفضل اقامتها على مقربة من المدن ان لم يكن فى المدن نفسها (١) • كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس واهمال الجسد وحث على العناية بالنظافة والعمل ، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد ، جعلهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الدير (٢) • وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النـــافع المفيد داخل الدير ، مثل الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب والبناء، مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، بحيث لا يمتلك الراهب الا ثوبه ونعليه • وكان يراعى فى ثياب الراهب البساطة والرخص والنظافة ، أما طعامه فكان كافيا مغذيا دون اسراف • ومن هذا كله يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية (٣) •

ولكن على الرغم من أن الديرية احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع ، الا أنها لم تخل من مساوىء وعيوب • ذلك أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين، فكل راهب يفكر فى انقاذ نفسه وتجنيبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه ، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء (٤) • واذا كان الراهب يقوم بشىء من أعمال البر والاحسان فانه لا يقوم بها رحمة بأخيه الانسان وانما رحمة بنفسه ووسيلة يتقرب بها الى الله • وهو يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره ، وانما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه • فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره لأنه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 527—528
(2) Thompson : Vol. 1 p. 221
(3) Painter : op. cit. p. 18
(4) Taylor : The Mediaeval Mind. Vol. 1 pp. 373—374

فى حقيقة الأمر أجبن من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف ، وتقويم ما فيها من آثام وشرور (١) . وهكذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة ــ مثل حنا فم الذهب ــ الى اعلاء شأن الحركة الديرية ، الا أن ذلك لا يخفى الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع . ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣٦٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا الى تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة (٢) . هــــذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية ، فاستنت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللائقين للخدمة العسكرية . وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة الى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديريين أخذوا يشتبكون أحيانا مع الكنيسة والدولة ويبعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجامع الدينية (٣) . هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم ، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهراطقة . وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية (٤) . وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحى الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها ، مما جعل الديريين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها . وحسبنا أن كثيرا من الأعمال

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 221—222
(2) Workman : op. cit. p. 56
(3) Moss : op. cit. p. 37
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 221—222

الهدامة البشعة التى اقترفت ضد التراث الوثنى قام بها الديريون ، مثـل تحطيم المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية ، وحرق المكتبات وخاصـة مكتبة الاسكندرية الثانية ، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بـل تحريض الغوغاء على سـفك دمائهم ، كما حـدث للفلسوفة هيباشـيا Hypatia (١) .

ومهما يكن من أمر فان انتشار الحياة الديرية أدى الى وجود فئتين من رجال الدين ، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة ، وهـؤلاء اختلفوا فى وضعهم القانونى والتاريخى والاجتماعى عن الفئة الثانية من رجـال الدين « الدنيويين » أو « العلمانيين » (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العـكس من الـديريين كانوا أكثر تدخلا فى الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعـامة الناس(٢) . ويقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين وبقدر ما كان التنافس شديدا بينهما حول النفوذ والثروة ، بقدر ما تأثرت احداهما بالأخرى وأثـرت فيها . من ذلك أن الهبات والعطايا - من أرض وعقـار ورقيق وغيرها - أخذت تنهال على مقدمى الأديرة فى القرن السابع مثلما انهالت على الأساقفة فى القرن السادس . ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة فى بعض العصـور على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الديريون(٣) . حقيقة أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام أكثر قدما من الديرية نفسها ، ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش فى المجامع الدينية الا بعد انتشار الحياة الديرية .

الديرية فى غرب أوربا :

وصلت الحياة الديرية الى غاليا وايطاليا وشمال افريقية قبل قيام الدولة

---

(1) Ibid.
(2) Stephenson : op. cit. p. 92.
(3) Eyre : op. cit. p. 215

الميروفنجية(١) ، وكان النظام الديرى الذى انتشر فى الغرب الأوربى قبل نهاية القرن الرابع شديد الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر(٢) . ذلك أن كثيرا من الحجاج الغربيين الوافدين من روما وغاليا وأسبانيا زاروا الأديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معم فكرتها الى الغرب(٣) . هذا الى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخوم الديرى الى اللاتينية ، وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتها مصر(٤) .

على أن تاريخ الديرية فى غرب أوروبا يرتبط بأربعة أسماء لامعـــة هم القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ – ٤٣٥) والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ – ٣٩٧) والقديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢) والقـــديس بندكت (حوالى ٤٨٠ – ٥٤٣) . ويعتبر أول هؤلاء – وهو القديس كاسيان – المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبـــان فى الغرب – وبخاصة فى غاليا – قبل عصر كاسيان . وقد امتاز نظام كاسيان بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤيه الأديرة الباخومية ، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته(٥) . أما القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتساع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب تأييد الرأى العام الشعبى وعطفه فى حين فشـــل الثانى فى ذلك . وكان مارتن قد انتخب بالاجماع أسقفا لتور سنة ٣٧٢ ، وعلى مقربة منها أسس ديره الشهير (مارموتيه Marmoutier) (٦) . ومع ذلك فان القديس مارتن لم يترك أثرا واضحا فى تنظيم الحياة الديرية ، اذ قضى معظم حياته فى محاربة الوثنية فى غاليا ، ولا سيما المناطق الريفية ، مما جعل الوثنية وأنصارها يفرون الى الغابات والمستنقعات حيث استمروا عدة سنوات . أما القديس قيصر الآرلى فاختلف عن زميليه السابقين فى أنه

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 70
(2) Stephenson : op. cit. p. 88
(3) Moss : op. cit. pp. 36—37
(4) Workman : op. cit. p. 117
(5) Idem : p. 231
(6) Deanesly : op. cit. p. 71

عاش فى الوقت الذى كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا ، ولذلك نجد اسمه مقحما فى كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة . وقد وضع نظاما للراهبان والراهبات يتضح فيه تأثره بآراء كل من كاسيان والقديس أوغسطين . كذلك وضعت شقيقة قيصر ، وهى القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات فى آرل Arles بمعاونة أخيها ، وينص هذا النظام على أن تشغل الراهبات وقتهن بالغزل والطهى فضلا عن نسخ الكتب(٢) . وهكذا أخذت الأديرة تنتشر فى غاليا فى عهد خلفاء كلوفس ، ولا سيما أن الملوك والأفراد أسسوا عددا كبيرا منها(٣) .

أما ايطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها فى تلك البلاد ، كما كان الحال بالنسبة لباخوم فى مصر وباسل فى آسيا الصغرى وكاسيان فى غاليا(٣) . وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هى البلد الوحيد فى غرب أوربا الذى كانت به مجتمعات ديرية منظمة ، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة من عشاق حياة الزهد فى كثير من بلاد الغرب . ولكن الوضع أخذ يتغير فى القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا فى الحركة الديرية بايطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعا غربيا ، وهؤلاء الرجال هم بندكت وكاسيدور وجريجورى(٤) . أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الايطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب بعد أن حل النظام البندكتى محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة ، كما تمتع — لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية — بتأييد البابوية وعطفها . ولا يمكن أن نصف هذا النظام البندكتى — الذى أحرز النصر النهائى فى

---

(1) Idem. p. 74
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147
(3) Dudden : Gregory the Great : Vol. 2, p. 160
(4) Idem p. 161

غرب أوربا ـ بأنه باخومي أو باسلي ، لأن له طابعه الخاص الذى لا يوصف الا بأنه بندكتي(١) .

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالى سنة ٤٨٠ فى أسرة ايطالية معروفة بالثراء والأرستقراطية ، فأرسل الى روما ليتلقى تعليمه ، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقي وآثر الفرار الى مكان جبلي منعزل ، حيث عاش فى كهف بعيد معتمدا على ما يمده به المقـــربون من مأكل ولوازم ضرورية(٢) . ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى ، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين ، وعندئذ فكر بندكت ـ حوالى سنة ٥٢٠ ـ فى الانتقال الى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث من موضع أكثر ملاءمة . وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب فى منتصف الطـــريق بين روما ونابلى عنـــد مونت كاسينو ، حيث يوجد معبد قديم للاله أبولو ما زال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة(٣) . وهكذا اختار بندكت ذلك الموضـــع لاقامة ديره الأول مستخدما فى ذلك أحجار المعبد الوثنى القديم . ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون فى تطهير المنطقة المجاورة من الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة ، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالى المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة(٤) .

على أن المهم فى دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحيا لشبكة واسعة من الأديرة التى تأسست فى غرب أوربا وفق النظام الأساسى الذى وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة(٥) . ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساوىء الديرية الشرقية وعيوبها ، كما أنه أحاط بنظام الأديرة الباسلية بعـــد أن

(1) Stephenson : op. cit. p. 88.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536
(3) Workman : op. cit. p. 142
(4) Thompson : op. cit. Vol. 1. pp. 226—227
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 551

ترجمت مبادىء هذا النظام من اليونانية الى اللاتينية ، مما دفع القديس بندكت الى تلافى هذه العيوب فى نظامه الجديد الذى أصـــبح من أعظم التنظيمات الدينية فى العصور الوسطى ، كما صار أساسا لجميع التنظيمات الديــرية التالية(١) • وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى انكار الذات والطاعة والعمل • وهكذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعبد والهدوء والنظام والعمل اليدوى ، بحيث لم يترك هذا كله مجالا للأنانية والكبرياء واللغو والخمول(٢) • وكان ينبغى على من يريد الانضمام الى الدير البندكتى أن يقضى أولا فترة تحت الاختبار حتى تثبت صلاحيته واخلاصه ، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظام الدير ، وعلى أن يظل عزبا فقيرا مطيعا ، وعندئذ يتخلى عن ارادته ليخضع خضوعا تاما لمقدم الدير – وهو رئيسه المنتخب – فلا يمكنه أن يخرج خارج أسوار الدير الا بتصريح من ذلك المقدم(٤) • ومن هذا يتضح أن مقدم الدير البندكتى كان يتحمل مسئولية جسيمة لأنه هو المسئول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب ، بل عن تصرفات بقيـــة أعضاء الدير • لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليا فى كل شىء ، فرأيه هو النهائى فى جميع المسائل ، ولا يجوز الالتجاء الى أية جهة أخرى لنقض قرارته ، هذا وان كان على هذا المقدم أن يستشير بقية رهبان الدير قبل أن يبت فى أمر هام(٤) •

أما عن الحياة داخل الدير البندكتى فامتازت بالمساواة التامة بين أعضائه ، فالحر والعبد والشريف والوضيع كلهم سواء دون أن يكون هناك فضل لعضو على آخر الا بالعمل الطيب • وكانت روح الاعتدال تسيطر على حياة الرهبان ، فيأكلون طعاما كافيا ، وينامون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا ، كل منهم فى فراشه الخاص ، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبيذ • واذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية ، اذ يجتمع الرهبان

---

(1) Idem : Vol. 5. p. 658
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 227
(3) Painter : op. cit. pp. 74—75
(4) Workman : op. cit. p. 146

للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان مرات يوما (١) ، الا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة ، فقـــال بأن العمل عادة Laborare est orare وخصص لرهبان الدير ما يقـــرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض . أما كبار السن من أعضاء الدير الذين لا يحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمـــالا تتفق ومقدرتهم ، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام واعداده ، أو نسخ الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير(٢) .

أما الرجل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى تطور الديرية فى ايطاليا ، بل فى الغرب الأوربى فهو كاسيدور الذى اعتزل خدمة الملكية القوطيـــة فى ايطاليا بعد حياة سياسية حافلة بالعمل الكثير ، وآثر الانقطاع لحيـــاة الرهبانية ، وذلك قبل وفاة القديس بندكت بأربع سنوات أو خمس . وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آبائه وأجداده(٣) . وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمان الفرد من الضروريات التى تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على ادخال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية . على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفـة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضا « لأن عقولنا تتدرب على فهم الانجيل والكتابات الدينية وعن طريق دراسة الأدب الدنيوى . » لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحـوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الانجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين . أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من انتاج رجال الأدب والبلاغة — شعرا ونثرا —

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538
(2) Stephenson : op. cit. pp. 91—92
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

الأستاذ الدكتورة
السيد الباز العريني

فوق ما جمع من كتب التاريخ والجغرافيا والموسيقى والعلوم . وهكذا يرجع الفضل الى كاسيدور فى زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهى الناحية التى ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية فى غرب أوربا(١) .

وأخيرا يأتى جريجورى الأول ، وهو الديرى الذى أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية فى غرب أوربا . فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة فى نظم الحياة الديرية ومثلها ، ولكن جهوده ظهرت فى تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أتى به القـديس بندكت فضلا عن تحديد العلاقة بين الديرين من جهة والأساقفة ورجـال الدين العلمانيين من جهة أخرى . وهكذا نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب والكنيسة والبابوية من جانب آخر ، وهو أمر لا نجد له شبيها فى الشرق البيزنطى حيث ظل التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديريين العزاب(٢) .

والواقع ان البابا جريجورى العظيم استغل الديرية كأداة فعالة تساعده فى تنفيذ سياسته ونشر المسيحية . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية ، حتى أنه استغل ثروته الموروثة الطائلة فى تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة فى صقلية وواحد فى روما(٣) . كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضاء البعثات التبشيرية التى أرسلها الى مختلف الجهات من الرهبان البندكتيين(٤) . ومن هذه الارساليات بعثة القديس أوغسطين الصغير — مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى فى روما — وقد أوفده البابا الى انجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها الى حظيرة المسيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات الجوت والانجلز والسكسون ، وهى الغزوات التى أدت الى تحطيم

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2 pp. 169—173.
(2) Workman : op. cit. p. 152
(3) Dudden : op. cit. Vol. 1 p. 207
(4) Workman : op. cit. p. 169—172

الحضارة الرومانية وذبول المسيحية فى بريطانيا • وفى سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا امداده بعدد آخر من الرهبان لمساعدته فى جهوده التبشيرية ، فأمده البابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين(١) وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها ، فأسس ديرا فى كانتربورى ، وهو المكان الذى شيدت عليه الكتدرائية الشهيرة ، فيما بعد ، واتخذ الرهبان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيرى الذى قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة الى كنائس بدلا من هدمها (٢) • ولم يلبث أثلبرت ــ ملك كنت ــ أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه ، كما أنعم الملك على رجال الكنيسة الجديدة بكثير من المنح والأراضى(٣) •

الديرية الأيرلندية :

على أن الارساليات البندكتية التى قصدت انجلترا وغاليا الفرنجية ، صادفت فى طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التى انتشرت من أيرلند الى انجلترا وغاليا وألمانيا • وكانت أيرلند هى البلد الوحيد من البلاد المعروفة للقدماء فى غرب أوربا الذى لم يفتحه الرومان ، مما ترك القراصنة الأيرلنديين — من عنصر الكلت ــ أحرارا فى مواصلة اغاراتهم العنيفة على بريطانيا ، وبخاصة فى أوائل القرن الخامس ، أى فى أواخر حكم الرومان لبريطانيا •

وفى احدى هذه الغارات ــ حوالى سنة ٤٠٠ ــ أسر الأيرلنديون شابا أسمه سوكات Succat ، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأيرلندية(٤) • ذلك أن سوكات قضى ست سنوات أسيرا فى أيرلند ، فر بعدها الى غاليا حيث قضى بعض الوقت فى التعلم ، حتى فكر بعد ذلك فى العودة الى أيرلند ليقوم بنشر المسيحية بين

---

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, p. 123
(2) Workman : pp. 172—174
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 117—119
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

ربوعها . وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة فى أيرلند قبل ذلك الوقت ، بدليل أن البابا كالستين الأول أرسل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس الى أيرلند ليكون أول أسقف لها(١) ، الا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقى فى تحويل أيرلند الى المسيحية الغربية ، كما أن الفضل يرجع اليه فى تأسيس أسقفية أرماغ فى الشمال الشرقى من أيرلند سنة ٤٤٥(٢) .

ويبدو أن تطرف أيرلند وعزلتها ساعدت على احتفاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض الأوضاع الكنسية القديمة ، بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة . وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع ، لذلك بدأ الخلاف بين الايرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجورى العظيم ، ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسايرة الأوضاع المعمول بها فى الكنيسة الرومانية .

وقد اتجه الأيرلنديون فى القرن السادس نحو ارسال بعثات تبشيرية من الرهبان الى سكتلند وبريطانيا وغاليا ، مدفوعين فى ذلك بحبهم للتجوال والسياحة من جهة وبحماستهم الدينية من جهة أخرى . وكان رائد هذه الحركة القديس كولمبا St. Columba الذى اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثنى عشر من أتباعه لتأسيس دير فى مدينة أيونا Iona غربى البلاد المعروفة الآن باسم سكتلند(٣) . ومن هذا الدير اتجه المبشرون لتحويل البكتيين Picts — وهم العناصر القديمة التى سكنت سكتلند الحالية — الى المسيحية(٤) . ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشاطهم الى انجلترا نفسها ، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التى أرسلتها روما . وهكذا تم

(1) Idem : Vol. 2 pp. 503—505
(2) Deanesly : op. cit. p. 468
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533
(4) Workman : op. cit. pp. 199—200

القضاء فى القرن السابع على وثنية الأنجلوسكسون بعد أن تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الأيرلنديين من الشمال والمبشرين الرومان من الجنوب(١) •

وفى ذلك الوقت نفسه ، قام المبشرون الايرلنديون بغزو القارة • وأول هـؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القـديس كولمبانوس Columbanus (٥٤٣ — ٦١٥) ، الذى نزح مع أربعين من أعوانه — حوالى سنة ٥٨٥ — الى بريطانيا ومنها الى غاليا ، حيث أسس ديرا شـهيرا عنـد أناجريت Anagrates فى برجنديا سنة ٥٩١ • ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين فى الحياة الديرية ، مما شجع القـديس كولمبانوس على تأسيس دير جديد جنـوبى الأول بثمانية أميـال عند لوكسـويل Luxeuil (٢) • ويلاحظ أن القديس كولمبانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة احدى القواعد المعمول بها فى القارة ، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع الدير داخل دائـرة أسقفيته ، مما أدى الى اصطدام بين الطرفين • ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة ، مما شجع على اقامة أديرة أخرى لكل منها مقدم ، أهمها دير فونتين Fontaines (٣) • أما القديس كولمبانوس فقد ظـل يعمل عشرين عاما فى دير لوكسويل حتى استفزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداء الطرفين ، مما جعله ينزح الى سويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كونستانس(٤) • ولم يلبث أن اضطر القديس كولمبانوس الى مغادرة سويسرا مع أعوانه ، فعبر جبال الألب الى ايطاليا حيث أحسن ملك اللمبارديين اسـتقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو Bobbio شمالى جنوا • وفى هذا الدير — الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا فى العصور الوسطى وأوفـرها ثروة فى المخطوطات — قضى القديس كولمبانوس السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حتى توفى سنة ٦١٥(٥) • على أن نظام الأديرة الذى وضعه القـديس

---

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 232
(2) Cam. : Med. Hist. Vol. 1, pp. 533—534
(3) Workman : op. cit. p. 207
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 148
(5) Workman : op. cit. p. 208

كولمبانوس ، لم يقدر له البقاء طويلا ، لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هـذه الأديرة بعضها وبعض ، كما أنه اصطدم فى سرعة بالنظام البندكتى • ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صيغة عملية أوضح ، فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها ، فان نظام القديس كولمبانوس لم يستطع الثبات طـــويلا أمامها(١) •

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة ، وانما امتد أيضا الى جهات أخرى فى وسط أوربا لم تكن المسيحية قد وصلت اليها بعد • ففى جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج ورجنسبرج وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التى ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثرها فيما بعد بالنظام البندكتى • ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن الا كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد أصبحت من الوجهة العملية خاضعة لاشراف البابوية ، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية • على أن الأديرة الأيرلندية — بوجه خاص — تركت أثرا عميقا فى الحياة الدينية وغير الدينية فى غرب أوربا • ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية ، كما أن كثيرا منها — مثل بوبيو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلند نفسها وانجلترا — امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة(٢) • هذا الى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشـــير فى أوربا العصـــور الوسطى • وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة ، وهو المبدأ الذى لم يعترف به غرب أوربا الا فى القرن الحادى عشر •

المبشرون الانجليز فى غاليا والمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الانجليزية فى الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع • ففى سنة ٦٧٧ جنحت ســـفينة ولفـــرد أسقف يورك

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 232—233
(2) Eyre : op. cit. pp. 266—267

الأنجلوسكسونى على شاطىء فريزيا وهو فى طريقه الى روما فقضى الشتاء فى هذه البلاد • وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Willibrord — وهو أحد رجال الدين الانجليز — البحر الى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت ، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسيحية فى تلك الجهات ما يقرب من خمسين سنة(١) • على أن أعظم رجال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثامن كان بدون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ الى فريزيا • وعندما وجد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل ، عاد الى انجلترا ومنها الى روما سنة ٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسلطة اللازمين للقيام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا(٢) • وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس حتى عينه البابا رئيسا لأساقفة مينز ، الكرسى الأسقفى الرئيسى فى ألمانيا(٣) • وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبان الأيرلنديون من ادخال الحضارة اللاتينية وتنظيمها • واليه كذلك يرجع الفضل فى تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة فى الأراضى الألمانية مثل أسقفيات ورزبرج وماربورج وأرفرت ، وأديرة فولدا وهرسفلد وأورثرف وامونبرخ • هذا الى أن القديس بونيفيس تبعته بعض النساء الانجليزيات الى ألمانيا مثل والبورجا Walburga وليوبا Lioba وثكلا Thekla وهؤلاء أسهمن فى تأسيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء فى ألمانيا(٤) كذلك كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعوة مجمعى لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣) وسواسون (سنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان(٥) • أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهميه عن جهوده الدينية ، اذ يرجع اليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل، كما أنه تولى المفاوضات بين بيبين القصير والبابوية ، وهى المفاوضات التى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 541 & Vol. 2 p. 535
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 236
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540
(5) Workman : op. cit. p. 176
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء بيبين عرش دولة الفرنجة ، وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية(١) .

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاغل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتى ٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذى كرس نفسه له فى شبابه ، وهو تحويل الفريزيين الى المسيحية ، وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية والادارية ، فعزم على العودة الى فريزيا – التى كانت لا تزال على وثنيتها – لمباشرة نشاطه التبشيرى . ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة وقتلوه سنة ٧٥٥ ، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية فى العصور الوسطى(٢) .

وبعد ، فانه يتضح لنا مما سبق كيف قام الديريون بدور فعال فى نشر المسيحية وحفظ الحضارة فى عصر مضطرب امتاز بالفتن والحروب . أما فى الميدان الاقتصادى فان نشاطهم أدى الى اصلاح كثير من الأراضى والنهوض بالزراعة ، زيادة على جهودهم العملية فى النسيج والصباغة ودبغ الجلود وصناعتها الأمر الذى تبعه نبوغهم فى زخرفة المخطوطات وتزيينها . على أنه يتضح لنا بالموازنة بين الديرية فى الشرق والغرب أن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى جعل الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان الحضارى والمجتمع الانسانى . أما فى الغرب فان الأديرة البندكتية أصبحت مراكز الحضارة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب وفى مدارسها يتعلم الصغار والكبار(٣) . هذا الى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل فى الموازنة بينها وبين الديرية الشرقية ، بقدر ما تتمثل فى الأثر الذى تركه النظام البندكتى فى حياة العصور الوسطى وتفكيرها .

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 289—290
(2) Thompson : op. cit. Vol. I, p. 237
(3) Workman : op. cit. pp. 152—254

ففى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحقر من شأن العمـــل اليدوى ، ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على العبيد ، اذا بالنظام البندكتى يضع العمل اليومى فى منزلة العبادة ، ويجعله جزءا أساسيا من حياة الديريين ، وبذلك أصبحت الديرية عاملا ايجابيا ومنتجا فى المجتمع ولم تعد ـ كما اتهمها البعض قديما ـ مأوى للمتعطلين وملاذا للكسالى الهاربين من أعباء الحياة وتبعاتها(١) •

---

(1) Idem : pp. 153—158

الباب السابع

شارلمان و أمبراطورية الفرنجة

رؤساء البلاط :

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة ، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمر قرابة قـــرن ونصف . وسرعان ما ظهر فى هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجى من سلالة كلوفس(١) ، فى الوقت الذى انقسمت دولة الفرنجة الى ثلاث ممالك صغرى هى أوستراسيا فى وادى الميز والراين الأدنى ، ونستريا فى الجزء الغربى بما فيه (نورمنديا) واكوتين ، وأخيرا برجنديا فى المنطقة بين الرون وجبال الألب(٢) . ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة فى هذه الأقســـام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجال الدين ، فوافق الملوك على أن يتنازلوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم ، كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم الدولة ، مما جعل الكنيسة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج . أما النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراض ، كما حيل بين التاج وبين فرض أية ضرائب اضافية(٣) .

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاط فى القصر الملكى ، وذلك ضمانا لامتيازاتهم ومصالحهم . وكانت هذه الوظيفة فى أول أمرها متواضعة يقوم صاحبها بالاشراف على خـــدم القصر وموظفيه ،

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 158
(2) Davis : Charlemagne, p. 25
(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 332

ولكنها أخذت تسمو تدريجيا حتى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول فى الدولة ، الذى يشرف على جمع ايرادات الأراضى الملكية فضلا عن توزيع الهبات والوظائف (١) • وقد تعاقب فى هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة ، حتى أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم • وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩ مرتبطا بالملوك ، وانما برؤساء البلاط فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت اليها الدولة الميروفنجية (٢) • وكان النصر فى النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لأوستراسيا التى برز رئيس بلاطها ببين الثانى أو ببين هرستال فى أواخر القرن السابع ، ثم خلفه فى منصبه ابنه غير الشرعى شارل مارتل سنة ٧١٤ (٣) وقد استطاع شارل مارتل أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية فى يده سنة ٧١٩ ، وعندئذ وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط فى نستريا وأوستراسيا من جهة ، والأخطار الخارجية التى أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى • وهنا أسرع شارل مارتل فى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق ، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتى ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩ ، ٨٣٨) وحملة ضد الألمانى (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥ ، ٧٢٨) (٤) على أن الخطر الأكبر الذى هدد دولة الفرنجة فى ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب ، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا فى برجنديا • وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه ، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء ، واستعان باللمبارديين فى ايطاليا كما استولى على بعض أراضى الكنيسة ، هذا كله فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالا • وأخيرا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 136.
(2) Lot: The End of the Ancient World, p. 337.
(3) Idem: op. 341 — 342.
(4) Deanesly: op. cit. p. 285.

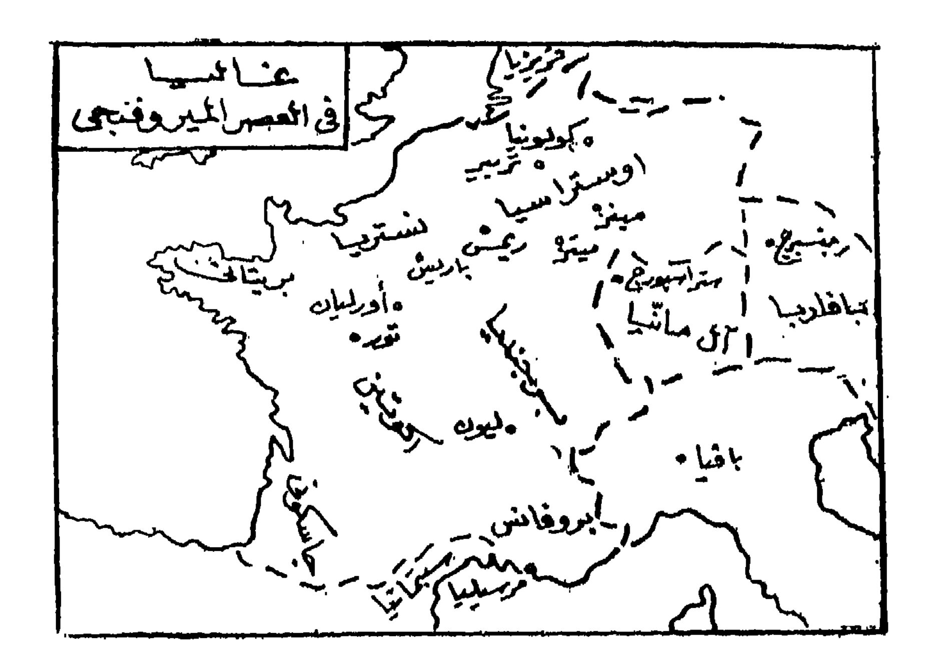
دارت الموقعة بين الطرفين بين بواتيه وتور ، واستمرت سبعة أيام قتل فيها عبد الرحمن وارتد أتباعه من المسلمين سنة ٧٣٢ (١) .

أما شارل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة ومكانة أكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة ، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوربا من الغزو الاسلامى (٢) . وقد اعتاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى أحرزه شارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٢ ، على أساس أنه حمى غرب أوربا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم ، ولكن نظرة دقيقة الى الحوادث المعاصرة تثبت لنا أن الواقع يخـــالف ذلك . فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العام التالى الى تهديد آرل وأفينون وغيرهما من المدن وبخاصة فى اقليم بروفانس (٣) . ثم انه لم يكن هنالك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوربا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصولهم الى الأندلس كانوا قد قاربوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية الكبرى . لذلك كان من الصعب ، بل من المتعذر على المسلمين أن يقوموا بجهد حربى ضخم جديد لاخضاع غرب أوربا لنفوذهم ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعدوا كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوسعية . هذا الى أن الدولة الاسلامية كانت قرب منتصف القرن الثامن قد أخذت تتعرض فعلا لنتائج الانقسامات المذهبية والسياسية مما يحول دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوربا . ولذلك لا نبالغ اذا قلنا أن غزوة عبد الرحمن فى جنوب غاليا لا تعدو أن تكون حملة محلية محدودة الهدف والنتائج . وربما كانت حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة أشد خطرا على مصير أوربا ومستقبلها ، نظرا لقرب القسطنطينية من مركز الخلافة الاسلامية فى دمشق من جهة ولعظم الجهود والامكانيات التى سخرت فى هذه الحملة من جهة أخرى .

على أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة فضلا عن رفضه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.
(2) Stephenson, op. cit. p. 171.
(3) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 12—13.


غاليا
فى العصر الميروفنجى
فريزيا
كولونيا
تريير
اوستراسيا
ميتز
نستريا
ريمس
باريس
بريتانى
أورليان
تورز
ستراسبورج
آلمانيا
بافاريا
ليون
بافيا
بروفانس
مرسيليا

مساعدة البابوية ضد اللمبارديين ، أثار وحشة بينه وبين الكنيسة (١) . ومهما يكن من أمر فان هذه الوحشة لم تستمر طويلا اذ توفى شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيبين القصير فى رآسة البلاد (٧٤١ – ٧٦٨) . وقد عمل بيبين هذا على اصلاح ذات البين مع الكنيسة ، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت اشراف القديس بونيفيس ، وفى هذه المجامع تقرر فرض النظام البندكتى على الأديرة الفرنجية ، وتعين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة ، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع (٢) .

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسى القائم فى دولة الفرنجة غير صحيح فى ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وملك شرعى مستضعف لا حول له ولا قوة . لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة ٧٥١ وقرر عزل شلدريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك أستراسيا ، واحلال بيبين القصير محله فى العرش . وهنا أراد بيبين القصير أن يصبغ هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة الى البابا زكريا فى روما لاستشارته وأخذ رأيه . ولسنا فى حاجة الى القول بأن البابوية كانت لا تزال تطمع عندئذ فى مساعدة دولة الفرنجة ، بوصفها القوة الوحيدة التى يمكنها مساندة البابوية ضد اللمبارديين . لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا ، وهو أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية فى البلاد . وهكذا تشجع بيبين القصير فأعلن عزل شلدريك الثالث ونفاه الى أحد الأديرة ليقضى فيه بقية حياته ، فى حين اعتلى هو عرش الفرنجة (٧٥٢ – ٧٦٨) ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا(٣) .

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللمبارديين أن أدت الى سفر البابا ستفن الثانى سنة ٧٥٣ الى غاليا لطلب المساعدة من بيبين القصير . وكان أن

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 207.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 539—540.
(3) Oman: The Dark Ages, pp. 325—326.

نعهد بيبين بمساعدة البابا وأقسم على أن يحقق للبابا كل ما يريد ، ويعطيه رافنا ، فضلا عن بقية المدن التى يستردها من اللمبارديين أو البيزنطيين . وفى مقابل ذلك توج البابا ببيين بيده كما توج زوجته وولديه شـــارل وكارلومان ، وأنزل اللعنة فى على كل من يحاول اغتصاب عرش الفرنجة من بيت بيبين القصير (١) وبذلك دخلت دولة الفرنجة دورا كبيرا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية فى غرب أوربا ، بفضل تحالفها مع البابوية، وهو التحالف الذى كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربا فى العصور الوسطى (٢) .

حضارة الدولة الميروفنجية :

أخذت نظم الفرنجة تتعدل عقب استقرارهم فى غاليا نتيجة لاتصالهم المستمر بالمواطنين الرومان ، وما نجم عن هذا الاتصال من تأثر الفرنجة بالأوضاع الرومانية . ويلاحظ أن الفرنجة احترموا ملكية الأرض فى غاليا ولم يغتصبوها من أصحابها ، كما أنهم لم يحاكوا غيرهم من الجرمان فى استخدام العنف مع أهالى البلاد الأصليين (٣) . ولكن كبرياء الفرنجة أبت عليهم الاعتراف بالمساواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالى غاليا الأصليين من الرومان ، فجعلوا الدية التى تدفع تعويضا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التى تدفع عن مقتل أحد الرومان ، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة ، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهالى غاليا من الرومان وحدهم (٤) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شقاق عنصرى بين الفرنجة والرومان فى غاليا اذ تزاوج الطرفان بعضهما من بعض فى حرية وسهولة ، وأصبحت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع دون تمييز أو تفرقة (٥) . وساعد على هذا التقارب بين الفرنجة والرومان

(1) Moss: op. cit. p. 200.
(2) Eyre: op. cit. p. 89 & Moss: op. cit. p. 200.
(3) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 212.
(5) Lot: The End of the Ancient World, p. 358.

اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكى واستخدامهم اللغة اللاتينية ، مما أدى الى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر • وهكذا أخذ الملوك الميرفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الامبراطورى ، فأضفوا على موظفى البلاط ألقابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى •

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى ، فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى سلالة كلافس ، فلم يعرف الفرنجة المبدأ الانتخابى • وكانت السلطة الملكية تعتبر ارثا يقسم بين الأبناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الاناث (١) • وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحى الادارية والمالية والقضائية والحربية ، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالاعدام (٢) •

وقد اعتبر الفرنجة ـ شأنهم شأن غيرهم من الجرمان ـ معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة ، فيترك لعائلة المجنى عليه مهمة معاقبة الجانى والاقتصاص منه • وفى بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكتفى بأخذ تعويض من المذنب أو أهله ، وفى حالات أخرى كانت تقتص لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية • على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتهما نتيجة لجهود رجال الكنيسة وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها (٣) •

أما عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غاليا ، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى ، سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو الضريبة الشخصية أو ضرائب الأسواق أو الضرائب غير المباشرة (٤) • وكان الدخل الملكى يتألف من ايراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات والهدايا والخدمات الخاصة والمحلية التى كان

---

(1) Dill: Roman Society in the Merovingian Age, p. 113
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 133—134.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 213.
(4) Lot: The End of the Ancient World, p. 351.

على الرعايا أن يقدموها . ثم أخذت تختفى تدريجيا الضرائب الرومانية المباشرة التى كانت معروفة أيام الرومان مثل ضريبة الرأس وضريبة الأرض، وأصبح الكونتات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثى الضرائب والأموال التى يجمعونها من الأهالى على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث (١) . أما الهدايا السنوية التى يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد أصبحت اجبارية ، ولم تعف منها جهة من الجهات ذات الايراد ، حتى الأديرة والمؤسسات الدينية . وكانت هذه الهدايا تشمل الذهب والفضة والأحجار الثمينة والخيول وما شابهها . ومن هذا يبدو أن جميع الايرادات السابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب (٢) . أما هذه المنشآت فكانت تقوم بها الادارة المحلية ، كما أن المجندين الأحرار كانوا يدخلون الخدمة العسكرية مزودين بأسلحتهم على نفقتهم الخاصة (٣) .

وقد نشطت التجارة فى عهد الدولة الميروفنجية حيث وجدت طبقة نشيطة من التجار استخدمت طرق التجارة الرومانية القديمة . ويبدو أن نسبة التجار اليهود واليونانيين كانت كبيرة ، لا سيما فى المدن والموانى ذات الأهمية التجارية مثل مرسيليا وآرل وناربون (٤) . وكانت لغاليا علاقات تجارية مهمة مع موانى الشرق فى البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ ، أى حتى زمن جريجورى التورى أول مؤرخى الفرنجة . ولكن هذه العلاقات أخذت تذبل تدريجيا نتيجة لنمو قوة المسلمين البحرية فى القرن السابع ، مما جعل تجارة الفرنجة تصبح شبه محلية . أما الطابع الغالب على دولة الفرنجة فكان الطابع الزراعى نتيجة لاضمحلال المدن وهجراتها وتلاشى الحياة المدنية من جهة ، ولازدياد عدد الضياع الزراعية الكبيرة التى تكفى نفسها بنفسها

---

(1) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 126—127.

(2) Thompson: Vol. 1. pp. 215—216.

(3) Lot· The End of the Ancient World, p. 353.

(4) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 355.

وما صحب ذلك من تناقص عدد الأحرار وصغار الملاك وازدياد عدد الأقنان من جهة أخرى (١) •

الدولة الكارولنجية :

وبتتويج بيبين القصير رئيس البلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢ تكون الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية فى حكم دولة الفرنجة • وقد استمر بيبين القصير فى الحكم حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته — وفقا لتقاليد الفرنجة — بين ولديه ، فخص شارل أوستراسيا وجزء من أكوتين ، واختص كارلومان بنستريا وبقة أكوتين (٢) • ولا يهمنا كثيرا أمر النزاع الذى نشب بين الأخوين والذى هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة ، ما دام النزاع قد انتهى بوفاة كارلومان سنة ٧٧١ ، مما أتاح لأخية شارل فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصب الرون ومن نهر المين حتى خليج بسكاى (٣) • على أن الذى يهمنا هو أن جربرجا Gerbrega — أرملة كارلومان — استاءت لاغفال حقوق ولديها القاصرين فى ملك أبيهما ، ففرت الى بلاط دسدريوس ملك اللمبارديين فى بافيا • وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التى تزوجها بها ، الأمر الذى زاد الموقف توترا بين شارل ودسدريوس • ولم يكن منتظرا من الملك اللمباردى أن يتأخر عن مساعدة أرملة كارلومان (٤) ، فطلب من البابا تتويج ابنى كارلومان ، ولما رفض البابا ذلك لجأ دسدريوس الى مهاجمة الأملاك والأراضى البابوية ، مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨ — ٧٧٢) الى الاستنجاد بشارل ملك الفرنجة (٥)• وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس فى أول الأمر فأرسل اليه يطلب

---

(1) Idem: p. 350.
(2) Oman: The Dark Ages, p. 336.
(3) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12—13.
(4) Moss: op. cit. p. 218.
(5) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 421.


امبراطورية شارلمان
سكسونيا
أوترخت
كولونيا
آخن
ثورنجيا
فولدا
مينزه
أوستراسيا
شعوب سلافية
نستريا
رمس
ستراسبورج
رجنسبرج
البوهيميون
بريتاني
باريس
آل مانيا
بافاريا
الآفار
أورليان
تور
بورج
كارنثيا
برجنديا
أكويتين
ليون
مملكة
ميلان
البندقية
بافيا
اللمبارديين
الصرب
فاسكونيا
بروفانس
المارك الأسباني
بروجياه
روماه

تسليم جميع المدن التى استولى عليها من البابوية بدون وجه حق ، ولـكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه فى عدم اعطاء البابوية مدنها • وعندما غزا شارل ايطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب فى وجهه ، ولكنه غلب على أمره وفر الى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته (١) • وفى هذه الأثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمبارديين قرب فيرونا ، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته فى حصار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقى لمطاردة هذا الابن الـذى فر الى القسطنطينية تاركا شارل يستولى على فيرونا وبرجامو وغيرهما من المـدن المهمة (٢) • وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) فى روما حيث جدد للبابا هدريان (أدريان) الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) هبة ببين القصير للبابوية من قبل • ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسدريوس الى دير كوربى فى نستريا حيث قضى بقية حياته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، فى حين اتخذ شارل لنفسه لقب « ملك اللمبارديين » • ويلاحظ أن شارل لم يشأ فى أول الأمر أن يدمج اللمبارديين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون فى ظل نظمهم الخاصة • ولكن عندما ثار اللمبارديون ضده من جديد ، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب فى القسطنطينية واعلانه ملكا ، عاد اليهم ونجح فى اخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم •

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمبارديين لم تكن سوى الحلقة الأولى فى سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون ومسلمى أسبانيا والعناصر السلافية الرابضة على نهرى الالب والدراف (٤) • وقد حققت

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 220.
(2) Cman: The Dark Ages. p. 347.
(3) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 228.
(4) Eginhard: The Life of Charlemagne pp. 15—26
The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne; p. 105.

هذه الحروب الواسعة التى قام بها شارل قسطا كبيرا من النجاح ، وأدت الى حماية غرب أوربا من العناصر الوثنية المجاورة فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر . ففى سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حملاته الكبيرة ضد المسلمين فى أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له حكام برشلونة وجيرونا بالولاء . على أن جيوش شارل عجزت عن الاستيلاء على سرقسطه فعادت أدراجها دون أن تحقق نتائج ظاهرة (١) . وفى أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) فى شمال أسبانيا مؤخرة جيشه ، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأنشودة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارل العظيم فى صورة الصليبى الأول (٢) . وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون ، أخضع البافاريين سنة ٧٨٨ وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق نظم الادارة الفرنجية (٣) . وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة لملك البافاريين ، الأمر الذى أثار شارل ضدهم ، فغزوا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنتى ٧٨٨ ، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما . وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم ، على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة(٤) . كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهرى الالب والأودر سنة ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا سنة ٨٠٥ـ ٨٠٦ .

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون ، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وببين القصير . وقد قام شارل العظيم بثمان عشرة حملة ضدهم ، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم ، ثم لم يلبث أن اصبح هذا الغرض تحويلهم الى المسيحية واخضاعهم بالقوة (٥) . وكان مصدر المتاعب الكبرى التى واجهت شارل فى حروبه ضد السكسون

---

(1) Lavisse: Hist. de France, Tome 2, Première Partie pp. 293—294.

(2) Davis: op. cit. pp. 110—114.

(3) Deanesly: op. cit. pp. 368—369.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 362.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 609—611.

نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش ، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضى على قوة أعدائه بالاستيلاء عليها ، فضلا عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية . وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قويا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم ، بحيث أنه كان يخضعهم فى كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة ، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتنقون المسيحية بالجملة ، ولكنهم لا يلبثوا أن يرتدوا الى أسلوبهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل (١) . وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة فى مذبحة فردن Verden (٢). وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهدأت العلاقات بينه وبينهم قليلا ، وان استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤ (٣) . وفى هذه الأثناء أسس شارل ثمان أسقفيات فى سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية اليها، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية ، وعندئذ حرص شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة فى بلادهم (٤) .

على أن حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص ، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطىء أوربا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين، بعد أن اشتدت اغاراتهم عليها . لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم ، فأنشأ وحدة ادارية على الحدود الأسبانية سميت ماركية أسبانيا (March of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا وجاردونا وأورجل وأوزونه ثم ضم اليها برشلونة سنة ٧٩٧ ، وهى أعظم مدن اقليم قطالونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية فى سيده خليفة

(1) Halphen: Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne, p. 146.
(2) Kleinclausz: Charlemagne, p. 134.
(3) Deanesly: op. cit. 358—365.
(4) Kleinclausz: op. cit. pp. 138—139.

قرطبة (١) • أما فى الجانب البحرى فقد استولى الفرنجة على كورسيكا وسردينيا ، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩ لحرمان مسلمى الأندلس من اتخاذها قواعد للاغارة على شواطىء ايطاليا وغاليا الجنوبية (٢) • على أن الصراع البحرى لم يلبث أن اشتد فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية ، الأمر الذى أزعج البابا ليو الثالث وشارل العظيم فضلا عن الدولة البيزنطية • وهنا لم يتأخر شارل فى ارسال النجدات الى البابا للدفاع عن شواطىء ايطاليا وصقلية ، وان كانت هذه الجهود لم تفلح فى وقف ذلك الخطر الذى تعرضت له شواطىء أوربا الجنوبية بشكل واضح فى أوائل القرن التاسع (٣) •

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه فى حروب مستمرة ، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للامبراطورية الرومانية القديمة من أملاك فى الغرب ، اذا استثنينا ولاية افريقية وبريطانيا وجنوب ايطاليا ومعظم أسبانيا ، هذا فضلا عما نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية فى بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل اليها الرومان من قبل (٤) •

تتويج شارل العظيم امبراطورا :

يتضح مما سبق أنه لم يكد ينته القرن الثامن الا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين • ذلك أنه لم ينجح فى تكوين دولة ضخمة فى غرب أوربا فحسب ، بل نجح أيضا فى حماية البابوية ونشر المسيحية ، واحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية فى الغرب (٥) • وقد أثارت هذه الأعمال فى عقول المعاصرين ذكرى روما

---

(1) Oman: The Dark Ages, p. 365.
(2) Eginhard: Life of Charlemagne, p. 31.
(3) Deanesly: op. cit. pp. 375—376.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I p. 259.
(5) Kleinclausz: op. cit. p. 287.

ومجدها القديم ، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة فى احياء هذا المجد • على أن المعاصرين لم يقصدوا احياء مجد الامبراطوريه الرومانية فى حضارتها وقوتها فقط ، بل أيضا فى شخص الامبراطور بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس • حقيقة كانت هناك امبراطورية رومانية وامبراطـــور قائم فى القسطنطينية ، ولكن أهالى غرب أوربا بوجه عام وايطاليا بوجه خاص نظروا الى هذا الامبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية بسبب موقف الأباطرة البيزنطيين من عبادة الأيقونات من جهة وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى ، حتى أصبح هؤلاء الأباطرة ـ فى نظر الايطاليين ـ مجرد جباة أموال مبغوضين (١) •

كان هذا هو شعور المعاصرين اذا نحو الماضى والحاضر فى الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللمبارديين السياسية ، وحمى البابوية من خطرهم، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية لينشر المسيحية بينهم ، كما حارب المسلمين فى أسبانيا والبحر المتوسط لدفع خطرهم ، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده فى انعاش الحضارة فى الغرب • ولا شك فى أن هذه الأعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة فى عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية ، وأنه جدير بلقب الامبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعاظم الأباطرة الرومان •

ومن الواضح أنه كان فى استطاعة شارل أن يضفى على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى الى الكنيسة الفرنجية بفعل ذلك ، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر ، أى فى أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الامبراطورية حتى يكون أوقع أثرا فى العالم المسيحى أجمع (٢) • وكان أن أتيحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تآمر خصوم البابا ليو الثالث ضده ووضعوا

(1) Moss : op. cit. p. 219.
(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 232.

خطة ترمى الى سمل عينيه وقطع لسانه لابعاده عن منصبه (١) • ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الأحداث التى جرت فى روما وبأن البـــابا لم ينج من المؤامرة الا بصعوبة ، فأرسل الى البابا الهارب يستدعيه اليه واستقبله فى ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام (٢) • وبعد ذلك قام شارل بارسال البابا مخفورا الى روما حيث لحق به بعد قليل • وفى روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التى ألصقها به خصومه ، وبذلك عاد البابا الى مباشرة مهام منصبه فى حين أمر شارل بمعاقبة المتآمرين (٣) • وهنا أخذ البابا يفكر فى وسيلة يرد بهـا الجميل للملك الفرنجى الذى أنقذ البابوية وأثبت فى كل مناسبة أنه أخلص حليف لهــا وأقوى دعامة للكنيسة الغربية • حقيقة أن منح لقب الامبراطور لـــلك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة ، وربمـــا بدا غريبا فى نظر المعاصرين ، ولكن حيـــاة شارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة • واذا قورن بمعاصرته الامبراطورة ايرين — وهى المرأة الشريرة التى أخذت تعبث بمصير الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت — فانه لا يوجد أى وجه للمقارنة أو الموازنة (٤) • وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التى تحكمت فى مصائر الامبراطورية البيزنطية (٧٩٧ — ٨٠٢) كان من العــوامل التى شجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيوط التى ربطتهم بالامبراطورية الشرقية (٥) •

وكان أن نفذ البابا فكرته فى الاحتفال الكبير الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس تمجيدا لعيد رأس السنة (٨٠٠) • فعندما انتهت الصلاة ، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وئيدة ممسكا تاجا ذهبيا فى يده ووضعه على رأس شارل — الذى كان لا يزال راكعا أمام المذبح وقال — « اللهم امنح الحياة والنصر لشارل

---

(1) Cam. Med, Hist. Vol. 2 p. 619.
(2) Deanesly, op. cit. p. 381.
(3) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne.. p. 92.
(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 457.
(5) Oman : The Dark Ages, p. 372.

العظيم الذى توج بفضل الله امبراطورا عظيما على الرومان » .(١) ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربى الفرنجة ورجال الدين الايطاليين ، وأخذ الجميع يحيون شارلمان بالطريقة التى كانت متبعة مع الأباطرة الرومان(٢) .

ولا شك فى أن هذا الحدث لم يكن خطيرا بالنسبة لشارلمان فحسب ، بل أيضا بالنسبة للبابوية والغرب الأوروبى فضلا عن الشرق البيزنطى(٣) . أما عن شارلمان فيقال أنه فوجىء بهذا الاجراء الذى اتخذه البابا ليو الثالث ، ولم يكن يعلم به أو يتوقعه وان كان يرجوه ويحلم به . وقد ذكر اينهارت - المؤرخ المعاصر الذائع الصيت الذى ترجم لشارلمان - أن سيده لو عرف بما أعده البابا فى يوم رأس السنة لما دخل كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم(٤). ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحيى الامبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن ظل العالم الغربى بلا امبراطور منذ أواخر القرن الخامس ، وأن يكون مؤسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لعبت دورا عظيما فى أحداث العصور الوسطى . وأما البابوية فقد قطعت - بتتويج شارلمان امبراطورا - الرباط الواهى الذى كان يربطها بالامبراطورية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه قوت الرباط الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعا دينيا مقدسا . هذا فضلا عن أن الطريقة التى تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الامبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا ، وهى العقيدة التى أصبح لها شأن كبير فى النزاع بين الامبراطورية والبابوية فيما بعد(٥) .

أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فان اعلان شارلمان امبراطورا فى الغرب جاء صدمة عنيفة لها(٦) . فمنذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس، والعالم الرومانى لا يعرف الا امبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطى الذى

---

(1) Bryce ; The Holy Roman Empire, p. 49.
(2) Kleinclausz : op. cit. p. 304.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 351.
(4) Eginhard : The Life of Charlemagne ; p. 44.
(5) Moss : op. cit. pp. 222—223.
(6) Eyre : op. cit. p. 173.

تمتع بسيادة – ولو اسمية – على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان ٠ولكن قيام شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ أوجد منافسا خطيرا للامبراطور البيزنطى ، وحرم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية و لعالم الغربى ٠ هذا الى أن تتويج شارلمان لم يجعل منه « الامبراطور » الأساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية – من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى – لا تحتمل رأسين ، مثلها مثل البابوية ، وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزها(١) ٠ ولعل هذه الصدمة التى أصابت الامبراطورية الشرقية ، هى التى جعلتها لا تعترف بامبراطورية شارلمان الا عندما أفاقت ، بعد مرور اثنتى عشرة سنة على تتويجه (فى يناير سنة ٨١٢)(٢) ٠

اصلاحات شارلمان :

على أن أهمية شارلمان فى التاريخ لا تبدو فى حروبه الطويلة أو تتويجه امبراطورا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب،بل تبدو هذه الأهمية أيضا فى اصلاحاته الواسعة التى تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت الى ما يعرف فى التاريخ باسم النهضة الكارولنجية ٠

ففى ميدان الثقافة أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالدراسات العلمية ، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوربا ، ولاسيما أيرلند وانجلترا وايطاليا(٣) ٠ واشتهر من هؤلاء العلماء مجموعة ضخمة من أعلام النهضة الكارولنجية مثل بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس وغيرهم ٠ وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى ألكوين ، وهو رجل انجليزى الأصل احتضنه شارلمان ، فتعهد النهضة الفكرية فى الامبراطورية الكارولجية فى أواخر القرن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 620—621.
(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 233.
(3) Foligno : Latin Thought, p. 68 & Taylor ; Med. Mind Vol. 1 p. 214.

الثامن ، وبذل جهودا جبارة في خدمة العلم والتعليم(١) • من ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة واهتم باصلاح نظم المدارس الدينية ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافي • كذلك تولى ألكوين رئاسة مدرسة القصر التي كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها(٢) • وهكذا أضحى بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علميا كبيرا ذاخرا بالمعلمين — مثل ألكوين — والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان ، والشعراء مثل ثيودلف(٣) • لذلك لا عجب اذا انتشر التعليم وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه ، فضلا عن العناية بالمكتبات ونسخ الكتب وتصحيحها ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها ، مما أدى الى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة(٤) •

أما اصلاحات شارلمان في ميادين التشريع والقضاء والادارة ، فكانت هي الأخرى على جانب كبير من الأهمية • من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لاقرار النظام الادارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبي في دور القضاء • كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعي القومى لمختلف العناصر التي تألفت منها امبراطوريته(٥) • وقد قسم شارلمان امبراطوريته الواسعة الى أقسام ادارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه في منطقته ، ويتمتع تبعا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء في النواحي المالية أو القضائية أو الادارية • فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، كذلك عن اعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، فضلا عن الاشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية • وكان للكونت أن يختار مساعدين ونوابا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 574.
(2) Syre, op. cit. p. 268.
(3) Kleinclausz : op. cit. pp. 197—202.
(٤) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شيء من التفضيل بالرجوع الى كتاب « النهضات الأوروبية » للمؤلف •
(5) Egnihard : The Life of Charlemagne, p. 45.

يساعدونه فى مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين • وفى نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الامبراطورية الى القصر الملكى فى العاصمة(اكس لاشابل) حيث يقضون بضعة أسابيع فى تسليم مافى عهدتهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة(١) • أما هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشارى ينعقد وفق ارادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الامبراطورية وشعوبها — لا الفرنجة فحسب — فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات(٢) • ولما كان لابد لحكام الأقسام الادارية الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فان هذه الأقسام — التى أطلق عليها ماركيات — عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع فى وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت فى كونتيتة(٣) • على أن أهم اصلاح ادارى أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi • وكان هؤلاء المبعوثين يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون على هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الادارة (٤) • واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين أحدهما من رجال الادارة والثانى من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الادارى والكنسى فى الدولة(٥) • كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم وانما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالى الأقاليم(٦) •

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية فى امبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتى أصبحت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات ، كما شجع كبار الملاك فى الامبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة الحكومة

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 403.
(2) Kleinclausz : op. cit. pp. 82—88.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 680.
(4) Lavisse : op. cit. Tome 2, Première partie, p. 319.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 682—683.
(6) Davis ; op. cit. pp. 155—157.

فى تقوية جسور الأنهار(١) • أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية فى الأديرة• التى اشتهرت بانتاج خير المصنوعات المعدنية والجلدية والخشبية وغيرها • على أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وانما انتشرت فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات لتنظيم مصالح أفراد الحرفة الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية(٢) • كذلك بدت جهود شارلمان واضحة فى ميدان التجارة حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها • من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس والمكاييل والعملة المتداولة ، هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها ومنع المستغلين من فرض رسوم باهظة على سالكيها أو عابرى الجسور • وقد أقيمت الفنادق والوكالات على امتداد الطرق الرئيسية لايواء التجار ودوابهم وحفظ بضائعهم(٣) • على أن التجار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق النهرية والبحرية لسهولتها وقلة تكاليفها ، فكانت التجارة الداخلية فى الامبراطورية تعتمد على أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها ، فى حين اعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسط وبحر الشمال • وساعد هذا النشاط التجارى الواسع على ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل مينز التى كانت مركزا رئيسيا للتجارة بين ألمانيا وغاليا ، ومثل نيم Nimes وماجلون وآرل وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق(٤) •

شارلمان والكنيسة :

يبدو لنا من دراسة تاريخ الامبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان غالبا عليها • فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى ،

---

(1) Boissonnade; Life and Work in Med. Europe, p. 71.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie, p. 336.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 657.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie, pp. 338—340.

وهو العامل نفسه الذى أدى الى نجاح شارلمـان فى اقامة امبراطوريته ، وفى المزج بين شعوب هذه الامبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة ، بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على محالفة المـلوك الكارولنجيين لحمايتها من نفوذ الامبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطـر اللمبارديين من جهة أخرى . واذا كان ملوك البيت الكارولنجى لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية ، فان الأخيرة ردت اليهم الجميل بتتويج بيبين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شارلمـان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وهكذا قامت الامبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى ، فأخذ شارلمـان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو الى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع ليبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة(١) ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديريين وواجباتهم(٢) . « وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ، ورئيسا للأساقفة والكونتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة »(٣) . حتى الموسيقى الدينية ، والمواعظ التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله(٤) . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحـكومة شارلمـان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيه خضوعا تاما(٥) . وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة الى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ ، يفهمه أن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 616.
(2) Kleinclausz: op. cit. p. 225.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 316.
(4) The Monk of St. Gall; The Life of Charlemagne, p. 72.
(5) Fichtenna: The Carolingian Empire, pp. 132—133.

اختصاص البابوية لا ينبغي أن يتعدى الجانب الديني بأي حال » وأن واجبك أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يديك الى السماء والدعاء لنا مثلما فعل موسى(١) » •

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير بعد شارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها مما آذن باصطدام السلطتين كما سنرى فيما بعد(٢) •

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سبق الى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة الى الملك على أنه ارث يقسم بين أبناء الملك • وطبيعى أن يؤدى استمرار تطبيق هذا المبدأ الى تفتيت الدولة ثم الى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء وهكذا • ومن الغريب أن شارلمان — وهو السياسى البعيد النظر — لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها ، فقسم امبراطوريته الواسعة فى حياته بين أبنائه الثلاثة(٣) • على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء واحد — هو لويس التقى — أخر الى حد ما تقسيم الامبراطورية(٤) • وقد احتفل شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقى الذى خلفه فى حكم الامبراطورية ، والذى لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع (الخامس) سنة ٨١٦(٥) •

والواقع أن لويس التقى لم يكن بالشخص الذى يستطيع حكم امبراطورية

(1) Oliver Thatcher : A Source Book .... p. 107. & سفر الخروج — اصحاح ١٧ — ١١
(2) Davis: op. cit. pp. 276—277.
(3) Deanesly, op. cit. p. 392.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.
(5) Oman: The Dark Ages, p. 387.

شارلمـان • ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الادارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والادارة والكنيسة • هذا فى الوقت الذى تزايد الخطر الخارجى بعد وفاة شارلمـان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الامبراطورية الشرقية، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية(١) • وزاد الطين بلة تمسك لويس التقى — وخلفـائه من بعده — بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء ، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيبين ولويس ، ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته(٢) • على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا اسمه شارل ، ومن ثم أراد اعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته • ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الاخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى(٣) • وكان أن توفى بيبين ، ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم في اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الامبراطـورية تقسيما يرضيهم جميعا(٤) • ذلك أن شارل الأصلع أخذ نستريا واكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية، وأخذ لويس الألماني الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، فى حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضى المنخفضة) والجزء البـاقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وايطاليـا • على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهـاية لامبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل لأنها توضح أيضـا بداية مولد بعض الدول

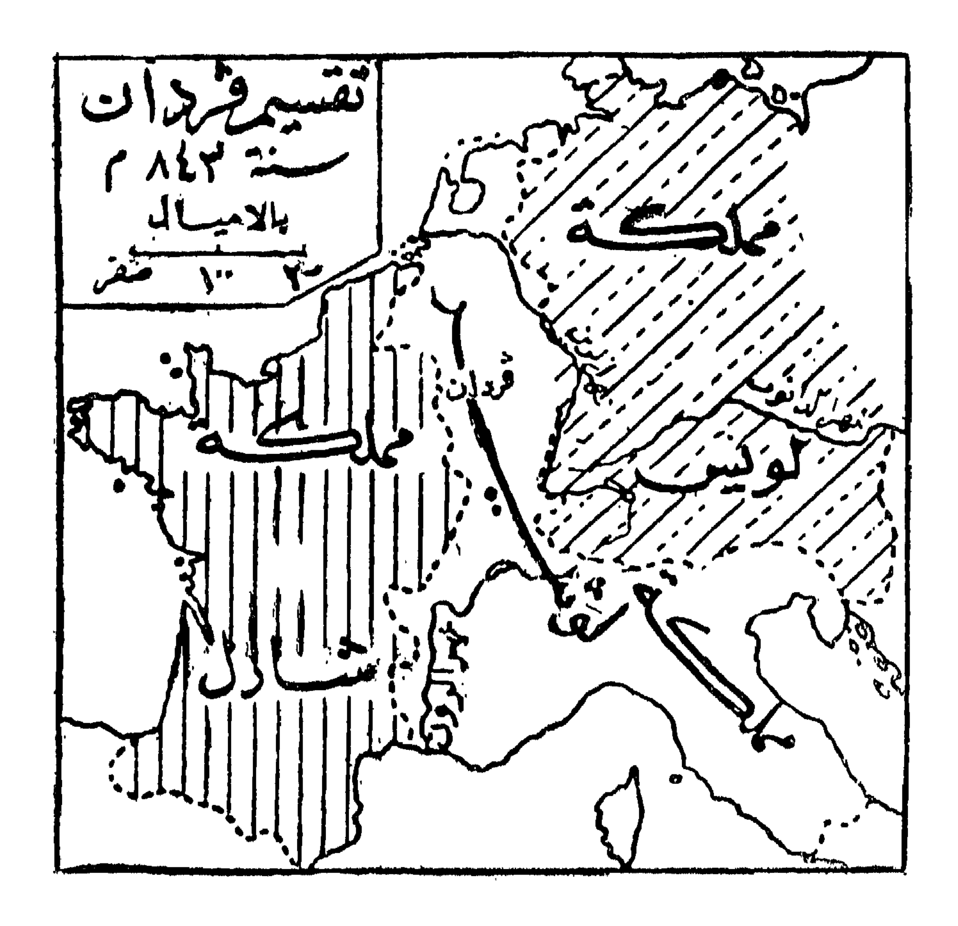
---

(1) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 130.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 pp. 10—11.

(3) Lavisse : op. cit. Tome. 2 Première Partie, pp. 362—363.

(4) Oman; The Dark Ages; p. 409.


تقسيم فردان
سنة ٨٤٣ م
بالاميال
٢٠٠ ١٠٠ صفر
مملكة شارل
مملكة لويس
فردان

العظمى الحديثة(١) . ذلك أن التقسيم السابق قام - الى حد ما - على أساس لغوى ، فكان شارل الأصلع يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية - المحرفة عن اللاتينية - ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للاشارة الى هذا الجزء الغربى من الامبراطورية الفرنجية . وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ، ومن ثم سنشير الى هذا الجزء بألمانيا . أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا - أى مملكة لوثر - ثم حرف الاسم الى اللورين ، وهى المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية(٢) .

ولم يلبث لوثر - صاحب المملكة الوسطى - أن توفى سنة ٨٥٥ ، وبذلك قسمت مملكته الى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه(٣) . وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت اليها الامبراطورية الكارولنجية ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى ، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى ألمانيا . وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا وايطاليا وفرنسا توحيدا اسميا لمدة ثلاث سنوات ، الا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى(٤) . أما فى فرنسا فان شارل البسيط كان طفلا فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية الى أيدى أودو كونت باريس ، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كابية سنة ٨٨٨(٥) .

وعلى هذا الوجه انهارت الامبراطورية الكارولنجية ، وان ظلت ذكرى شارلمان - مؤسس هذه الامبراطورية - باقية فى التاريخ لتخلد اسمه الى جانب

---

(1) Eyre: op. cit. p. 99.
(2) Orton: op. cit. pp. 149—150.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 34.
(4) Deanesly, op. cit. p. 560.
(5) Idem, p. 561.

قيصر والاسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التى استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربى . واذا كان المعاصرون فى القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالاسكندر ورومولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثنى ، فان البابوات وصفوه بأنه قنسطنطين الجديد ، كما رسمت صورته فى قصر انجلهايم الى جوار قنسطنطين وثيودسيوس(١) .

(1) Kleinclausz, op. cit. pp. 355 — 556 & Fichtenau,. op. cit. p. 83.

الباب الثامن

الفيكنج

نقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك ، والتى اتخذت اغاراتها على أوربا شكلا خطيرا فى القرن التاسع • وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها — وأطلق عليها المعاصرون — اسم الفيكنج Vikings — بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا(١) •

واذا كان الفيكنج يرجعون فى الناحية الجنسية الى الأصل التيتونى أو الجرمانى ، الا أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التى أغارت على أوربا فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى • ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون فى هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الامبراطورية بعدة قرون • ولم تحاول الامبراطورية الرومانية أو امبراطورية الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربى الجنوبى مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفيكنج هم الذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكنج(٢) •

ولم يختلف الفيكنج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، اللهم الا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات

---

(1) Mawer: The Vikings, p. 1.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 306.

والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشــون فيه سوى السهول الساحلية ، وهى لا تعدو فى معظم الأحيان أشرطه ضيقة من الأرض الصعبة . وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى اتصفت بطولها وقلة عرضها وســارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شواطىء أوربا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشعوب البحــرية التى عرفتها أوربا بالعصور الوسطى(١) . لذلك اتخذت اغارات الفيكنج شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه الى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة . كذلك عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التى دفعت الفيكنج الى الخروج من بلادهم والقيام بهــذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية . فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع فى البلاد المتحضرة القريبــة منها ، والرغبة فى الاغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها . وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الامبراطورية الرومانية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع(٢) . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كانوا عمــلاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا(٣) . لذلك اهتم الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لمــا ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالى مضايقتهم اقتصاديا ومن الناحية الاجتماعية

---

(1) Stephenson, op. cit. p. 201.
(2) Eyre: op. cit. p. 106.
(3) [illegible] Pfister, Ganshof op. cit. p. 465.

يقال ان أعداد الفيكنج تزايدت فى القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شــواطىء سكندناوة ودانمرك ، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويســد حاجتهم(١) . هذا وان كانت لا توجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفيكنج فى القرن التاسع(٢) . وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفيكنج وبخاصة فى النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر (Harold Fairhair) ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك شهدتا أيضا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج الى الهجرة(٣) . وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوروبا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفيكنج جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدى شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثم شارلمان سنة ٧٨٥ ، أن زالت هذه العقبة من طريق الفيكنج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم(٤) .

واذا كنا فى حديثنا عن الفيكنج نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين فاننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد به هو الاشارة الى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوه أو شبه جــــزيرة الدانمرك ،

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.
(2) Eyre: op. cit. p. 106.
(3) Mawer, op. cit. pp. 7—8.
(4) Eyre: op. cit. p. 106.

وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجى لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك(١) •

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافى فى توزيع غزوات الفيكنج ، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التى هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرق أوربا والبحر الأسود • أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انجلترا وأيرلند والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر الشمالية فى المحيط الأطلسى • هذا فى حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطىء الامبراطورية الكارولنجية فى ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن انجلترا وأيرلند والجزر القريبة •

ويمكن تقسيم الأدوار التى مرت بها علاقة الفيكنج بغرب أوربا الى ثلاثة أدوار ، الأول دور الهجوم والثانى دور الاستقرار والثالث دور الدفاع • أما دور الهجوم فقد بدأ فى أواخر القرن الثامن – أى منذ سنة ٧٨٩ – عندما أخذ الفيكنج يهددون شواطىء انجلترا واسكتلندا وأيرلند • وفى ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفيكنج ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص بعد وفاة لويس التقى(٢) • وقد اتخذ نشاط الفيكنج فى ذلك الدور شكل

---

(1) Stephenson, op. cit. p. 200.

وقد جاء فى موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفيكنج « جموع الشماليين والدانيين والسويديين » ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم ، فى حين أن لفظ الفيكنج أكثر شمولا لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمرك فى القرن التاسع • والواقع ان معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين – سكان دانمرك – والنرويجيين ، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni ، على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين فى كتابات الأيرلنديين المعاصرة • أما الكتاب الذى دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn للدلالة على النرويجيين فقط ، وكذلك فعل ألفرد فى ترجمته لكتاب المؤرخ أوروزيوس •

(انظر Mawer, op. cit. pp. 9—10.)

(2) Oman: The Dark Ages, p. 415.

غزوات صيفية فيخرجون من بلادهم صيفاً عندما يعتدل الجو يعودون اليها فى الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والأسلاب • على أن حركة توسع الفيكنج لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع ، عندما أخـذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم فى معسكرات حصينة أو فى الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطىء البلاد التى يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها • وبعد أن كانوا فى الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا فى هـذا الدور الثانى يغيرون على بلاد غرب أوربا فى هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار فى البلاد التى يغزونها • وهكذا أقيام الفيكنج مستعمرة قصيرة العمر فى أيرلند سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة فى انجلترا سنة ٨٥١(١) ، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت فى الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمنديا(٢) • ولكنهم أخذوا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفيكنج • وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع ، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكنج فى حين التزم هؤلاء الأخيرون جانب الدفاع • وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس مما أدى الى فشل حصار الفيكنج لباريس (٨٨٥ – ٨٨٧) ، وقبل ذلك بقليل كان ألفرد ملك وسكس بانجلترا قد أنزل بالدانيين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨(٣) • وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف – أحد ملوك البيت الكارلونجى فى المملكة الوسطى – أن ينزل هزيمـة بالفيكنج فى موقعة ديل Dyle فى برابانت Brabant (٤) •

---

(1) Hodgkin: The Hist. of England, p. 267.
(2) Eyre, op. cit. p. 107.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.
(4) Eyre: op. cit. pp. 109—110.

اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية :

بدأت اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية فى حياة شارلمان الذى أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين • ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين(١) ، هذا فى الوقت الذى أخذت بعض سفنهم تغير على اقليم أكوتين(٢) • ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفيكنج على شواطىء الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا احدى القرى أو المراكز الساحلية • ويبدو أن هذه الاغارات أفزعت شارلمان فأعد أسطولا قويا فى موانىء نستريا لحماية شواطىء امبراطوريته من هجمات الفيكنج ، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان فى جنوب البحر البلطى وشواطىء فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى ٨٠٤ ، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شرهم(٣) • ثم حدث فى عهد لويس التقى — خليفة شارلمان — أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وأنزلوا قوات ضخمة على شاطىء فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبــوا أوترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ، ودورشتد Duurstede أكبر موانى الاقليم • وفى العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ الى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن Nimuegen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس التقى على رأس جيوشه(٤)• ويبدو أن لويس التقى حاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال ، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج ، وان كانت هذه الاجراءات وأشباهها لم تؤد فى

---

(1) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. pp. 465—466.
(2) Mawer: op. cit. p. 17.
(3) Davis: op. cit. pp. 296—297.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 400.

الواقع الا الى زيادة مطامعهم فى أراضى الامبراطورية(١) •

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا فى نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدرائيتها ، ودخلوا فى الجارون حتى تولوز ، فى حين أوصلهم السوم الى اميان ، والسين الى باريس • وقد ساعد الفيكنج على التوغل فى الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هذه الامبراطورية فى القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام(٢) • ومهما يكن من أمر فان اغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقى سنة ٨٤٠ ، اذ أوغلوا فى نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان • وربما شجع الفيكنج فى سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة أراضى منافسيه ، وذلك أثناء النزاع الذى قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقى(٣) • وهكذا أوغل الفيكنج فى اللوار قبيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت(٦) • ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفيكنج حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ ، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية • وكان لويس الألمانى أوفر اخوته حظا لأن قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمى هذه الدولة من خطر الفيكنج • ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألمانى حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها الى برمن(٥) ، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت فى نهر الالب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكسون ، ثم عادت ظافرة الى الدانمرك بعد أن نهبت جزءا كبيرا من سكسونيا •

---

(1) Mawer: op. cit. pp. 18—19.
(2) Thompson: op. cit. vol I p. 312.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 3 p. 315.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 418.
(5) Mawer: op. cit. p. 20.

أما الأخ الثانى لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطىء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى روريك Rorik ليسترضيه ويتفادى شره .ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما أصبحت شواطىء فريزيا (الأراضى المنخفضة) قلاعا للفيكنج ، استغلوها فى التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر فى قصره بمدينة آخن (اكس لا شابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم .

وأما الأخ الثالث — وهو شارل الأصلع — فكان أسوأ الثلاثة حظـــا ، لأن مملكته امتازت بشاطىء طويل مكشوف ، وعـــدد كبير من الأنهـــار التى ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد . وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل فى حرب أهلية مع ابن أخيه بيبين أمير أكوتين ، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته . وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة فى نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتييه ،واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا(١) . ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بيبين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج ، اذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل فى حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز . وفى ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد ، فأغاروا على مدنة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا فى وجههم فحصن نفسه فى مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفى دير سانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها .

ولم تقف اغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم أغاروا على بوردو — كبرى مدن الجنوب — ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 316.
(2) Mawer: op. cit. pp. 20—21.

قليل فظلت بأيديهم عدة سنوات • ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة ، أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميرى بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شارل الأصلع الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال • وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حوض السين سنة ٨٥٢ ، أن أتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الأصلع ، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، وأجاز له الاستقرار فى منطقة قرب مصب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى بلاده (١) • ولم تلبث أن تجددت الحروب الأهلية بين لويس الألمانى وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة طيبة للدانيين الذين أوغلوا فى مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز وبلوا ، وبذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ - ٨٥٤) (٢) •

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجى عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجئوا الى شراء مسالمتهم بالمال • من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الأخير باخلاء نستريا من الغزاة • ولكى يحصل الملك الكارولنجى على هذا المبلغ الذى تعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين (٣) • وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الأثقال التى كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة ، فى الوقت الذى اتضح عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم(٤)

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 379.
(2) Oman: The Dark Ages p. 422.
(3) Mawer: op. cit. p. 45.
(4) Thompson: op. cit. vol. I p. 313.

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٥ ، ٨٨٧ تعتبر أحلك عصور التاريخ الغربى • ففى سنة ٨٥٥ توفى لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين أبنائه وأخوته حول اقتسام مملكته • وفى هذه الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصلع الى اصدار مرسوم بيستر Pistres سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات فى مجارى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى • على أن وفاة لويس الألمانى سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج (١) • ففى سنة ٨٧٩ دخلت جموعهم نهر الشلد وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادى السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربى وسانت روكويير وغيرهما • كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز لنفس المصير ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتى وصلوا آخن وهددوا كولونيا • حقيقة ان لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج فى موقعة سوكورت Saucourt سنة ٨٨١ ، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم (٢) • وفى سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين الى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية ، فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذى تزوج جزلا ابنة الملك شارل • وفى مقابل كل ذلك ينسحب جودفريد من مملكة شارل السمين ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعا للملك شارل •

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو اتجهوا نحو

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome. 2, Première Partie,. pp: 389—390.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 321.

نستريا ، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليـــل أو كثير ما داموا سيجلون عن مملكته • لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ — ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة من ريمس حتى أميان جموع ضخمة من الفيكنج • وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ — ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفة لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفى سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكى يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى أوستراسيا وانجلترا وأيرلند • وقد اتيحت لشارل السمين — بعد مـــوت كارلومان ملك فرنسا — فرصة توحيد معظم أجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتى شارل السمين وشـــارل العظيم (١) • ولذلك امتازت السنوات الثلاث التى وحد فيها شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ — ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية •

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مـــع الفيكنج لا قيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم • لذلك لم يلبث أن عاد الفيكنج ، الى تهديد ألمانيا وفرنسا ، حتى اشتدت اغاراتهم بصفة خاصة فى الســـنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع ، فدمروا فلاندرز ، كما تعرض وادى الجارون الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة • ذلك أن الفيكنج استولوا على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبريا وأغارت على الموانى المسيحية والاسلامية فى أسبانيا ، كمـــا هددت الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسللت فى الرون حتى نهبت نيم وأفينون(٢) • واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قـــد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفيـــكنج ، فان الأديرة والكنائس لم يكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون • لذلك شدد الفيكنج هجماتهم على الأديرة

(1) Lavisse: op. cit. Tome 2, première partie, p. 393.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 316.

والكنائس بعد أن خبروها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز ، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية فى ذلك العصر . ولما كانت الأديرة حينذاك هى المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوربا العصور الوسطى فان الخسارة التى لحقت الحضارة الأوربية بتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر(١) .

على أن حوض السين ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع . وقد تعرضت باريس فى أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفا منهم جاءوا فى سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شئون الغزو (٢) . وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أدو حاكمها ، حتى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مشينا مع الفيكنج تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس ، كما سمح لهم بالاقامة فى برجنديا (٣) . على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع الى ظهور شخصية كونت أودو على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا الى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق (٤) . ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديدا على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم (٥) . ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، اذ عادوا بعد قليل الى محاصرة باريس للمرة الرابعة . وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهر ، الا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أودو الكونت ، اذ اقتفى هو

---

(1) Haskins; The Normans in European History, p. 35.
(2) Mawer: op. cit. p. 49.
(3) Lavisse: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 394.
(4) Idem: p. 399.
(5) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 62.

الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفيكنج بالمال ، وعندئذ انسحبوا الى بريتانى • ولم يلبث أن عاد الفيكنج — كما هى عاداتهم — الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند مونتبنسيه Montpensier وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ •

وهكذا أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقص خطر الفيكنج ، الأمر الذى دفعهم الى التآمر ضد ملكهم أودو ، فنظروا اليه على أنه أحدهم وأرسلوا يستدعون شارل البسيط — وريث البيت الكارولنجى — من انجلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو وشــــارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ بوفاة أودو (١) • وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ ، وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر سنه • ولم تكن اغارات الفيكنج قد انقطعت حينئذ ، بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الأهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد • وهنا نلاحظ أن اغارات الفيكنج امتازت — فى هذه المرحلة — بمقاومة الأهالى لها من جهة ، وبقلة الغنائم التى أصبح الفيكنج يحصلون عليها من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسها بأسوار منيعة •

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب اليهم فيما بعد — نورمنديا • وتشير الوثائق المعاصرة الى أن رولو Rollo الذى أصبح فيما بعد دوق نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامى ٨٩٠ ، ٨٩٢ • ويبدو أن الفيكنج اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطىء هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتانى • وعلى الرغم من أنهم فشلوا فى الاستيلاء على شارتر سنة ٩١٢ (٢) ، الا أن شارل البسيط

---

(1) Idem: pp. 65—68.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 318.

اختار أن يسلك معهم نفس الأسلوب الذى اتبعه ألفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو اقليما واسعا يستقر فيه مع أتباعه(١) . وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الاقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى ، وهى المنطقة التى نسبت الى الشماليين (أو النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نومنديا (٢) .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع ، لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ ، والذين لم تنقطع اغارتهم عنها الا حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن (٣) . ومهما يكن الأمر فان الفيكنج أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا . ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائغة هو رغبته فى ايجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت باريس . وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورمنـــديا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، كما أثبتت الحوادث نجـــاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد (٤) . والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا — أينما حلوا — يظهرون مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات وأوضاع أهالى البلاد الأصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لاقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وأصبحوا فرنسيين فى لغتهم ونظمهم وثقافتهم ، وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 322.
(2) Mawer; op. cit. p. 52.
(3) Haskins: The Normans in European Hist. p. 27.
(4) Fliche; L'Europe Occidentale, pp. 72—77.

والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل ، مما جعلهم يقومون بدور هام فى حكومات فرنسا وانجلترا وايطاليا وصقلية ، وهى الجهات التى غزاها النورمان فيما بعد (١) •

اغارات الفيكنج على انجلترا :

كانت انجلترا من أولى بلاد غرب أوربا التى تعرضت لاغارات الفيكنج ، اذ شهدت هذه البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التى رست قرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهتريك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ – ٨٠٢) كما نهبت أسقفية لندسفرين Lindisfranc قرب الشاطىء الشمالى الشرقى لانجلترا سنة ٧٩٣ (٢) • وبعد أن أغار الفيكنج على دير القديس بولس فى جارو Jarrow على الساحل الشرقى سنة ٧٩٤ لم نسمع عن اغارات أخرى قاموا بها على انجلترا حتى سنة ٨٣٥ • ويبدو أنهم فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٩٤ ، ٨٣٥ وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلند كما سيلى بعد قليل •

وقد أطلق أهل انجلترا من السكسون اسم « الدانيين » Danes على جماعات الفيكنج التى أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن (٣)، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون نفس الجرعة التى سبق أن سقوها لأهالى بريطانيا – من البراطنة والرومان – فى القرنين الخامس والسادس • ومهما يكن من أمر فانه على الرغم من قسوة اغارات الفيكنج على انجلترا ، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى ، الا أنه من الثابت أن الفائدة التى حصلت عليها انجلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التى لحقت

(1) Lavisse: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 402.
(2) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 257—258.
(٣) هذا على الرغم من أن اغارات الفيكنج فى هذا الدور الأول على انجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانيون من سكان الدانمرك ، وهم الذين لم تبدأ هجماتهم بصفة جدية على انجلترا وايرلندة الا قرب منتصف القرن التاسع • انظر • Mawer; op. cit. p. 14.

بها ، ويكفى أنها أدت الى تكتل انجلترا الأنجلوسكسونية فى هيئة مملكة واحدة (١) •

أما اغارات الفيكنيج على انجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت فى الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقا (٢) • ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكنيج فى هذا الدور ، اذ أغاروا على سوثامتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند فى نفس الوقت ، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣، ومصب نهر باريت Parict سنة ٨٤٨ ، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤ • وليس معنى ذلك أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطر الفيكنيج ، فقد اجتاحوا لندسى Lindsey وانجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١ • وفى سنة ٨٤٤ لقى ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم (٣) •

ولم تلبث أن دخلت نهر التميز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين الذى استولوا على كانتربورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث أنزل بهم اثلوولف Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبح منهم عددا كبيرا • ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء الأول مرة سنة ٨٥١ فى انجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة الى دور الاستقرار (٤) •

ثم كان أن لجأ شارل الأصلع الى تخليص أراضى نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ ، وعندئذ لجأت هذه الجموع الى انجلترا حيث أغارت فى العام التالى (٨٦٧) على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول نورثمبريا (٥) • على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد الى اضعاف الدانيين

---

(1) Hodgkin: The History of England, p. 262.
(2) Mawer: op. cit. p. 14.
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 266—267.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 312.
(5) Mawer: op. cit. p. 24.

أو طردهم ، بل ان مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ (١) . كما عبروا مرسيا الى انجليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم اعتبر هذا الملك قديسا وشهيدا فى نظر العصور التالية (٢) .

والواقع أنه لم ينقذ بقية انجلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ — ٨٩٩) ، حتى أن سنة ارتقائه العرش صارت ذات أهمية بالغة فى تاريخ انجلترا (٣) . ذلك أن ألفرد العظيم أبلى بلاءا حسنا فى الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى أنه اشتبك معهم فى تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه ، الأمر الذى جعل الدانيين يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرسيا . على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين سنة ٨٧٥ ، وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب فى هذا الدور ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها جميعا وأنزل بالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتون Edington سنة ٨٧٨ . وكان أن طلب الدانيون الصلح ، فتم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨ على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم من اعتناق المسيحية (٤) . ولكن ملك الدانيين فى انجلترا لم يلبث أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الأمر الذى جعل ألفرد يحاربهم مرة أخرى حتى انتهى الأمر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر ، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد ، فى حين التـزم الدانيون الأراضى الواقعة شمالى هذا الخط وهى التى سميت مسموح الدانيين (Danelaw) (٥) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 318.
(2) Mawer: op. cit. p. 25.
(3) Hodgkin: The Hist. of England; p. 278.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 319.
(5) Hodgkin: The Hist. of England, p. 287.

وقد تمتعت انجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها ألفرد فى اعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، فى حين وجه الفيكنج جهودهم الى القارة • وفى ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقى الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ • ولم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الأمر الذى جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انجلترا (١) • وهكذا تعرضت انجلترا فى خريف سنة ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانيين أحدهما أرسى عند ليمن Limen (فى الجنوب الشرقى جنوبى دوفر) فى حين أرسى الأسطول الثانى عند ملتون Milton فى الجزء الشمالى من كنت • وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا فى مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم فى قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب • وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على انجلترا بقية عهد ألفرد ، وان ظل الدانيون المقيمون فى أنجليا الشرقية ونورثمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة ، الأمر الذى دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله فى دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم (٢)•

وعندما توفى ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضى الدانيين تدريجيا حتى انتهى الأمر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذى أصبح يستحق لقب ملك انجلترا فى التاريخ • على أن ملوك انجلترا فى الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شىء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج • وفى هذه المرة لم يأت الدانيون الى انجلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاءوا فى صورة أمة مترابطة ، حتى أصبح كانوت Canute بن ملك الدانمرك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ — ١٠٣٥) • ولم يستطع أصحاب الحق الشرعى فى عرش انجلترا من البيت السكسونى استرداد عرشهم الا سنة

(1) Idem: pp. 306—307.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 325.

١٠٤٢ ، عندما تولى ادوارد الثالث (١٠٤٢ - ١٠٦٦) الذى عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » فى التاريخ • وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا مما جعله يتأثر الى حد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية (١) • ومهما يكن من أمر فان وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط انجلترا عند وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ ، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة ، وبحجة أن ادوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم انجلترا من جهة أخرى • وهنا نلاحظ أن البابوية ساندت وليم النورمندى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسون ، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمندى على الرغم من أنه كان يحمل تفويضا من البابوية (٢) •

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطىء الجنوبى الشرقى لانجلترا ، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته ، فأوقع الهزيمة بهارولد ملك انجلترا السكسونى الجديد — فى موقعة هاستنجس ١٠٦٦ (٣) وبذلك نجح وليم فى فتح انجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ ، كما استطاع توحيد نورمنديا وانجلترا تحت حكمه •

غزوات الفيكنج لأيرلندا :

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحل اغارات الفيكنج ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، فى الوقت الذى كانت مدن الجزيرة وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين • وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون اغاراتهم على أيرلندا فى أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع (٤) •

---

(1) Ibid.
(2) Idem, Vol. 5 p. 497.
(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 488—491.
(4) Oman: The Dark Ages, p. 417.

واذا كانت أيرلند قد تعرضت لاغارات الفيكنج فى الوقت نفسه الـــذى واجهت انجلترا — هى الأخرى — غزواتهم ، الا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر . ذلك أن الفيكنج داروا حول الشاطىء الغربى لاسكتلند وغزوا جزيرة سكاى Skye قرب الشاطىء سنة ٧٩٥ ، كما هاجموا جزيرة مان Man — بين أيرلند وانجلترا — سنة ٧٩٨ . أما جزيرة أيونا قرب شاطىء سكتلند الغربى فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦(١) وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكنج قرب شواطىء أيرلند الشمالية الغربية عنـــد سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد . وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جـــزيرة هوث Howth — بجوار دبلن — وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١ (٢) .

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكنج أحاطت بأيرلند احاطة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ الا وكان الفيكنج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم. وعندئذ لم يعد الفيكنج يكتفون بالغارات الفردية ، وانما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانيها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل (٣) .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكنج على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها . وقد حصن الفيكنج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع ، ومن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن وليميرك Limerick وكورك ووتر فورد Waterford ووكسفورد(٤) . أمـــا المناطق الداخلية فقد اكتفى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.
(2) Mawer; op. cit. p. 12.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317
(4) Mawer; op. cit. p. 13.

الفيكنج بنهبها ولا سيما الأديرة التى تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز وألمانيا .

ومن زعماء الفيكنج فى هذا العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢ . وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة التامة على الجزء الشمالى من أيرلند ، حتى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات . ومهما يكن من أمر فان تورجس هذا لم يكن الا واحدا من عدد كبير من زعماء الفيكنج الذين غزوا أيرلند فى هذه الحقبة والذين تتردد أسماؤهم بكثرة في الحوليات المعاصرة (١) .

وهنا نكرر القول بأن الاغارات الأولى التى تعرضت لها انجلترا وأيرلند جميعا من جانب الفيكنج فى هذا الدور الأول - أى حتى قرب منتصف القرن التاسع - قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين ، لا من الدانيين (٢). وتحدد الحوليات المعاصرة أول اغارة للدانيين على ايرلند بسنه ٨٤٩ ، ومنذ ذلك الوقت أخذت اغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة . من ذلك أن الدانيين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين ، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ .
وهكذا اشتد النزاع فى أيرلند بين الدانيين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين ، مما أوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى . وزاد من حدة هذه الفوضى وصول أولاف Olaf - ابن ملك النرويج - الى ايرلند سنة ٨٥٣ لتخضع الدانيين فى الجزيرة (٣) .

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويا لحكم النرويجيين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.
(2) Mawer: op. cit. p. 14.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

الشماليين فى أيرلند ، كما أخذ الزناق يسوء العـــلاقات بين النرويجيين والدانيين فى الجزيرة . أما الايرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا ، وظهر بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم . ولم يقتصر نشاط أولاف فى هذه الفترة على أيرلند ، وانما امتد خارجها فذهب الى سكتلند سنة ٨٦٦ ، كما أسهم بنفسه فى حصـــار دمبــارتون Dumbarton على شاطىء سكتلندا الغربى سنة ٨٧٠ . وعندما عاد أولاف الى النرويج حوالى سنة ٨٧٣ بدأ الدانيون ينتهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين فى أيرلند ، مما فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد (١) . على أننا نستطيع القول بأن الغلبة فى أيرلند ظلت بوجه عام للنرويجيين الشماليين ، وأن الدانيين لم ينجحوا فى بسط سيطرتهم على الجزيرة (٢) .

ثم كان أن ساد السلام فى أيرلند لفترة امتدت نحو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧ . ويبدو أن الفيكنج شغلوا فى هذه الفترة بميادين أخرى استأثرت بالجزء الأكبر من نشاطهم ، وبخاصة انجلترا وامبراطورية الفرنجة . ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها فى أيدى الأيرلنديين ســـنة ٩٠٢ . على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦ ، وعبثا حاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ ، وهكذا أضحت أيرلند طوال الخمسين سنة التالية فريسة سهلة لاغارات الشماليين والدانيين على السواء . واذا كان الشماليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم ، فان الدانيين اتخذوا كورك Cork فى جنوب الجزيرة قاعدة لهم وأغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحوا اقليم منستر بأجمعه (٣) .

وفى تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعداءهم فى عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة . وفى سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة فى تارا Tara واضطروا الى اطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن ، فضلا عن دفع

(1) Mawer: op. cit. p. 58.
(2) Idem, p. 11.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317—334.

غرامة حربية باهظة . ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الأخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم . ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلند الا أنهم أخـــذوا يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندي على مر السنوات (١) .

الفيكنج في الجزر الشمالية :

على أن توسع الفيكنج في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انجلترا وأيرلند وشواطيء سكتلند وامبراطورية الفرنجة ، وانما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد مثل مان وأوركني وشتلندوفاروي Faroes (٢). هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا — بحكم موقعهم الجغرافي — اتجاها شماليا غربيا ، أي نحو أيسلاند وجرينلاند . ويرجح أن النرويجيين عرفوا من اقامتهم في أيرلند بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا في شـــمال المحيط الأطلسي ، لأنه من الثابت أن الرهبان الايرلنديين سبق أن وصلوا أيسلاند وان لم يستقروا فيها . هناك رواية وردت في احدى الســـاجات تشير الى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطيء أيسلاند سنة ٨٦١ (٣) . ومهما يكن من أمر فان استقرار الفيكنج في أيسلاند لم يبدأ الا حوالي سنة ٨٧٠ عندما هاجر اليها كثير من النبلاء النرويجيين ومعهم أتباعهم ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا في النرويج عندئذ (٤) .

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من أيسلاند حتى وصلوا جرينلاند والشواطيء الشمالية الغربية لأمريكا حوالي سنة ١٠٠٠ . وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليهـــا من النرويج وأيسلاند ، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أســـقفية جاردار Gardar سنة ١١٢٦ (٥) .

(1) Mawer: op. cit. p. 46.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 325.
(3) Thompson: Vol. 1, p. 332.
(4) Mawer: op. cit. p. 142.
(5) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 324.

توسع السويديين شرقا :

أذا كان هناك جدل طويل فى التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانيين فى حركة الفيكنج ، فاننا لا نصادف خلافا فى الرأى عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا • حقيقة انــه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن السويديين ترددوا — هم الآخرون — على انجلترا وغيرها من بلاد الغرب ، ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردى ، ولا تعبر بأى حال عن النشاط الاجماعى للسويديين • وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على أســاس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى ، لا على أساس الغزو الحــربى والنهب والتدمير ، وهى الصفات التى امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين فى الغرب (١) •

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيا لنشاط عناصر الفيكنج ، وان كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط فى هذا الميدان ، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى •

واذا كان نشاط الدانيين فى حوض البحر البلطى قد اقتصر على شواطىء بومرانيا Pomerania — غربى دانزج — فان نشاط السويديين اتجه الى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا الى كورلاند Kurland على خليج ريجا ، ومنها الى أوغلوا شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد (٢) • ومهما يكن من أمر ، فان الميدان الرئيسى لتوســع السويديين ونشاطهم لم يكن فى حوض البحر البلطى وشمال أوربا بقدر ما كان فى سهولها الجنوبية الشرقية • وفى هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى « النوتية أو البحارة » ، أطلقه الفنيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغلت فى بلادهم •

---

(1) Mawer: op. cit. p. 9.
(2) Idem, pp. 72—73.

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية فى شرق أوربا لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين فى القوقاز أو التجار المسيحيين فى القسطنطينية . ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت فى القرن التاسع ، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من الســـويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم فى حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود . وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطى والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم فى هذا الجزء الشرقى من أوربا (١) . ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن ، تتحكم كل مدينة منها فى المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى تسكنها قبائل مختلفة من السلاف ، ولكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت هذه المدن فى حماية أنفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية (٢) . وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس — ويدعى روريك Rurik — على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفكنج فى شرق أوربا ، كما كانت نورمنديا مركزا لهم فى غربها . على أنه اذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حـــالت دون توســعها فى فرنسا (٣) ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة — وغير المباشرة — على كثير من القبائل والشعوب الضاربة فى سهول شرق أوربا . ويقال أنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن أصبح بها فى الربع الأول من القرن الحادى عشر — أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) — ثمان أسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والألمان ، فضـــلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد (٤) . ومازالت لدينا بعض معاهدات تجارية

---

(1) Stephonson: op. cit. Ps, 201, 211.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 325.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 327.
(4) Thompson; op. cit. Vol. I. p. 325.

ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولـــة البيزنطية من جهة أخرى ، تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف • وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية (١) •

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال ، مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها • من ذلك أنه حـدث سنة ٨٦٥ أن أبحروا فى الدنيبر حتى البحر الأسود واجتازوه الى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها • ثم حدث سنة ٩٠٧ أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه أتباعه تحملهم ألف سفينة ، ولم ينسحب الا بعد أن دفعت له الامبراطورية مبلغا كبيرا من المال (٢) •

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية سنة ٩٤١ ثم ٩٤٤ ، مما دفـــع الامبراطورية الى السعى للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على أسس سلمية (٣) • وكان أن تم التفاهم فعلا حوالى منتصف القرن العاشر ، ومن ثم أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين فى البحـــرية الامبراطورية ، حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم (٤) • وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب (٥) ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق ، على أن تعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل

(1) Mawer: op. cit. p. 75.
(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 229.
(3) Vasiliv: op. cit. Tome I. p. 426.
(4) Diehl & Marcais: op. cit pp. 470—471.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التى عثروا عليها فى السويد وفى روسيا والتى يرجع معظم تواريخها الى الفترة الواقعة بين سنتى ٨٥٠ ، ١٠٠٠ (١) . ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافى الكبير الذى عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادى عشر ، الا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافى العام (٢) .

نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها ، انما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة ، ففى سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شواطىء أسبانيا الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس وأشبيلية بوجه خاص لعثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية (٣) . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التى أظهرها الأهالى فى صد أولئك الغزاة — الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس (٤) . — الا أنه يبدو أن أغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثانى الى ارسال سفارة الى ملك الفيكنج (٥) .

ثم حدث سنة ٨٥٩ أن أبحر الفيكنج من حوض السين وعبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطىء الأندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار . وبعد أن أمضوا فصل الشتاء فى احدى الجزر الواقعة عند منصب نهر الرون ، حيث أغاروا على مدن اقليم

---

(1) Mawer: op. cit. p. 79.
(2) Idem: p. 80.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.
(٤) ويبدو أن اطلاق مسلمى الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها ، أو لما اعتاده الفيكنج من اشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الأمر الذى حمل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس .
(5) Mawer; op. cit. pp. 19—20.

بروفانس ، أبحروا فى الربيع التالى الى ايطاليا حيث استولوا على بزاولونا Luna ويبدو أن الهدف الأساسى من ذهاب الفيكنج الى ايطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لا ندرى السبب فى عدم تقدمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وان كانت بعض الأساطير المعاصرة تعلل ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هي روما • ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الفيكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فعبروا مضيق جبل طارق الى بريتانى •

وهكذا استطاع الفيكنج فى النصف الثانى من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفيكنج الغربيون الى شواطىء ايطاليا من الجهة المقابلة (١) •

حضارة الفيكنج :

لم يكن الفيكنج برابرة بكل معانى الكلمة ، لأنهم أظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية (٢) ، اذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة ، فى حين فاقوا كثيرا من شعوب أوربا المجاورة فى بعض نواحى النشاط البشرى ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعى من جهة أخرى (٣) • على أن الخشونة والبدائية التى عرف بها الفيكنج فى أول الأمر لم تلبث أن أخذت تتعدل نتيجة لانتشار المسيحية تدريجيا بينهم ، وما ترتب على ذلك من تهذيب طباعهم •

ويرجح أن أول معرفة الفيكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين ، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندناوة والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن • ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة ابو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سنة ٨٢٣ (٤) • وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقى على نشر المسيحية بين

---

(1) Idem: pp. 46—47.
(2) Haskins: The Normans in European History, p. 36.
(3) Mawer: op. cit. p. 83.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.

الفكنج بالطرق السلمية ، فأغرى هارولد ملك الفيكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه سنة ٨٢٦ . وعند عودة هارولد بعد ذلك الى بلاده صحبه القديس انسكار St. Ansker أحد رهبان دير كوربى المعروفين بحماستهم الدينية ، قضى انسكار عامين فى نشر المسيحية فى الدانمرك ، ثم أبحر الى السويد حيث استقبل استقبالا طيبا ونجح فى تحويل عدد كبير من السويديين الى المسيحية ، حتى عاد الى بلاده سنة ٨٣١ ، فعين رئيسا لاسقفية هامبورج التى أصبحت قاعدة لنشر المسيحية فى البلاد الشماليه (١). وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية ، ليس بين الدانيين فحسب ، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك ، وليس فى بلادهم الأصلية فحسب فى المواطن الجديدة التى هاجروا اليها واستقروا فيها سواء فى غرب أوربا أو شرقها . وليس هناك من شك فى أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثرا واضحا فى مستقبل أوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا فى شرق أوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين فى القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين فى الدولة البيزنطية (٢) .

وقد امتازت حضارة الفيكنج فى الجانب المادى بالثروة والفخامة ، فجمعوا الحلى وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الأشياء التى فاضت بها مقابرهم . وليس هناك من شك فى أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب فى اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجارى من جهة أخرى (٣) . ومن الواضح أن الفيكنج تركوا أثرا حضاريا واضحا فى كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلند وانجلترا وملحقاتهما الطبيعية (٤) . واذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفيكنج قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التى نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء فى أقصى

(1) Mawer: op. cit. p. 86.
(2) Dawson: The Making of Europe. p. 244.
(3) Haskins: The Normans in European History, p. 36.
(4) Mawer: op. cit. p. 86.

الغرب ـ أى فى ايسلاند وجرينلاند ـ حيث ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضارى آخر فى القـارة الأوربية(١) • حقيقة ان حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة أيرلند الكتلية نتيجة لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة • وقد بلغ التقدم الحضارى فى جرينلاند ـ بعد استقرار الشماليين فيها ـ أن أديرتها فى القرن الثانى عشر كانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة ، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينوع دافىء طبيعى • هذا فضلا عن النشاط التجارى الواسع الذى قام به أهالى جرينلاند وأيسلاند فى الميدان الاقتصادى ، اذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة(٢) •

أما فى ميدان الأدب فان المجموعة الضخمة من أساطير الساجا Saga وأشعار الادا تعتبر خير ما يدل على التقدم الأدبى وبخاصة فى أيسلاند • أما الساجات فهى أساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية • وأما الادات Eddas فهى مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ولكنها تمتاز أيضا ببروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعة الى الحياة • واذا كانت هذه الأشعار تنطوى على شىء من الخشونة والبربرية ، الا أنها تعبر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الأسمى الذى يسعى اليه البطل • وهكذا يرجع الفضل الى الفيكنج عندما انتجت جزر أوربا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوربا العصور الوسطى(٣) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 324.
(3) Dawson: op. cit. p. 252.

الباب التاسع

أسرة كابيه فى فرنسا

من الواضح أن الغزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام ، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديدة من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا • وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو لنفوذه السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم • وهكذا أخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة ، كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الأخطار والقلاقل التى هددت المجتمع الغربى(١) • وبعبارة أخرى فان هؤلاء الضعفاء أو المستضعفون قبلوا أن يعيشوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمراء الاقطاعيين بحمياتهم والذود عنهم ، فى حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمراء الاقطاعيين •

وسوف نتكلم ــ فيما بعد ــ بشىء من التفصيل عن النظام الاقطاعى وخصائصه(٢) ولكن يكفى أن نشير الآن الى أن هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ظلت عليه فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر • ففرنسا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى أصبح من الضرورى الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس أرواحهم • وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر ، الا كان النظام الاقطاعى

---

(1) Painter: op. cit. pp. 105—106.

(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضارتها فى العصور الوسطى •

قد وطد أقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا(١) • ومن الثابت أن فرنسا — وهى الجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية — اختلفت عن ألمانيا — الجزء الشرقى من هذه الامبراطورية — لأن الأولى كانت فى سالف الزمن جزءا من العالم الرومانى حتى دخلت تحت حكم الجرمان • وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى أقسام ادارية — أو كونتيات — تتبع حدود الأسقفيات ، ويحكم كلا منها كونت نائبا عن الملك الميروفنجى أو الكارولنجى • وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية فى فرنسا وعندئذ لم تبق قوة تحل محلها سوى قوة الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك(٢) •

ولا شك فى أن الحقيقة التاريخية الكبرى التى امتاز بها تاريخ فرنسا فى القرن العاشر هى سقوط البيت الكارولنجى وقيام أسرة كابيه فى الحكم • ذلك أنه حدث عندما عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن اختير أودو كونت باريس ملكا فى العام التالى ، بعد ما أبداه من شجاعة فى الدفاع عن باريس أثناء حصار الفيكنج لها(٣) • على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجى والتمسك بهذا البيت(٤) ، الأمر الذى أثار نزاعا طويلا — استمر قرنا من الزمان — بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى حول الاستئثار بحكم فرنسا • وهنا نشير الى عدم صحة ما يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الأمر الذى أدى الى ضياع الملك من أيديهم • فالواقع أنهم كانوا على قدر كاف من المقدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم • ذلك أن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع فى الجزء الغربى من امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذى أصبح من نصيب سلالته ملوك فرنسا • وهذا هو السبب

---

(1) Orton: op. cit. p. 174.
(2) Painter: op. cit. p. 152.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62—63.
(4) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 60.

فى أن ملوك الجزء الغربى من الامبراطورية ــ فرنسا ــ ظلوا دائما فى فقر وحاجه الى المال حتى زوال البيت الكارولنجى (١) •

وقد حدث أثناء حوادث التنــافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت البارىسى ان اختير احد أبناء البيت الكارولنجى ملكا ــ وهو شارل البسيط (٨٩٣ ــ ٩٢٣) • ولم يعجب ذلك روبرت أخو أودو ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثرنجيا للاخير • هذا الى أن شارل البسيط اكتسب حليفا قويا عندما منح رولو واتباعه من الفيكنج اقليم نورمنديا • ومع ذلك ، فان السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت مليئــه بالمتاعب الجسام التى سببها له روبرت كونت باريس(٢) • وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ ، ولكنه قتل فى العام التالى تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله(٣) • أما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ ــ ٩٥٤) ، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من أخت أوتو العظيم ليضمن مساعدة ألمانيا • ولكن لويس الرابع سرعان ما استكشف أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم(٤) ، فاضطر الى مسالمته مكتفيا بالاقامة فى مدينة لايون Laon • وهكذا نجح هيو العظيم ــ ومن بعده هيو الملقب كابيه فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦ ، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع • ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ ــ ٩٨٧) ابن لوثر ــ دون أن يترك ابنا يخلفه ــ بمثابة فصل الختام بالنســبة للبيت الكارولنجى ، فتم تتويج هيو كابيه ملكا على فرنسا (٩٨٧ ــ ٩٩٦) فى نفس العام الذى شهد وفاة لويس الخامس ، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كابيه فى حكم فرنسا •

ومن الواضح أن قيام أسرة كابيه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لا يعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى ، اذا لم يلبث آل كابيه أن ورثوا حقوق

---

(1) Painter; op. cit. p. 153.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 66.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74—75.
(4) Orton: op. cit. p. 180.

الكارولنجيين وامتيازاتهم من جهة ، كما أصبحوا السادة الأعلين لجميع الاقطاعيين في المملكة من جهة الأخرى(١) • ولكي ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر اليه من ثلاث زوايا مختلفة : اولها انه توج ملكا على دولة الفرنجة الغربية (فرنسا) ليرث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيهما أنه جاء ممثلا لكبار الاقطاعيين ، واخيرا أنه هو نفسه لا يعدو أن يكون أميرا اقطاعيا في اقطاعه أو في دوقيته(٢) • واذا كان من أسباب سقوط الملكية الكارولنجية هو أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعي وتسايره في وقت أصبح لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس اقطاعية ، فانه يمكن القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية في فرنسا بتزويدها بروح وقواعد اقطاعية مكنتها من مسايرة العصر والظروف(٣) •

وقد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه في الوصول الى حكم فرنسا يعتبر انتصارا للأمراء الاقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن اذا دققنا النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم في مركز لا يحسدون عليه من جراء منافسة كبار الأمراء الاقطاعيين وخطرهم(٤) • ذلك أن فرنسا كانت عند قيام أسرة كابيه في الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الاقطاعيات المتباينة التي ارتبط كل منها بأسرة معينة في ظل قوانين ونظم خاصة ، حتى أن ستة وخمسين من كبار الأمراء الاقطاعيين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم ، فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى في فرنسا • ولا أقل من استعراض أهم الامارات أو الأقسام التي انقسمت اليها فرنسا عندئذ ، حتى يمكننا متابعة تاريخها منذ القرن العاشر •

ففي الشمال كانت دوقية برجنديا التي حكمها فرع من أسرة كابية الحاكمة(٥) في حين تحولت فلاندرز — بين نهر الشلد وبحر الشمال — الى امارة قوية ،

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, p. 147.
(2) Painter: op. cit. p. 155.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.
(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 341.
(5) Tout: The Empire and the Papacy p. 88.

بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة ، وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى • أما فى الغرب فان بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب اهمالها وتأخرها وجدبها وكثرة الحروب فيها ، فضلا عن اغارات النورمان عليها(١) • وعلى حدود بريتانى - على بحر المانش - قامت امارة نورمنديا التى أصبح صاحبها - بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١ - فصلا للتاج الفرنسى • وسرعان ما عدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا الديانة المسيحية(٢) •

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة ، لأن الأجزاء الجنوبية امتازت بلغتها الخاصة البروفنسالية فضلا عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجرمانى • واذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض اقطاعية للملك ، فان أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كابيه سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم • وأهم هذه الامارات الجنوبية كانت دوقية اكوتين وعلى رأسها أمراء بواتييه منذ القرن العاشر • وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاى حتى الرون ، الأمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحد أن يحكمها(٣) • أما الاقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون Gascons يحكمهم أمير منهم حتى انضموا الى كوتين فى أواخر القرن الحادى عشر • وأخيرا وجدت امارتان على البحر المتوسط ، الأولى امارة تولوز محل سبتمانيا القديمة ، والثانية امارة برشلونة محل المارك الأسبانى الذى أقامه شارلمان على الحدود(٤) •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 128.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, pp. 41—44.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 128—130.
(4) Stephenson: op. cit. pp. 231—232.

آل كابيــه الأوائل :

وعلى الرغم من كثرة مادون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابيه ، الا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية • والظاهرة العامة التى تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ - ١١٠٨) هو أن الظــروف أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبراء الأمراء الاقطاعيين • وان كان الواقع هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دورا جديدا من تاريخها ، بمعنى أنه اذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فان آل كابيه الأوائل يمثلون عصر تقدم وبناء(١) •

وقد أكسب هيو كابيه - أول هــؤلاء الملوك (٩٨٧ - ٩٩٦) الأسرة الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ ، وان كان كل ما فعله هو أنه توج ابنه فى حياته ، وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه فى القرنين التاليين ، الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة الى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ - ١٠٣١) ، ثم حفيده هنرى الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨) ، دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص يسترعى انتباهنا •

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته الاسمية الواسعة • لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو انقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى اماراتهم الاقطاعية حول باريس ، وهى المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ile de France حيث وجد بعض صغار الأمراء الاقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع والحصون - وبخاصة فى عهد فيليب الأول - تحديا له(٢) •

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.
(2) Lavisse; op. cit, Tome 2, Deuxième Partie, p. 176.

واذا كان عهد فيليب الأول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه سلطة الملكية الى الحضيض ، الا أن هذا العهد يمثل أيضا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا(١) . ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بورج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه اقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت انجو عن طريق المساومة السياسية . ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم(٢) .

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا الى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة . ففى داخل جزيرة فرنسا — أوعلى مقربة منها — وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية . وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم وتدعيمها . ولكن على الرغم من هذه المساعدات فان آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الاقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا(٣) . حقيقة ان اسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الاقطاعيين فى النشاط الصليبى كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل، اذ أدى ذلك الى اتجاه هؤلاء الأمراء الى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض(٤) ، ولكن ذلك ليس معناه أن الفوضى الاقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها . وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الاقطاعيين بعضهم وبعض ، أو

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 110.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 161.
(3) Stephenson: Med. Hist. pp. 244—245.
(4) Orton: op. cit. p. 185.

بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض ، لا عن هجمات أجنبية قام بها مغيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل(١) •

لويس السادس :

ولكن اذا كان فيليب الأول قد ظهر عجزه عن مقاومة البارونات الاقطاعيين فان خليفته لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) كان مثلا طيبا للحاكم القوى(٢) والواقع أن بيت كابيه كان قد انحدر الى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما اعتلى لويس السادس العرش • وقد رأى لويس السادس أنه يتعين عليه اخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الاقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان فى بقية أنحاء فرنسا(٣) • وهكذا لم تكد تحل سنة ١١٢٠ الا كان الملك يستطيع أن ينتقل فى أنحاء أراضيه الاقطاعية دون حاجة الى حراسة أو جيوش ، كما أن أفصاله أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام • ولم يلبث أن أدى استقرار الأوضاع داخل جزيرة فرنسا الى نشاط الحياة الاقتصادية ، بعد أن أمن التجار على أنفسهم وأموالهم ، مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية(٤) •

ولكن اذا كان لويس السادس قد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الاقطاعية ، الا أنه ظل عاجزا أمام كبار الأمراء الاقطاعيين فى بقية أنحاء فرنسا • ذلك أن هؤلاء الأمراء الأقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزنا للملك أو يعترفوا له الا بتبعية اسمية ، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب اقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من ضرائب عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الاقطاعى(٥) • وهنا شاءت الظروف أن تمد

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 77.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 594—597.
(3) Idem, p. 596.
(4) Stephenson: Med. Hist.p. 398.
(5) Tout; The Empire and Papacy, p. 278.

ملك فرنسا بقوة تساعده فى فرض سيطرته على بقية الأمراء الاقطاعيين فى بلاده • ذلك أن وليم العاشر دوق اكوتين أوصى وهو على فراش المـــوت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته ووريثته اليانور من ابن لويس السادس ، الأمر هيأ لملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه• هذا فى الوقت الذى استغل لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنرى الأول ملك انجلترا له بوصفة دوق نورمنديا(١) •

والواقع أن أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر جاء من ناحية ملوك انجلترا ، الذين جمعوا بين العرش الانجليزى ودوقيه نورمنديا • ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحا خطيرا أثناء مهاجمته ضواحى باريس • ثم لجأ هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ — ١١٣٥) الى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا ، وضم الى هذا الحلف أفصاله فى بريتانى وأمراء جزيرة فرنسا الحانقين على ازدياد نفوذ الملكية وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على وفاق مع أمرائهم ، فضلا عن كونت بلوا Blois • وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس الا أنه ظل محتفظا بشاته ومركزه(٢) •

وثمة تطور هام يستحق الاشارة فى تلك الفترة ، هو نشاط الحـــركة القومونية فى شمال فرنسا • ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن لويس السادس أيد المدن وشجعها ، الى أنه لا يوجد دليل فى الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها • وربما كان الأقرب الى الصواب أنه منح كثيرا من المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها(٣) •

---

(1) Stephenson; Med. Hist. pp. 400—401.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 280.
(3) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 515.

وخلاصة القول ان دعائم بيت كابية تم تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧ ، الأمر الذى مكن خلفاءه من اقامة دولة قوية على هذه الدعائم (١) •

لويس السابع :

أما لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم اليه اكوتين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق • وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبنى الثائر (سنة ١١٤٧) ، وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى (٢) • ويقال ان لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة الى احراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين ، فاحترق فى هـذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال • ويبدو أن هـذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع - وهو الرجل التقى - حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه • وكان أن أسـهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأرواح والأموال دون ثمرة •

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسيةالتى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسـا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) Suger الذى كان مقدم دير سانت دنيس ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا من الانهيار ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا للملك (٣) • ولم يلبث أن تحقيق عدم الانسجام بين لويس السابع - الملك التقى الهادىء - وزوجته المرحة الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر • وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك انجلترا قد زوج ابنته من كونت انجو ، وأنجبت

---

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 163—164.
(2) . Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 607.
(3) Lavisse : op. cit Tome III, Première Partie, pp. 20-23.

هذه الزيجة هنرى الأنجوى • وصادف أن طلق لويس السابع زوجته اليانور صاحبة أكوتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ، ولأنها لم تنجب له ولدا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كابيه من جهة أخرى (١) ، فتزوجت اليانور من هنرى الأنجوى السابق الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنرى الثانى (٢) • وهكذا أصبحت ممتلكات ملك انجلترا فى صلب القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا وانجلترا أمرا لا مفر منه (٣) • وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى هى مدينة تولوز ، اذ منع الأول ملك انجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار الحرب بين الطرفين • وقد شاءت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى ، مما أثار الشعور العام ضد ملك انجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى وبواتو وجوين يساندون لويس السابع (٤) • هذا فى الوقت الذى اتبع لويس السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج • ففى الداخل لجأ الى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها المدن لتتخذها مسرحا لنشاطها ولتكون عونا له على كبار الأمراء الاقطاعيين (٥) • أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائما مدى ثلاثة أجيال • هذا فى الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك انجلترا عن طريق اثارة أبنائه ضده • وفعلا ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على أملاك التاج الانجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر الملكية الانجليزية (٦) •

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 250.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5 p. 609
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 268
(4) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 55
(5) Orton : op. cit. pp. 251—252.
(6) Adams : The History of England, p. 304

فيليب أوغسطس

ثم كان أن اعتلى عرش فرنسا فيلب أوغسطس « الثانى » (١١٨٠ – ١٢٢٣) الذى تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة . ولم يلبث أن استطاع فيلب أوغسطس التخلص من الأخطاء التى وقع فيها والده ، ومن ثم بدأ يستأنف سياسة جده فى التمكين للملكية الفرنسية وبسط نفوذها (١) . لذلك امتاز عهده بازدياد قوة الملكية فى الداخل والتوسع فى الخارج ، وهى نتائج التى توصل اليها بعد سلسلة من الاصلاحات الداخلية الواسعة التى منحته قوة جعلته خطرا على خصومه فى انجلترا ونورمنديا وفلاندرز وألمانيا وجنوب فرنسا(٢) . هذا الى أن فيلب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعا وأربعين سنة ، وهى مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا ، مما أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الاقطاعية قبل الأمراء الجدد . وأخيرا ينبغى أن نذكر ما كان لفيلب من أخلاق ساعدته على النجاح ، فقد عرف عنه قوة العزيمة والثبات والصبر ، زيادة على ما هو عليه من الذكاء وحسن التقدير ، مما مكنه من مواجهة الصعاب التى اعترضته والتغلب عليها واحدة بعد أخرى(٣) .

وقد بدأ فيلب أوغسطس عهده باسترضاء هنرى الثانى ملك انجلترا ، ليضمن عدم تدخله فى الحركة التى أزمع القيام بها لاخضاع أمراء فلاندرز وشامبنى وبرجنديا(٤) . وكان أن دخل فيلب فعلا فى حرب طويلة مع هؤلاء الأمراء (١١٨١ – ١١٨٥) حتى أخضعهم لسلطان الملك الذى أصبح يسيطر على المنطقة الغنية الممتدة من فرماندوا Vermandois حتى أرتوا Artois (٥) على أن فيلب أوغسطس كان يدرك تماما من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سيطرته على الاقطاعات الكبرى فى فرنسا ما دامت

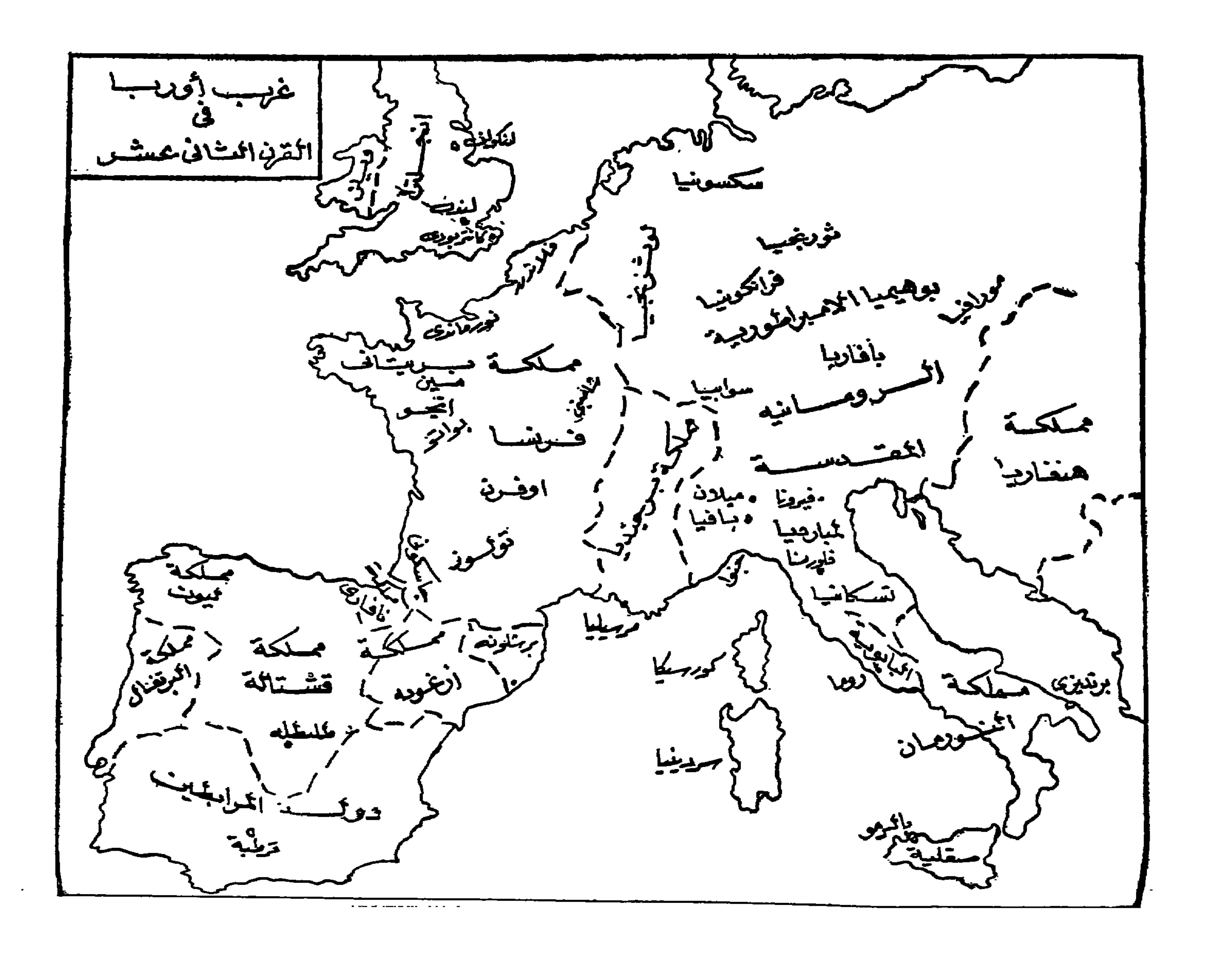
---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 424
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 284—285
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 520
(4) Adams : The Hist. of England, p. 338
(5) Lavisse : op. cit Tome 3. Première Partie, p. 87

ممتلكات التاج الانجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها(١) • لذلك لجأ فيلب الى كل وسيلة ممكنـــة ــ سياسية أو حربية ــلاضعاف قوة انجلترا فى القارة • من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا (١١٥٢ ــ ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومها من كبار الاقطاعيين ، وبخاصة الانجويين فى فرنسا والجلفيين فى ألمانيا (٢) • وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنشتاوفن فى جانب ، وملوك انجلترا والجلفيين فى الجانب الآخر المضاد، يلعب دورا عظيما فى السياسة الأوربية حتى موقعة بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ • على أن جهود فيلب الثانى ضد الملكية الانجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وانما ، استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريتشارد وجيوفرى وحنا ــ أبناء هنرى الثانى ملك انجلترا ، وأخذ يساعدهم ضد أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الانجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه (٣) •

وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم انجلترا (١١٨٩ ــ ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ • ولم تطل اقامة فيليب بالأراضى المقدسة اذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد الى بلاده سنة ١١٩١ • ومن الواضح أن الحجة التى احتج بها فيليب أوغسطس كانت شكلية واهية ، وأنه عاد بقصد الحصــول على نصيب زوجته فى اقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز (٤) • هذا الى أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجــوم على نورمنديا ، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبى يحارب فى الأراضى المقدسة ، فضلا عن أن هذه الأراضى تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته • وعندئذ أخـــذ

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291—302
(2) Adams : op. cit. p. 347
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 293
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 304


غرب أوربا في القرن الثاني عشر
سكسونيا
ثورنجيا
فرانكونيا
بوهيميا
مورافيا
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
بافاريا
سوابيا
مملكة هنغاريا
مملكة فرنسا
نورماندي
بريتاني
مين
انجو
بواتو
اوفرن
تولوز
ميلان
بافيا
فيرونا
لمباردية
فلورنسا
تسكانيا
روما
مرسيليا
كورسيكا
سردينيا
برنديزي
مملكة النورمان
باليرمو
صقلية
لنكولن
لندن
مملكة ليون
مملكة البرتغال
مملكة قشتالة
مملكة أرغونة
برشلونة
نافار
طليطلة
دولة المرابطين
قرطبة

فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد ويعده بمساعدته على تتويجه ملكا على انجلترا (١) • ويبدو أن أخبار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين ، ولكنه سلك الطريق البرى من ايطاليا الى بلاده ، فوقع في يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس امبراطور ألمانيا • وقد عرض فيلب أوغسطس مبلغا كبيرا على الامبراطور ليحتفظ بملك انجلترا أسيرا ، ولكن الامبراطور أفرج عنه سنة ١١٩٤(٢) • وهكذا استطاع ريتشارد العودة الى بلاده ليستعد للذهاب الى نورمنديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيليب أوغسطس •

وقد قضى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطىء فرنسا ولم يعد الى انجلترا حتى مقتله سنه ١١٩٩ • أما الأعمال التى قام بها فى نورمنديا فى تلك الفترة ، فانه بدأ بهجوم مباغت على فيليب أوغسطس قرب فريتفال Fréteval وعندئذ لم يستطع فيلب النجاة الا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمة (٣) • ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لها فيليب أوغسطس فى حياته ، مما جعله ينسحب من نورمنديا ومين وتورين ، ويطلب عقد الهدنة مع ملك انجلترا سنة ١١٩٤ • على أن الحرب لم تلبث أن تحولت الى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الامبراطورية (٤) •

ذلك أنه حدث عند وفاة الامبراطور هنرى السادس امبراطور ألمانيا سنة ١١٩٧ أن رشح كل من الجلفيين والجبللينيين فردا يتولى عرش الامبراطورية، فاختار الفريق الأول أوتو الرابع دوق برنسويك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك انجلترا ، فى حين اختار الفريق الثانى فيليب دوق سوابيا وهو الأخ الأصغر للامبراطور هنرى السادس خصم ريتشارد • وكان من

---

(1) Painter : A Hist. of the Midlde Ages, p. 252
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 112
(3) Adams : op. cit. p. 378
(4) Cam. Med. Hist, Vol, p. 305

الطبيعي أن تؤيد انجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفيين نظرا للظروف السابقة من جهة ولمصالحها التجارية في شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى (١) • وقد اتفقت مع انجلترا في موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne (٢) أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد ساند المرشح الآخر وهو فيليب دوق سوابيا ، ولهذا الغرض زحف الى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق (٣) • ثم أعقبت ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد في بناء حصن جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على نهر السين شمالى روان ، وذلك لحراسة عاصمة نورمنديا من أي اعتداء فرنسى • ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثار العداوة بين الطرفين من جديد ، فهجم فيليب أوغسطس على نورمنديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة (٤) • وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ في عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٥) • على أن ريتشارد لم يلبث أن لقى مصرعه في تلك السنة السابقة نفسها ، وبذلك تخلص فيلب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم •

وقد خلف ريتشارد في حكم انجلترا أخوه حنا (١١٩٩ — ١٢١٦) الذي كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما أخوه ، مما أتاح فرصة لفيلب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر في سياسة تفتيت أملاك التاج الانجليزى بالقارة • ولتحيق هذا الغرض أخذ فيليب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة وبتأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك انجلترا من جهة أخرى ، وذلك كما سبق أن ألب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألب حنا ضد أخيه ريتشارد • وقد تظاهر فيليب باعترافه بسلطة آرثر في نورمنديا وبريتانى ، وخذ يحشد قلاع هذين الاقليمين بالجند الفرنسيين

---

(1) Barraclough : The Origins of Modern Germany, pp. 210—213.

(٢) على بحر المانش جنوبي كاليه •

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 522

(4) Tout : The Empire and The Papacy, pp. 394—395

(5) Adams : op. cit. p. 385

تحت ستار مساعدته ضد عمه (١) • وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا الى دفعه ، وهو التخلى عن افرى Evreux لفرنسا ، وعن المحالفات التى عقدها ريتشارد فى ألمانيا وفلاندرز ، فضلا عن دفع مبلغ كبير من المال • وفى الوقت الذى كان حنا ملك انجلترا مفتقرا الى المال وولاء الرجال ، كان فيليب متمتعا بكل ما يعوز خصمه ، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد أخرى عن طريق رشوة حامياتها ، فان لم تنفع الرشوة لجأ الى القوة والقتال • وهكذا لم تكد تنته سنة ١٢٠٥ الا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا وانجو ومين وتورين ، فى حين دان له بالطاعة معظم أمراء بواتو ، بذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة (٢) •

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر فى تاريخ الملكيات الغربية • فعلى الرغم من خسارة انجلترا الفادحة بضياع نورمنديا الا أنها استفادت بعد أن أصبحت مماكة جزرية قائمة بذاتها ، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان فى القارة • أما الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم واقطاعاتهم فى أحد جانبى المانش، ليكونوا أفصالا اما لملك انجلترا أو للملك فرنسا ، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين • وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الانجلزية (٣) • أما من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق فى قوته أى أمير اقطاعى آخر فى البلاد ، اذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى ونورمنديا وأنجو وبواتو وأوفرن ، فضلا عن جزيرة فرنسا • بل ان ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة • وذلك بعد أن تضاعفت أملاكه وموارده فى الرجال والأموال (٤) •

---

(1) Lasvisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 260e
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 253
(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 472—473
(4) Orton: op. cit. p. 253

وقد حرص فيليب فى السنوات العشر التالية على تدعيم سلطانه فى هذه الممتلكات الجديدة التى اغتصبها من التاج الانجليزى ، والاستعداد فيهـا لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب انجلترا . ولم تلبث أن لاحت الأخطار التى توقعها فيليب أوغسطس ، عندما عاد حنا ملك انجلترا الى بلاده ، ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيه المفقودة فى فرنسا ، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحانقين عليه مثل كونت فلاندرز ، فضلا عن زعيم الولفيين أوتو الرابع امبراطور ألمانيا . وأخيرا تم الاتفاق على أن يقـوم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال فى حين يهاجم حنا ملك انجلترا أنجو من الجزء الذى تبقى له فى اكوتين (١) . وهكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس ، ولا سيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قوة ضخمة فى فلاندرز تبلغ ثمانين ألف مقاتل فى حين أخذ حنا يستميل أمراء أكوتين. أما فيليب أوغسطس فلم يكن أمامه سوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ فى شمال فرنسا من جهة ، وعلى ما عساه أن يقـوم به الهوهنشتاوفن — أعداء أوتو فى ألمانيا — من جهة أخرى . وكان أن تغلب فيليب أوغسطس على أوتو الرابع وبقية الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق فى موقعة بوفان Bouvines (يولية سنة ١٢١٤) ، فى الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنا ملك انجلترا على اللوار (٣) . وهكذا جاء هذا الانتصار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب انجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة فى نورمنديا ومين وانجو . أما بواتو Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين (٣) .

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا — الحملة الألبيجنسية :

وبينما فيليب أغسطس يعمل على نشر نفوذه فى الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة ، اذ بحملة صليبية تتجمع فى شمال فرنسا لتغزو جنوبها ،

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3; Première Partie pp. 166 — 173.

(2) Adams : op. cit. p. 431

(3) Tout · The Empire and the Papacy, pp. 395—396.

وتبعا لذلك تمد نفوذ أسرة كابيه على الجنوب أيضا • ذلك أنه وجدت فى جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى ، هى دوقية اكوتين وكونتيه تولوز وكونتيه بروفانس • وكانت الاثنتان الاولتان ضمن نطاق الملكية الفرنسية ، فى حين ظلت كونتيه بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا •

وهكذا استمر جنوب فرنسا فى شبه عزلة عن شمالها ، وهى عزلة زاد من وقعها الاختلاف الحضارى بين الجنوب والشمال ، اذ بقى الجنوب محتفظا بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوربا ، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهذا الاقليم سوى سيطرة العرب على مصب الرون بين سنتى ٨٨٨ ، ٩٧٢ • على أن تخلص جنوب فرنسا من سيطرة المسلمين ساعد هذا الاقليم الغنى بثروته الطبيعية ونشاطه التجارى ومناخه المعتدل على تشييد بناء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة • ويكفى أن جنوب فرنسا شهد مولد الأدب البروفنسالى الذى تجلى بوضوح فى شعر التروبادور فضلا عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفكر (١) •

وقد أدت هذه الحرية وذلك التسامح من جهة ، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى تردت فيها الكنيسة ورجالها من جهة أخرى ، الى انتشار بعض المذاهب الهرطقية فى جنوب فرنسا • ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للكنيسة ورجالها ، فى حين كان الأمراء أنفسهم من الهراطقة أو من مشجعى الهرطقة (٢) • وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقية الخارجة عن تعاليم العقيدة الكاثوليكية وأصولها ، أولها مذهب الوالدنسيين (Waldensian) وثانيهما مذهب الكاثاريين Catharist • أما المذهب الأول فينسب الى بطرس والدو (Peter Waldo) وهو أحد تجار لبون فى القرن الثانى عشر ، وهب

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 528.
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 397.

جميع ثروته لأوجه البر والاحسان وأخذ ـ حوالى سنة ١١٧٧ ـ يتجول ، واعظا الناس بالعودة الى سنن القديسين والرسل الأوائل ، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها(١). ولم يلبث أن التفت حوله عدد كبير من الفقراء وبخاصة فى جنوب فرنسا واقليم بروفانس حيث أخذ الولدانسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الانجيل تفسيرات غير صحيحة ، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والارشاد الا باذن من الكنيسة(٢) . وعندما لجأ بطرس والدو الى البابا ليشكو اليه موقف الكنيسة منه ، رأى البابا حسن نيته ، فأقر الوالدنسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة ، ولكنه حرم عليهم الوعظ الا باذن من الأساقفة التابعين لهم . على أن بطرس والدو وأتباعه استكشفوا فى العهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية(٣) ، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩ ، وقالوا أنهم لا يمتثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده . وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الوالدنسيين ١١٨١ - ١١٨٤ وطردوا من منطقة ليون ، فتحولوا الى فرقة هرطقية ، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة(٤) . وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧ ، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا واللورين وجنوب فرنسا وأرغونة وشمال ايطاليا . ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا الى فرق هرطقية عديدة ، مما أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها .

أما أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاتاريين Cathari أى الأطهار ، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين .

---

(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 707.

(٣) « وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات » (سفر أعمال الرسل - الاصحاح العاشر - ٤٢) .

(4) Stephenson : Med Hist. p. 445.

وبينما اختلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية ، اذا بالكاثاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضا كبيرا مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت(١) . ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس التوحيد ، وانما كان مذهبا ثنائيا يقول بوجود الهين أحدهما للخير والآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى(٢) . وبعبارة أخرى فان هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة ، فهناك روح ومادة وهنـــاك نور وظـــلام ، وخير وشر ...(٣) . كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ؛ وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الآراء الهدامة . ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوربا الى غربها - عن طريق التجار، حتى صلت فى القرن الحادى عشر الى لمبارديا وشرقى فرنسا ووسطها وحوض الراين وفلاندرز ، مما هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا(٤) . ومن الواضح أن آراء الكاثاريين انتشرت فى الجهات التى تنكر فيهـــا رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم . وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيســـة وصغارهم ، الأمر الذى دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة الى الانضـــمام الى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة(٥) . ويبدو أنهم بلغوا درجـــة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi فى كونتيه تولوز - مما جعلهم ينسبون اليها ويعرفون باسم الألبيجنسيين Albigensians

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث اقناع الهراطقة فى أول الأمر بالعودة الى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة ، فأرسل بعض الوعاظ - وعلى رأسهم مقدم ديرسيتو ، ومندوب من قبل البابا نفسه - الى الجهات الجنوبية من فرنسا . ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ، ولم يلقوا

---

(1) Eyre ; op. cit. p. 355
(2) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 701—702
(4) Ibid.
(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 306

تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم ، حتى من جانب الأمراء ، وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز ، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة (١) . وأخيرا يئس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيرا ، فبدأ يفكر فى الالتجاء الى القوة للقضاء على هؤلاء الهراطقة . على أن ريموند السادس رفض أن يمد يد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها ، فلجأ البابا الى فيليب أوغسطس ، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهراطقة ، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك انجلترا فلم يلب نداء البابوية الذى تكرر سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ . ويبدو أن فيليب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا ، وادعاء البابا حق اخضاع بعض المقاطعات الفرنسية ، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة ، فضلا عن أنه وجد نفسه لا يستطيع مهاجمة بعض أفصاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم ، مما يعتبر خروجا على أوضاع العرف الاقطاعى (٢) . وأخيرا لجأ المندوب البابوى الى اصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس ١٢٠٧ ، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز . وعلى الرغم من عدم وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوى ، الا أن البابا اعتبره مسئولا عن هذه الجريمة ، فأقرت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس ، كما أعلنت أنه من حق أى مسيحى أن يستولى على أراضى وأموال هؤلاء الهراطقة الخارجين عن أصول الدين (٣) .

وقد تحمس كثير من مراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا ، وان ظل فيليب أوغسطس نفسه على موقفه . وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى دعت لها البابوية ضد الهراطقة (سنة ١٢٠٩) ، وان كانت قد تحولت الى القضاء على

---

(1) Idem : pp. 310—311
(2) Cam. Med.é Hist. Vol. 6 p. 314
(3) Stephenson : op. cit. pp. 446—447

الأمراء الاقطاعيين فى الجنوب وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز الذى حلت به الهزيمة فى سبتمبر سنة ١٢١٣ . ولم تستول هـــذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل أنزلت الهزيمة أيضا بملك أرغونة بطـــرس الثانى (١١٩٦ – ١٢١٣) فى موريه Moret سنة ١٢١٣ . وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابويا سنة ١٢١٥ قرر اعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الامارات الاقطاعية المجـــاورة ، لســـيمون دى مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذى تولى زعامة هذه الحملة .

أما فيلب أوغسطس الذى ظل بعيدا – فى أول الأمر – عن حوادث تلك الحرب الصليبية ، فانه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وقرار المجمع البابوى . ولم يلبث فيليب أن خرج عن عزلته تدريجيا ، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة فى حرب الهراقطة الجنوبيين ، كما ساعد سيمون دى مونتفورت فى تدمير الحصون والمعاقل الاقطاعية فى الجنوب(١) . وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيلب أوغسطس بالتبعية ، الا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف . لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التى قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه ، مما أدى الى مقتل سيمون سنة ١٢١٨ ، ثم لم يلبث أن لحق به فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣ .

اصلاحات فيلب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيلب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ ، لأن اصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات . وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفا مع أفصاله وأتباعه الاقطاعيين ، لأن مشاغله فى الحـــروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأفصال ، ومع ذلك فانه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمراء الاقطاعيين . أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيلب أوغسطس مع البابويه لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة فى بلاده ، فأخذ يعمل جاهدا للحد

(1) Lavisse: op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 277

من تدخل البابا فى شئون الكنيسة ، كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات(١) .

أما فى الناحية الادارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيلب أوغسطس كان محاربا وسياسيا أكثر منه اداريا ومشرعا . وهكذا أصبح دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم . ومع ذلك فان الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الادارى لفرنسا، وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع(٢) . ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى الى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية ، لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين . وقد أوجد فيلب أوغسطس طبقتين من الموظفين الاداريين ، تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين (biallis) ومهمتهم الاشراف على العدالة وجمع الايرادات الملكية . وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى لضمان اخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقة الى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها(٣) . أما الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد اليهم الاشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب الأعداء ، ومن ثم اختير هؤلاء المديرون من الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال . وفيما عدا مهامهم الحربية ، قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عدد كبير من الموظفين والمندوبين(٤) . وقد ساعد فيلب أوغسطس فى الناحية الادارية وزيره والتر الاسبتارى Walter the Hospitaler الذى امتد نشاطه الى جميع فرع الادارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء . والى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين ، وجدت مجموعة من المستشارين — العلمانيين والدينيين — روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى . وكان الملك يضيف الى هؤلاء مجموعة

---

(1) Idem : pp. 211—218
(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 404
(3) Lavisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 235
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 254

أخرى من النبلاء والأساقفة فى حالة الضرورة(١) • وعند دعوة هذا المجلس ، روعى فى الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه • ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه ، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض للمسائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى • وبعبارة أخرى فانه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها ، لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية • على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معانى الكلمة ، لأن طبيعة النظام الاقطاعى وما ارتبط بـه هذا النظام من حوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة(٢) •

أما المدن فكان فيلب أوغسطس أعظم نصير لها ، فحالف أهلها وأظهر عطفا كبيرا على آمالهم ، حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته • ولم يكتف فيلب أوغسطس باعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وانما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها • كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من انتاجها(٣) • أما باريس فقد أضحت على أيام فيلب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوربا • ذلك أنه شيد لها سورا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكى والمدارس والكتدرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها(٤) • وفى عهد فيلب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها ، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة • وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالى الألب فى العصور الوسطى ، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة ، فضلا عن كونها

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 326
(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 526
(3) Lavisse : op. cit. Tome 3. Première partie, pp. 222—232
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 327—330

ضمت بعض المبانى القوطية الجميلة التى أخذت تنتشر فى بقية أنحاء فرنسا عندئذ(١) •

وخلاصه القول أن فيلب أوغسطس استطاع - عن طريق القوة والسياسة أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير اقطاعى آخر فى فرنسا • ويكفى أنه أول ملك من أسرة كابيه شعر بأن قوته وسطوته بلغتا درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة الى تتويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده(٢) •

لويس الثامن :

وقد خلف فيلب أوغسطس ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) الذى لم يكن على شىء من المقدرة التى امتاز بها أبوه ، وان ظل حريصا على سياسة والده الخاصة بتكتيل فرنسا وبسط نفوذ الملكيـــــة على مختلف أنحائها • ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكوتين وان بقيت بوردو خارج قبضته ، كما أظهر رغبة صادقة فى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا • وفى تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الألبيجنسية - سيمون دى مونتفورت - قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عمورى للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التى حصل عليها سيمون من البابوية ، مما دفع لويس الثامن الى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراقطة وان كان هدفهـــا الحقيقى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا • وقد نجح لويس الثامن فعلا فى تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦(٣) •

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) :

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا فى الثانية عشر من عمره عند وفاة أبيه الا أن ذلك لم يعق تقدم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه بلانش

(1) Tout: The Empire and the Papacy. p. 403
(2) Idem : Ps. 402—405
(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6 pp 322—324

القشتالية (Blanche of Castile) • ولم يلبث أن فاق لويس التاسع أمه في الصلاح والتقوى حتى سمى القديس لويس(١) •

على أن الأمراء والبارونات الاقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك ووصاية أمه للحد من نفوذ الملكية المتزايد • ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمه ، ولعل أهمها تلك المؤامرة التى حيكت سنة ١٢٢٩ التى تزعمها دوق برجنديا وكونتات بريتانى وشامبنى ولامارش ، يؤيدهم هنرى الثالث ملك انجلترا • ولكنها باءت بالفشل بفضل حزم بلانش — الملكة الوالدة — من جهة ، ومساعدة البابوية — الحليفة الطبيعية لأعداء الهرقطة الألبيجنسيه — من جهة أخرى(٢) • وهكذا استمرت الأوضاع حتى انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ •

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى تلقاها أسلافه ؛ فدفعته حماسته الدينية الى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة ؛ على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه •. وقد قضى لويس التاسع عدة سنوات في الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر ، بعد أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبيين عندئذ أن مصر هى المفتاح الموصل للسيطرة على بيت المقدس(٣) • وبعد أن استولى لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٩ ، تقدم نحو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة نتيجة لجهل الصليبيين بأحوال البلاد وطبيعتها فى حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفع فدية ضخمة •

واذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حى الضمير ، فان ذلك دفعه الى التسليم بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه • وفى ضوء هذا الاعتبار اختار لويس

---

(1) Idem, p: 331
(2) Orton : op. cit. p. 332
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 357

التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك انجلترا بدلا من محاولة طرد الانجليز من جاسكونى(١) •

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤد فقط الى اقرار صلح باريس بين فرنسا وانجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين ، بل دفعت هنرى الثالث أيضا الى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنديا وأنجو ، ومين وتورين وبواتو ، وان أصر على الاحتفاظ بملكية جوين وجاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجورد ، على أن تؤدى جميعها فروض التبعية لملك فرنسا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثورة ضده(٢) • وهكذا يمكن القول بأنه - بصرف النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية - فان سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة ، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسه مكاسب خاصة ، ورفض أن يقحم نفسه فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فلم يستجب الى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا انوسنت الرابع(٣) ، وهذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استغلال سوء أحوال انجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسا(٤) • واذا كان لويس التاسع قد استطاع أن يجعل من فرنسا فى أواخر عهده أقوى دولة فى أوربا ، فاننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى ساعدت على ابراز هذه الحقيقة ، وأهمها حرج مركز الامبراطورية الألمانية من جهة وسوء أحوال الملكية الانجليزية من جهة أخرى(٥) •

أما فى الداخل ، فان لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أفصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين ، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة • وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتعبوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قد ماتوا ، وخلفهم خلف ضعيف من

---

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 257
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 358
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 420—421
(4) Stephenson : Med. Hist. p. 476
(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 241

الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسببوا متاعب كثيرة للملكية(١). لذلك لاعجب اذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز باصلاحات متعددة فى النواحى الادارية والقضائية والمالية ، وان كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة . وكان محور السلطة المركزية فى ذلك العصر — سواء فى فرنسا أم انجلترا — هو المجلس الاقطاعى للملك Curia Regis الذى تألف فى جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين ، ينضم اليهم أفصال الملك فى حالة الشروع فى اعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة (١) . وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس فى القرن الثالث عشر أخذ ينقسم الى عدة لجان لكل منها مهمته، مثل الهيئة التى اختصت بالايراداب الملكية Chambre des Comptes والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية فى باريس Parlement وغيرهما. أما ممتلكات الخاصة الملكية والأراضى الاقطاعية الخاصة بالملك ، فقد عهد بالاشراف عليها الى وكلاء ملكيين Bailis ولكى يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومى ، دأب على ارسال مندوبين ملكيين (Enquêteurs) لسماع شكاوى الأهالى والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على الحكام المحليين ، مما جعلهم شديدى الشبه بالمبعوثين Missi على أيام شارلمان (٣) . وقد تمسك لويس التاسع بحقه فى أن تستأنف أمامه كافة القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الاقطاعيين ، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم . أما فى الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول فى جميع أنحاء فرنسا ، فى حين لا تسرى العملات الخاصة التى أصدرها كبار الأمراء الاقطاعيين الا فى اقطاعاتهم وحدها ، الأمر الذى ضمن البقاء والفوز النهائى للعملة الملكية (٤) . كذلك اهتم لويس التاسع برعاية

---

(1) Orton : op. cit. pp. 333—334
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p, 335
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 424
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 336—338 & 351

التجارة وحماية القومونات ونشر الأمن والسلام ، مما مكن التجار من البيع والشراء فى يسر وطمأنينة ، هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع فى الجنوب (١) •

أما سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء الموظفين الملكيين ، واعطائها كل مالها ، وفى الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة ، فلم يسمح لها بالتدخل فى الشئون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام (٢) • وقد حظى رهبان منظمتى الفرانسسكان والدومينكان بمكانة خاصة عند لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة ، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين (٣) •

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الادارة واقرار العدالة والمساواة فى جمع الضرائب ، مما جعل لفترة الأخيرة من حكمه — بعد عودته من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٤ — تمتاز بالسلام الشامل • ولم يحدث فى تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلى ، وانما أخذ الملك ينتقل من اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى فى ظل ادارته الصالحة ، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين • لذلك لا عجب اذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضارى الكبير فى ميادين العلوم والفنون ، فأخذت جامعة باريس الناشئة تخطو بالدراسات المتنوعة الى الأمام ، فى حين بلغ الفن القوطى عصره الذهبى ، كما يبدو فى كتدرائيات ذلك العصر وعلى رأسها كتدرائيات أميان وبورج وبوفيه (٤) •

على أن افراط لويس التاسع فى التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه ، اذ دفعه ذلك الى التطرف فى اضطهاد اليهود والهراطقة ، والى

---

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 76
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 350
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 422—423
(4) Thompson : op. cit. Vol. I, pp. 539—540

السماح باتخاذ أعنف الاجراءات ضد الألبيجنسيين فى الجنوب ، مما أثر فى الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية (١) • وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بثمرة سوى الخسارة الفادحة فى الأرواح والأموال (٢) ، فان لويس التاسع سرعان ما نسى الدرس القاسى الذى أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر فى أواخر أيامه فى القيام بحملة صليبية جديدة • وكانت وجهة هذه الحملة تونس فى شمال افريقية ، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ فى وقت من أسوأ فصـــول السنة • ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ فى سن تمكنه حتى من ركوب فرسه ، الأمر الذى عجل بوفاته فى السنة السابقة نفسها ، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية فى مسلسلة ملوكها العظام (٣) •

فيلب الثالث :

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجرىء أو الثالث (١٢٧٠ – ١٢٨٥) الذى يعتبر عهده عديم الأهمية ، اللهم الا من ناحية أنه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الاقطاعية التى ميزت عهد سلفه لويس التاسع ، والملكية القومية التى ميزت عهد خلفه فيليب الرابع • وهنا نشير الى أن القومية بمعناها الحديث الذى نعرفه ، لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى (٤) ، وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الاقطاعى ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة ، كل ذلك جعل ملوك أوربا فى أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة امبراطورية عليا ، وهى الفكرة التى طالما هيمنت على العصور الوسطى • وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون فى بلادهم اتجاها محليا ، لا عالميا •

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 347
(2) Orton : op. cit. p. 337
(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 46
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 306

وعلى الرغم من عدم كفاية فيلب الثالث ، الا أن الملكية الفرنسية استمرت في تقدمها بفضل الطاقة التى زودها بها ملوك فرنسا السابقين ، مما جعل عهد فيلب الثالث لا يبدو مظلما على طول الخط . ولعل أبرز ما فى هذا العهد أن الملكية الفرنسية نجحت فى ضم ثلاثة أقاليم مهمة ظل اثنان منها فى حوزة التاج الفرنسى . ذلك أنه كان من جملة الذين هلكوا فى حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثا ، فاستولى التاج الفرنسى على أملاكهما الواسعة فى تولوزوبواتو Boitou وأوفرن Auvergne وبروفاس (١) . ثم حدث سنة ١٢٧٤ أن توفى هنرى ملك نافارى وكونت شامبنى وبرى Brie تاركا طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها ، أخذتها أمها الى البلاط الفرنسى طالبة حماية فيلب الثالث . وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبنى وبرى وضمهما الى التاج الفرنسى ، فى الوقت الذى وافق البابا على زواج أرملة هنرى من فيلب ابن ملك فرنسا الذى اعتلى العرش تحت اسم فيلب الرابع (٢) .

فيلب الرابع :

أما فيلب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ — ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية . وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا(٣) . لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبلاده هى الراين والألب والبرانس ، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضم الجهات التى ظلت خارج نفوذه . وقد رأينا أن التاج الفرنسى ضم شامبنى عن طريق زواج فيلب الرابع من صاحبتها . ولما كانت بريتانى فى شبه عزلة ، فان فيلب أخذ يتطلع الى جوين وجاسكونى ، اللتين كانتا لا تزالان مملوكتين لملك انجلترا ، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنسا . ثم كان أن تصادمت المصالح الانجليزية والفرنسية أيضا فى اقليم

(1) Lavisse : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 111
(2) Lodge : The Close of the Middle Ages. pp. 47—48
(3) Orton : op. cit. pp. 358—359

فلاندرز ، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية فى غرب أوربا(١) .
فانجلترا التى لم يكن قد تم تصنيعها بعد ، اعتادت أن تصدر الصوف الخام
من يوركشير الى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه ، فى حين تجبى الملكية
الانجليزية ايرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر الى
فلاندرز (٢) • وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن
ذلك الاقليم حرة من الناحية العملية ، ويميل أهلها الى انجلترا بحكم ارتباطهم
بها اقتصاديا • هذا كله فضلا عما كان هنـــاك من تنافس بين الانجليز
والفرنسيين حول مصائد الأسماك فى بحر الشـــمال مما أثار كثيرا من
الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والانجليز فى بحر الشمال وحرك شكوك
الملكية فى كل من البلدين (٣) •

وأخيرا حدث سنة ١٢٩٣ أن أعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين
النورمان ، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية ، مما جعل
فيلب الرابع ملك فرنسا ينتهز فرصة المتاعب الداخلية التى تعرض لها ادوارد
الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ – ١٣٠٧) ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه
بشأن اخلاله بتعهداته الاقطاعية (٤) • على أن ادوارد كان مشغولا عندئذ
بحرب الاسكتلنديين ، فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب ، وأرسل أخاه
ادموند بدله ، كما سلم لفيلب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين
ضمانا لحضوره (٥) • ويبدو أن ادوارد لم يستطع الحضور الى باريس فى
الوقت المحدد ، مما أساء الى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيليب الرابع الى التمسك
بالقلاع التى أخذها ، فى حين رد عليه ادوارد باعلان تحلله من ولائه لملك
فرنسا ، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده • أما فيلب
الرابع فرد على ذلك بالتحالف مع سكتلند ضد ملك انجلترا ، ثم احتل جوين

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 320.
(2) Perroy: La Guerre de Cent Ans, pp. 16—18.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 296.
(4) Lodge: op. cit. p. 51.
(5) Perroy: op. cit. p. 45.

وهاجم كونت فلاندرز حليف ادوارد سنة ١٢٩٧ ، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن ، فتخلى ملك انجلترا عن مساعدة كونت فلاندرز وتخلى ملك فرنسا عن مســـاعدة سكتلند . ولم يلبث أن ثار أهالى فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسى فذبحوا كثيرا من الفرنسيين ، كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٢ عند كورتراى Courtrai وأخيرا اضطر فيليب الرابع الى عقد صلح نهائى مع ادوارد الأول سنة ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز الى حكم بلاده وأن تسترد انجلترا جاسكونى وجوين (١) .

ولكن يبدو أن أطماع فيلب الرابع فى فلاندرز كانت لا يمكن أن تنتهى بهذه السرعة ، فلم يلبث بعد أن اطمأن الى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد الى محاولة اخضاع الفلمنكين ، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم ،ولكنه لم يحرز نصرا حاسما . وسرعان ما استطاع أهالى فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥ .

أما عن العلاقة بين فيلب الرابع والبابوية فكان محورها الأســاسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره ، حتى لقب بأنه آخـــر بوبوات العصور الوسطى العظام(٢) . كان هذا البــابا (١٢٩٤ — ١٣٠٣) قد شب فى أيام سطوة البابوية وقوتها ، ومن ثم لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديد التى أخذت تلم بالعالم الأوربى ، وأنشأ يباشر سلطاته البابوية على أوسع مدى ، مما جره الى التدخل فى شئون النبلاء والملوك المعاصرين (٣) . وعندما أشرك فيلب الرابع — ملك فرنسا — رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد انجلترا سنة ١٢٩٤ ، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا الى البابوية . والواقع أن أهم مشكلة واجهت الملكيات

(1) Lavisse: op cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 300.
(2) Lodge: op. cit. p. 28.
(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44 -45.

الأوربية عند نهاية القرن الثالث عشر كانت الحاجة الى المال لمواجهة نفقة الدولة المتزايدة من جهة ونفقات الادارة وكثرة الموظفين من جهة أخرى • وفى حالة فرنسا بالذات جاء عامل جديد هو حرب فلاندرز الطويلة التى تطلبت من فيلب الرابع الالتجاء الى طرق جديدة ـ لا تخلو من عنف ـ فى جمع الأموال ، حتى من الكنيسة(١) •

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا سنة ١٢٩٦ ببطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون اذن البابوية ، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار (١) • وقد استاء ملكا فرنسا وانجلترا من هذا القرار الذى يعتبر محاولة من البابوية للعودة الى أوضاع القرن الثانى عشر • وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك انجلترا صورة نزاع مع رئيس أساقفة كانتربورى ، فى حين أدى استياء فيلب الرابع الى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه (٣) • ذلك أن فيلب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا ، وبذلك حال دون وصول المندوبين البابويين ، كما حرم تصدير الذهب والفضة والنقود خارج فرنسا مما أدى الى قطع الموارد المالية التى تصل الى البابوية من فرنسا (٤) •

وكان من الطبيعى أن يحتج بونيفيس الثامن على اجراءات فيلب الرابع فدعا الى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضد الملكية الفرنسية (٥)• ولكن فيلب الرابع حال دون خروج أى واحد من رجال الدين الفرنسيين الى روما ، كما دعا مجلس الطبقات States General لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (أبريل سنة ١٣٠٢) • وقد أقر النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج ، فى حين كتب رجال الدين الى البابا بونيفيس الثانى

---

(1) Orton: op. cit. pp. 360—361.
(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, p. 45.
(3) Tout: The Hist. of England. pp. 200- -201.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième/Partie, p. 132.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

ينصحونه بعدم عقد المجمع الذى نادى به(١) • ولكن المجمع البابوى لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢ ، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الاجراءات المشددة التى اتخذها فيلب الرابع ، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم• وقد أقر ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذى أثار فيلب الرابع وجعله يوجه الى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعا الى عقد مجمع لمحاكمته (٢) • ثم حدث فى الوقت الذى كان بونيفيس يتأهب لاصدار قرار الحرمان ضد فيلب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا واهانته ، بحيث لم يستطع البابا الخلاص الا بصعوبة ، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣ • وبوفاة بونيفيس الثامن أنطوت آخر صفحة فى تاريخ البـــابوية بمعناها العظيم الذى عرفته العصور الوسطى ، لأنه على الرغم من اتهـــامه بالمحسوبية والمحاباة وعلى الرغم من أن دانتى جعله من أهل الجحيم ، الا أنه كان مشرعا عظيما واداريا كبيرا ، بحيث أن فشله لا يرجع الى نقص فى مواهبه بقدر ما يرجع الى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوربى فى أواخر العصور الوسطى (٣) • وقد جاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذى كان رجلا معتـــدلا فسحب القرارات التى سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا (٤) • ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) فسمح لفيلب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس سنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية • وفى سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس افينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوى ، وبذلك بدأت فترة الأسر البابلى التى سنتكلم عنها فيما بعد •

ويتضح مما سبق أن فيلب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر فى نشاطه الخارجى ، اذ انتهت محاولاته فى ضم اكوتين وفلاندرز بالفشل ،

---

(1) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 149—150.

(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 49 — 50.

(3) Eyre; op. cit. pp. 465—466.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

ولم ينجح الا فى ضم ليون سنة ١٣١٢ • واذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فان هذا الانتصار تم عن طريق وسائل غير مشرفة ، هذا فضلا عن أن اقامة البابوية فى أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا • وهكذا يبدو أنه اذا كانت ثمة أهمية لعهد فيلب الرابع فى التاريخ ، فان هذه الأهمية تنبع من ادارته الداخلية وجهوده فى تحسين هذه الادارة والتخلص من جميع العقبات التى حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة (١) • وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسى بين الدولتين الانجليزية والفرنسية فى هذه الحقبة هو أن الأولى دانت كلها لملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظما حربية وقضائية ومالية موحدة ، فى حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى ، اذ لم يكن لملوكها فى أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ، ومن ثم أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء فى الجهات المجاورة • ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ (٢) •

ويبدو أن فيلب الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة الى المال اللازم لمواصلة حروبه الى اتخاذ بعض الاجراءات التعسفية • ومن ذلك أنه طرد جميع رجال المال والصيارفة اللمبارديين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم • أما اليهود فقد قام فيلب الرابع فى أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أرباحهم • وكان اليهود فى تلك الحقبة من العصور الوسطى يمثلون طبقة رجال المال فى أوربا والشرق • حقيقة انهم انتشروا فى بلاد واسعة متعددة ، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هى الدين والدم والمال • وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية واقراض الهيئات الكنسية لاتمام منشآتها الضخمة ، أو اقراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية ، وذلك بفوائد مالية باهظة ، منتهزين فرصة تحريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا (٣) • وأخيرا استغل فيلب الرابع الكره

---

(1) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 49—50.
(2) Stephenson: Med. Hist. p. 495.
(3) Orton: op. cit. pp. 631—632.

الاجماعى لليهود وصادر أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦ (١) • ولكن فيلب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجارة الفرنسية ، مما جعله يسمح لبعضهم بالعودة ، وان كان قد عاد الى طردهم ثم ارجاعهم أكثر من مرة (٢) • ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيها اليهود من فيلب الرابع لم تكن أمرا شاذا فريدا من نوعه • ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصـــادية دفعت ادوارد الأول ملك انجلترا الى طردهم أيضا من بلاده ومصادرة أملاكهم سنة ١٢٩٠ (٣) ، كما لجأ أمراء ألمانيا وملوك أسبانيا والسلطات الحاكمة فى المدن الايطالية الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود (٤) •

ولم ينج الداوية ــ وهم أفراد احدى المنظمات التى أسهمت بنصيب واضح فى الحروب الصليبية ــ من أطماع فيلب الرابع • وكانت منظمة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ١٢٩١ ، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفى ومالى واسع در عليها ثروة طائلة • والواقع أنها أضحت أشبه شىء بتنظيم سرى يحوطه الغموض ، ويعيش أفرادها فى رفاهية ونعيم بعد أن انصرف معظمهم الى المصالح الدنيوية(٥) • وقد اقترح بعض البابوات ضم هذه المنظمة الى هيئة أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الاسبتارية التى ظل أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والاحسان (٦) • ولكن فرسان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهما فى بعض ، بعد أن ألفوا حياة الدعة والراحة حتى أتخمتهم الثروة واتصفوا بالكبرياء والغطرسة • ثم كان أقدم البابا كلمنت الخـــامس

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74—75.
(2) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 222—226.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.
(4) Tout: The Hist. of England, pp. 175—176.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316—317.
(6) Stephenson : Med. Hist. pp. 501—502.

على التحقيق فى مسلك الداوية لمحاكمتهم ، وعندئذ انتهز فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرسانهم فى باريس ، ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها . وفى سنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دى مولاى Jacques De Molai (١) ، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا فى البلاد . ويبدو أن الاضطهاد الذى حل بالداوية جعلهم يعتنقون بعض المذاهب الهرطقية التى أدانهم بها البابا كلمنت الخامس (٢) .

ثم ان حاجة فيلب الرابع الى الأموال لم تدفعه الى التعسف فى جمعها فحسب ، بل أيضا الى تغيير العملة والتلاعب فى قيمتها (٣) . كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى الى تدهور أهمية أسواق شامبنى العظيمة . هذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التى فرضها على الواردات والصادرات بعد أن توصل الى حقيقة مهمة ، هى استغلال الضرائب فى تنظيم عملية التجارة . وهكذا لجأ الى فرض ضريبة على الأصواف الانجليزية والفلمنكية لحماية الانتاج المحلى والمساعدة على ترقيته . كذلك فرض فيلب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية . أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال ، ومنح البلديات حرية فى جمع الضرائب من الأهالى (٤) .

أما فى الناحية الادارية والتشريعية فان فيلب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس بقية الاقطاعيين ، وأحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الرومانى وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعتراف بسيادتها(٥) . كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية الغرض منها

---

(1) Lodge: op. cit. p. 56.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 318—319.
(3) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 233.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 324—325.
(5) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

الفصل فى المنازعات التى تقوم حول الضرائب وغيرها من الاشكالات المالية .
على أن أهمّ من هذا كله كانت دعوة فيلب الرابع لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ، وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد فى تاريخ فرنسا (١) . ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث ـ رجال الدين والنبلاء والبورجوازيين ـ وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة ، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ ـ ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن ، وسنة ١٣٠٨ عند حل منظمة الداوية ، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج الى أموال للحرب فى فلاندرز (٢) . ويبدو من التجاء فيلب الرابع الى دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة . وعلى الرغم من أنه لم يسمح لأعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين ، الا أنه سمح لهم برفـــع آرائهم الى الملك(٣) . وقد حدث أثناء أنعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على احدى الضرائب ، فاضطر فيلب الرابع الى الغائها والى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك .

نهاية اسرة كابيه :

وعند وفاة فيلب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ - ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيلب الرابع هو فيلب الخامس (١٣١٦ ـ ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد لاقرار أحقيته فى العرش واحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنة لويس العاشر . وكان فيلب الخامس حاكما نشيطا ذكيا (٤) ، عمل على تركيز الادارة الملكية فى باريس وتحـــويل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ، ومنع الأمراء الاقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات فى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 684.
(2) Lodge: op. cit. pp. 59—60.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 326—327.
(4) Lavisse: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود • كذلك امتاز عهد فيلب الخامس بكثرة التشريعات التى بلغت بالنظم التى وضعها آل كابيه درجة الكمال • أما مجلس طبقات الأمة فقد بلغ عندئذ درجة كافية من النضج وتعـددت اجتماعاته حينا بعد آخر •

وبعد فيلب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع ، فشـابه أباه فى حب فرض الضرائب والتلاعب فى قيمة النفوذ • أما فى الخارج فقد شغل شارل الرابع بحرب فلاندرز ، وهى الحرب التى ظلت منذ أيام فيلب الرابع لا تخمد نارها الا لتشتعل بعد قليل (٣) • كذلك فتح شارل الرابع باب النزاع مع انجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكونى • ومهما يكن من أمر ، فـان شارل الرابع هذا لم يترك وريثا يرثه فى حكم المملكة ، مما أدى الى انتهاء عهد أسرة كابيه (٤) •

وكان أن اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة شارل الرابع سنة ١٣٢٨ ، فاختار فيلب فالوا الذى أصبح فيلب السادس ملكا على فرنسا • وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من اسباب قيام حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وهى الحرب التى سنعالجها فى باب خاص فيما بعد •

---

(1) Orton: op. cit. p, 364.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 338.
(3) Lodge: op. cit. p. 65.

الباب العاشر

المانيا والأمبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن جزئها الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى • فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الامبراطورية الرومانية القديمة • واذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى اخضاع بافاريا وسكسونيا ، الا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية • وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من امبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الامبراطورية تتعرض للتفكك والانهيار قرب منتصف القرن التاسع (١) •

وتتضح هذه الفكرة في شعوب ألمانيا التى أخذت تتمسك بتراثها القديم. وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين ، فظهر زعماء مجليون من كبار الأمراء فى كل سكسونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا ، وهى الأجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا (٢) • على أنه يلاحظ أن المانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الامبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تتناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الاقطاعيين (٣) • حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية الى أيدى الأمراء

---

(1) Barraclough: The Origins of Modern Germany, pp. 6—11.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 164.

(3) Orton: op. cit. p. 160.

المحليين ، وفي أن زمام الحكم انتقل في كل من البلدين من أيدي سلالة البيت الكارولنجي الى بيوت أخرى اقطاعية(١) • ولكن ألمانيـــا اختلفت عن فرنسا في أن أراضي الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة في الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء — على الرغم من ازدياده — لم يصل الى درجة تقويض نظم الادارة القديمة كما صار الحال في فرنسا (٢) •

الواقع أن الخطر الذي هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحيـــة الأمراء الاقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها • فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توحيد سكانها — مع اختلاف أصولهم — اذا بألمانيا تظل منقسمة الى أقاليم كبرى تختلف اختلافا بينا من الناحية الطبيعية ، حتى أصبح لكل اقليم منها اتجاهه السياسي وعصبيته العنصرية • فاذا كان الجزء الشمالي من ألمانيا سهلي منبسط فان الجزء الجنوبي جبلي وعر ، واذا كانت أنهـــار الشمال ، تتجه لتصب في بحر الشمال أو البحر البلطي وبذلك توجه الأهالي نحو الشمال ، فان أنهار الجنوب تجرى شرقا وغربا لتوجيه الأهالي في هذين الاتجاهين • وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التي تألفت منها ألمانيا في نهاية القرن التاسع ، وهم الســـوابيون والباڤاريون والسكسون والثورنجيون والفريزيون (٣) •

أرنولف :

وكان أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجي في أواخر القرن التاسع هو الملك أرنولف (٨٨٧ — ٨٩٩) • وقد امتاز حكم أرنولف هذا — البالغ اثنى عشرة سنة — بالحيوية والقوة ، حتى استطاعت ألمانيا في تلك الفترة التغلب على أعدائها في الشمال والشرق ، فضلا عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية في غرب أوربا • وحسب أرنولف أن الملوك الذين

---

(1) Stephenson: Med. Hist. pp. 279—280.
(2) Orton: op. cit. pp. 160—161.
(3) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 36 63.

حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصـــــول على موافقته ورضائه ،مما حقق له زعامة فعلية عليهم ، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الامبراطورية (١) .

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه فى دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد اقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها . ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا فى قوة وعنف حتى اجتاحوا جميع أراضى الميز والموزل ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التى واجهتهم فى لوثرنجيا . وعندما سمع أرنوف بذلك أتى مسرعا من بافاريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان Louvain حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) . وكانت هذه الهزيمه درسا قاســـيا تلقاه الدانيون فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية ، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو اقامة امارة مســـتقلة فى أراضيها ، وإن استمرت اغاراتهم السريعة على شـــواطىء فريزيا والراين الأدنى (٣) .

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التى قامت بها العناصر السلافية التابعة له فى الشرق ـ مثل التشك والمورافيين ـ دفعه طموحه ورغبته فى أن يصبح امبراطورا الى أن يزج بنفسه فى السياسة الايطالية ، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . ذلك أن ايطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء ، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف فى شئونها ، وبخاصة عندما اشتد النزاع بين جاى Guy (ويدو Wido) وبرنجار Berengar حول حكم ايطاليا ، مما أثارا حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا فى صف برنجار ، فى حين ظاهرت تســكانيا

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 468—469.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 10.

والبابوية جاى (١) . وكان أن توج البابا ستفن الخامس جاى امبراطورا وملكا على ايطاليا سنة ٨٩١ ، الأمر الذى حقق له النصر النهائى وجعل خصمه برنجار يستنجد بآرنولف ملك ألمانيا (٢) . وهنا رحب أرنولف بهذه الفرصة التى أتاحت له التدخل فى شئون ايطاليا فعبر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو ، فى حين فرجاى نحو الجنوب حيث توفى . وفى العام التالى أغار أرنولف مرة أخرى على ايطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا الجديد فورموزس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) وتوجه امبراطورا (٣) .

وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وايطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل فى شئون ايطاليا سوى اضعاف نفوذهم فى ألمانيا وبعثرة قواهم . فعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على ايطاليا ، الا أن نفوذهم فيها لم يكن فعليا الا فى حالة وصول الملك الألمانى على رأس جيشه الى ايطاليا ، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة الألمان الى بلادهم (٤) . ذلك أن البابوية والنبلاء والمدن عارضت جميعا قيام أية سلطة سياسية قوية فى ايطاليا ، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان فى الربط بين ألمانيا وايطاليا سياسيا فى ظل تاجهم ، فى الوقت الذى صرفتهم شئون ايطاليا عن تدعيم نفوذهم فى ألمانيا ذاتها . ومهما يكن من أمر فان الانقسامات والأفكار التى تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت الى ترك ايطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة (٥) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 64—65.
(2) Oman: The Dark Ages, pp. 463—464.
(3) Deanesly: op. cit. p. 565.
(4) Thompson: op. cit, Vol. 1, pp. 364—365.
(5) Bryce: The Holy Roman Empire, p. 78.

أما أرنولف فقد عاد من ايطاليا متوجا بالتاج الامبراطورى الذى أضفى عليه نوعا من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غـــرب أوربا المعـــاصرين وزعامته عليهم • على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عودته من ايطاليا كانت كثيرة وشاقة ، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة ، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى اغارة المجريين على ألمانيا (١) • أما هؤلاء الهنغاريون أو المجريون فكانوا قبائل رعوية من أصل أسيوى مثل الهون والآفار ، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعوا فى الحـــروب الخاطفة التى شنوها على خصومهم • وقد ترك هؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوربا ـ على البحر الأسود ـ وزحفوا سنة ٨٩٦ نحو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، وهى المنطقة التى نسبت اليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر • ومن هذا الموطن الجديد أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على ايطاليا عن طريق اكويليا وفيرونا حتى وصلوا بافيا • وبعد أن نهبوا سهول ايطاليا الشمالية اضطروا الى العودة عن طريق بانونيا(٢) • على أن أرنولف يعتبر المسئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضى الامبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم على طريق مورافيا وألمانيا جميعا • ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن خطر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن حسيما فى حياة أرنولف نفسه ، لانشغالهم بتطهير ســـهول الدانوب من السلاف ، ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجيا الا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩ (٣) •

لويس الطفل (٨٩٩ ـ ٩١١) :

أجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل (Lewis the Child) ملكا عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩ • وكان لويس هذا فى السادسة من عمره عندئذ ، الأمر الذى جعل الاحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلاد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 43—44.
(3) Oman: The Dark Ages, p. 471.

حكما اسميا من أحلك عصور التاريخ الألمانى • ففى تلك الحقبة قويت النزعة الاقطاعية عند الأمراء الألمان ، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بينهم • وربما أدى الى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكونتات أصبحت وراثية ، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التى تألفت منها ألمانيا — وهى فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا — دوقا يرثه ابنه فى منصبه (١) • ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عند الأساقفة الألمان ، الذين بلغوا هم الآخرون درجة كبيرة من الثروة واتساع الأملاك والنفوذ حتى أصبحت لهم سيطرة على التاج ، كما ناضلوا مع الأمراء لتحقيق أطماع سياسية بحتة (٢) • على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين — من دينيين وعلمانيين — ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى على رأس الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحركون ويشتبكون بعضهم مع بعض فى منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت بالبلاد ضررا جسيما •

وزاد الطين بلة اشتداد اغارات الهنغاريين التى لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة أرنولف سنة ٨٩٦ • وقد بدأ الهنغاريون بالاغارة على بافاريا وكارنثيا ، ثم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا الى سوابيا حتى وصلوا سكسونيا • وكان أن أنزل الهنغاريون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة ٩٠٧ • كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج واسقفى فريزنج وسبن Seben (٣) • وهكذا تمكن الهنغاريون من اجتياح بافاريا كما دخلوا ثورنجيا فى العام التالى وقتلوا دوقها وأسقف ورزبرج ، الأمر الذى دفع لويس الطفل — وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره — الى النزول الى الميدان بنفسه لصد خطر الهنغاريين، وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة الملك الصغير

(1) Orton: op. cit. p. 161.
(2) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 370.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.

لحرب المجريين ، ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا • ولم يلبث أن توفي لويس الطفل عقب هذه الكارثة ، في سبتمبر سنة ٩١١ (١) •

كونراد الأول (٩١١ — ٩١٨) :

وبوفاة لويس الطفل انتهت سلالة البت الكارولنجي من الذكور في ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا الا في شخص شارل البسيط في فرنسا (٢) • ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشكلة ملء العرش ، فاما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسي للبيت الكارولنجي ، واما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب • وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأي الأخير ، فاجتمع زعماء فرانكونيا وسكسونيا وسوابيا وبافاريا واختاروا سنه ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكا عليهم • وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشترك في انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينزوكولونيا ، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع (٣) •

وكانت السنوات السبع التي قضاها كونراد الأول في الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ، اذ لم يكن له مجد موروث — كما كان للكارولنجيين — يعتمد عليه في توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا اليه على أنه واحد منهم ، وازدادوا تباعدا عن السلطة المركزية • وهكذا قويت النزعة الانفصالية في أقسام ألمانيا المختلفة ، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية في ذلك العهد(٤) • وقد حاول كونراد الأول — يسانده الأساقفة — القبض على زمام الأمراء ، ولكنه دفع الثمن غاليا ، اذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء في أواخر عهده أكثر شعورا بقوتهم

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 472—473.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 21.
(3) Barraclough: op. cit. p. 18.
(4) Oman: The Dark Ages, pp, 475—476.

وأشد تعصبا ضد الملكية ونفوذها (١) • وهكذا يبدو أنه اذا كان كونراد الأول قد فكر في بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة ، فانه سرعان ما اضطر الى التخلي عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا وسوابيا وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له • والواقع أنه لم يكن فى وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شعور العصبية المحلية فى الأقاليم السابقة من جهة ، وتجدد خطر الهنغاريين على ألمانيا من جهة أخرى (٢) •

ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، اذا بالهنغاريين يوغلون فى ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣ ، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz بل دهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧ ، وهى أهم مدن الركن الجنوبى الغربى من المملكة الألمانية • وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح فى دفع الأخطار الداخلية أو الخارجية التى أحاطت بدولته (٣) •

هنرى الأول (الصياد) ٩١٩ ـ ٩٣٦ :

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوى يخلفه اذا أرادوا انقاذ ألمانيا • ويبدو أن التفكير فى الصالح العام تغلب حينئذ على كونراد لأنه اعترف بضعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته ، بل رشح لمنصب الملكية خصمه العنيد هنرى السكسونى ، لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التى ترددت فيها (٤) •

ثم سارت الأمور فى الاتجاه الذى أراده كونراد الأول ، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنرى دوق سكسونيا

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 371—372.
(2) Stephenson : Med. Hist. p. 229.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 33—34.
(4) Oman: The Dark Ages. p. 477.

ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩ ، ويقال ان اختيار هنرى لمنصب الملكية تم أثناء انشغاله برياضة الصيد ، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصياد (Fowler) (١)• والواقع أن انتقال الملكية الى البيت السكسونى أمر له [illegible] ، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأمة الألمانية • حقيقة ان قيام دولة ألمانية مستقلة أصبح حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول ، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة • ولكن بانتقال الحكم الى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت ، لا سيما وأن السكسون كانوا أقل العناصر التى تألفت منها ألمانيا تأثرا بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمسكا بتراثها الجرمانى القديم(٢) •

والمعروف أن الفضل يرجع الى هنرى الأول فى وضع أسس الملكيـــة الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو(٣) • على أنه يبدو لنا فى أول الأمر أن سلطة هنرى الصياد وهو ملك ـ عندما تولى الحكم ـ لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا(٤) ، فألمانيا كانت وقتئذ أقرب الى اتحاد بين الدوقات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقيات بلقب الملكية • ومن هنا كانت مهمة هنرى الصياد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية الى سلطة فعليـــة ، ولذلك رفض ـ من أول الأمر ـ أن يتوج بيد رئيس أساقفة مينز حتى لا يظهر بمظهر التبعية الكنيسة ، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقيات الألمانية(٥)• أما موقف هنرى الأول من كبار الدوقات ، فقد طلب اليهم اعلان ولائهم له

---

(١) ومن الثابت أن هذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ الا قرب منتصف القرن الثانى عشر • أنظر
(Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 13—14.
(3) Bryce: op. cit. p. 117.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.
(5) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. 373—374.

وتقديم فروض التبعية بوصفهم أفصاله الاقطاعيين . كذلك أصر هنرى على الحد من نفوذ هؤلاء الدوقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين ، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة . أما الأساقفة ومقدمو الأديرة فقد أعاد اليهم أراضيهم التى اغتصبت منهم خلال حكم لويس الطفل ، وجعلهم يتمتعون فى هذه الأراضى بالسلطة التى تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا يدينون التاج تبعية مباشرة(١) .

ومن الواضح أن هنرى الأول اعتمد فى تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية على قوته الحربية التى استمدها من سكسونيا ، كبرى الدوقيات الألمانية التى عرف أهلها بالشجاعة وقوة الشكمية . على أنه كان من العسير أن يتمكن هنرى من تنفيذ جميع أركان هذه السياسة قبل أن يؤمن بلاده ضد الأخطار الخارجية التى سببت له ولأسلافه كثيرا من الكوارث فى السنوات الأخيرة . ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانيين والونديين(٢) ، فضلا عن المجريين الذين أخذوا يوجهون حرابهم سنة ٩٢٤ نحو سكسونيا ، بعد أن لمسوا قوة معارضة البافاريين . وهكذا تلقت سكسونيا الضربة وحدها فى تلك المرة ، دون أن يلقى هنرى الصياد أية مساعدة من سوابيا أو بافاريا ، الأمر الذى جعله يقبل الصلح مع الهنغاريين على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية . وبذلك استطاع هنرى أن يجنب بلاده خطرهم لمدة تسع سنوات استغلها فى القيام بعد اصلاحات حربية . وكان أهم هذه الاصلاحات انشاء مراكز محصنة Burgwarde فى ثورنجيا وشرق سكسونيا ، وهو المراكز التى تحولت بسرعة الى مجمعات تجارية نشيطة تعيش داخل أسوار محصنة وتقوم بحمايتها حاميات من السكسون(٣) .

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغاريين سنة ٩٣٣ ، وعندئذ فضل هنرى القتال على الاستمرار فى دفع الجزية ، فأنزل هنرى الأول بالمجريين

---

(1) Painter: A History of the Middle Ages, p. 165.

(١) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والكربات .

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 375.

هزيمة قرب مرسبرج (مارس ٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانيين سنة ٩٣٤ وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستعمرة للمستوطنين الألمان ، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب(١) . وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا ، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام الأسرة السكسونية فى الحكم وحقق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهيبة(٢) .

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣) :

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده . وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه هو فى العشرين من عمره ، وتم تتويجه فى آخن .

ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الامبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الامبراطورية والذى يشير الى ارتباط ايطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا(٣) . حقيقة ان تلك الامبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لامبراطورية شارلمان ، كما أنهـــا اعتمدت على الآراء التى قامت عليها امبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ، ولكن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 38—39.

(٣) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الامبراطورية هو « الرومانية » فقط ، أما صفة « المقدسة » فقد ظهرت لأول مرة على عهد الامبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الامبراطور نداء وجهه الى زعمـــاء الامبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية ، وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب « المقدسة » فى وصف الامبراطورية حتى غدا شائعا . على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الامبراطورية لا يعنى أى تغيير فى وضعها السياسى ، لأن هذه الامبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان ، وبمعناها الضيق — أى فى حدود ألمانيا وايطاليا — يرجع تأسيسها الى أوتو العظيم .
(أنظر . (Bryce: op. cit. pp. 196—197

القرن ونصف القرن الذى انقضى منذ تتويج شارلمان ، صحبه تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوربا ، وبخاصة بالنسبة لمركز الامبراطورية وسلطانها وعلاقتها بالكنيسة ، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر الى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور ، وانما على أنه المؤسس الثانى للامبراطورية فى الغرب(١) •

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه ، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية ، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا ، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة • وقد أدت سياسة أوتو الى كثير من الثورات والحروب الأهلية ، الأمر الذى جعله يتجه نحو الكنيسة ليتخذ رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء • ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة الى أنصار لا يعتمدون على العصبية العنصرية ولا يحرصون على مصالحهم الوراثية ، ولم يجد ضالته الا فى رجال الكنيسة، فرأى فى قوة الأساقفة اضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية(٢) • وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب اليهم ذلك ، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم ــ وفى المناطق القريبة ــ على حساب الدوقات • وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده ــ وجود أنصار أقوياء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق(٣) •

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها الى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الأديرة الاقطاعات الكبيرة ، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها • وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان ، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحى القضائية والمالية والادارية • على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن

(1) Bryce: op. cit. p. 79—80.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 18—21.
(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 166.

غالبا لأن تحول الأساقفة الى أمراء اقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة ، جعلهم خاضعين للملك خضوعا مباشرا كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده . وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم فى تعيين الأســاقفة وعزلهم ، مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر(١) .

ويبدو أن تدخل أوتو الأول فى شئون الكنيسة الألمانية ومحاولته العمل دائما على اخضاعها لسيطرته المطلقة ، لم يتم دون معارضة ، اذ لجأ بعض كبار الأساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه — الى عرض الأمر على البابا . وعلى الرغم من أن البابوية كانت فى شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها ، الا أن هذا الحدث جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وانما ترتبط بالبابوية فى روما وتخضع لهيمنتها ، ويتبع ذلك أنه اذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا ، فانه يجب أن يبدأ باخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه الى جانبه . وطالما كان البابا خارجا عن قبضة أوتو الاول ، فان أحلام الأخير فى السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو ، وهى التدخل فى شئون ايطاليا للسيطرة على البابوية(٢) .

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، وذلك عندما توفى لوثر ملك ايطاليا وفرت أرملته الى ملك ألمانيــا طالبة مساعدته ضد برنجار الثانى ملك ايطاليا الجديد . لذلك أسرع أوتو الأول الى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حيث تزوج من الأرملة الحسناء ، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له(٣) . وجاء هذا التوفيق الذى صادفه أوتو فى ايطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦ ، وبعد أن هزم التشك فى بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا ، وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 139—142.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 26—27.
(3) Bryce: op. cit. p. 83.

عربا وايطاليا جنوبا(١) . على أن الثورة لم تلبث أن تجددت فى ايطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كره الايطاليين لسيطرة حكام ألمانيا ، وعندئذ لم يستطع أوتو الذهاب لاخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية .

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده فى سوابيا ، وثار كونراد فى اللورين الأعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز . ومهما يكن من أمر ، فان أوتو لم يتعب كثيرا فى القضاء على هؤلاء الثائرين بسبب كثرة منافسيهم(٢) . وعندما توفى رئيس أساقفة مينز ، عين أوتو ابنه وليم بدله فى كرسيه ، كذلك قسم أوتو اللورين الى قسمين ، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا فى حين نشأت تدريجيا فى الجزء الأدنى كونتيه هينو Hainaut وبرابانت Brabant . وهكذا غلب الطابع الاقطاعى على الكنيسة حتى أصبح من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا(٣) .

وفى خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا فى بافاريا حتى أوجسبرج . ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة ليخفيلد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥ ، مما جعلهم لا يجرءون على غزو ألمانيا مرة أخرى . وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مد نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام فى تلك الأراضى الجديدة ماركية أوستريا (النمسا)(٤) . ولكن يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فانه توجه معه شريكا فى الحكم سنة ٩٦١ ، وجعله تحت رعاية أخوته أسقفى كولونيا ومينز .

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول فى تدعيم نفوذه الملكى والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه ، الا أنه ارتكب خطأ كبيرا فى حق

---

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 280.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196—197.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 381.
(4) Orton: op. cit. p. 162.

وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا ، فجعل وستفاليا وحدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استفاليا) ، لهرمان بيلونج Hermann Billung بعد أن منحه لقب دوق(١) . وسرعان ما أصبح دوقات سكسونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحده ألمانيا في القرن التالي(٢) .

وهكذا لم تكد تنته سنة ٩٦١ الا كان أوتو الأول قد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته ، وعاد من جديد يفكر في مشروعه الامبراطوري الضخم . ويقال ان الرغبة في احياء الامبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده ، بل شاركه في هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا في هذا الاحياء منفذا للخلاص من الفوضى والأخطار التي تعرضت لها أوربا حينئذ ، لا سيما وأن لفظ الامبراطورية ارتبط دائما في أوربا العصور الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام(٣) .

وكانت هذه الفوضى التي شكت منها أوربا في القرن العاشر أظهر ما تكون في ايطاليا ، حيث تعاقب على كرسي البابوية سلسلة من البابوات الضعاف غير الكفاة ، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشينة دبرها نبلاء روما العابثين ، حتى تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثاني عشر(٤) . على أن هذا البابا الجديد الذي جمع في شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية في روما ، سرعان ما وجد في الملك برنجار الثاني عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها ، ومن ثم استنجد حنا الثاني عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتي ٩٥٧ ، ٩٦١(٥) . وقد سبق أن أشرنا الى المشاكل العديدة التي أحاطت بأوتو الأول في تلك الفترة والتي حالت دون تلبية نداء البابوية على وجه السرعة . وأخيرا عبر

---

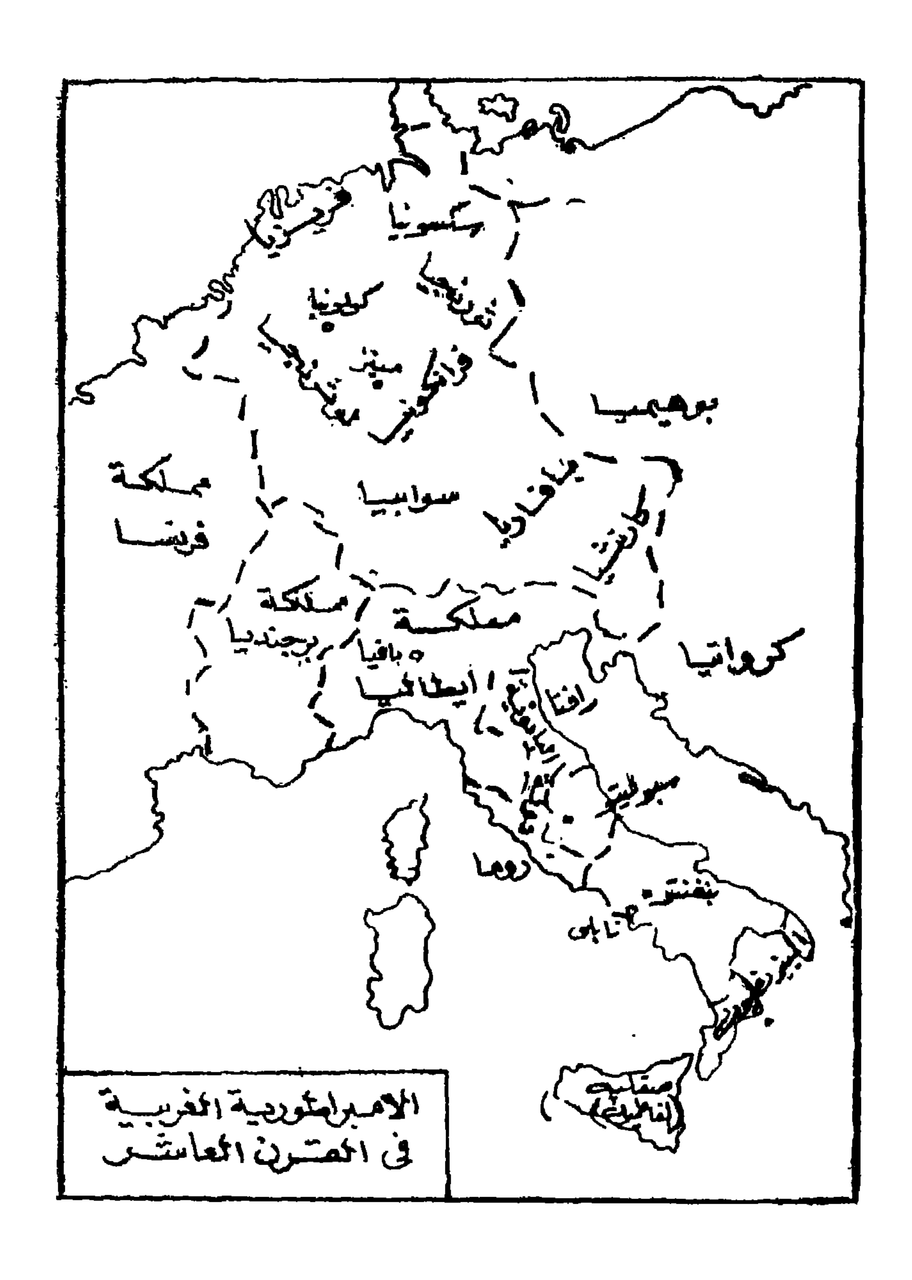
(1) Barraclough: op. cit. p. 29.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 378—379.
(3) Bryce: op. cit. pp. 83—84.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 161.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 31.

أوتو جبال الألب الى ايطاليا ودخل روما فى سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثانى عشر امبراطورا فى فبراير من العام نفســـه ، وفى ذات المكان الذى توج فيه شارلمان امبراطورا من قبل .

ومن الواضح أن تتويج أوتو الأول امبراطورا بيد البابا ، واستمرار تدخل الملوك الألمان فى شئون ايطاليا ، انما يعنى مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم فى سبيل بسط سيطرتهم على جانبى الألب . ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض ارادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل ، كما أن البابا نفسه لم يمانع فى هذا الاتجاه ما دام أوتو يقوم بحمايته ضد خصومه(١) . على أن الشرط الذى ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصر على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للامبراطور مما جعل حنا الثانى عشر يدس لأوتو عند الامبراطور البيزنطى بل عند الهنغاريين والمسلمين فضلا عن برنجـــار نفسه(٢) . لذلك أسرع أوتو بالعودة الى روما ففر البابا منها ، وعندئذ دعـا الامبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة والكرادلة ونبلاء روما ودوقات ألمانيا ، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثانى عشر من منصب البابوية وحرمان أهل روما من المشاركة فى انتخاب البابا فى المستقبل وتعيين موظف امبراطورى فى حكم المدينة . أما المنصب البابوى فد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن(٣) . وقد أثار أهل روما مرتين (٩٦٤ ، ٩٦٥) ضد هذا الوضع الشائن الذى انحدروا اليه ، حتى طـــردوا ليو الثامن من روما ، ولكن أوتو العظيم عاد اليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى . وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم فى شئون الكنيسة البابوية جاء وليد الموقف السياسى ورغبته فى السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص ، لا وليد الرغبة فى اكساب دولته طابعا ثيوقراطيا(٤) . ومهما يكن من أمر ، فان أوتو الأول

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 382.
(2) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 230.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.
(4) Barraclough: op. cit. p. 55.



الامبراطورية الغربية
في القرن العاشر

قضى عدة سنوات بعد ذلك فى جنوب ايطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية وعدم اعتراف امبراطورها نقفور فوقاس به(١) .

واذا كان أوتو العظيم قد نجح فى احياء الامبراطورية فى الغرب ، فان امبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن امبراطورية شارلمان . فالامبراطورية التى أقامها أوتو جاءت وليدة رغبته فى استغلال التقاليد الامبراطورية لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا الى أن الامبراطورية كانت فى نظــــر أوتو مسألة ألمانيه بحتة ، فلم يكن يعنيه من أمر ايطاليا الا تنفيذ سياســـته الداخلية فى ألمانيا نفسها . وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الامبراطورى الى أبعد مدى ، فى تنفيذ مشروعاته الألمانية لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هي منبع قوته الحقيقية . لذلك نستطيع أن نقرر ان امبراطوريــة أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمى الذى امتازت به امبراطـــــورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الامبراطورية المقدسة التى أقامها أوتـــو كانت لا يمكن أن تمثل تراث الماضى ، كما كان الحال مع امبراطورية شارلمان(٢) .

واذا كان المؤرخون المحدثون - وبخاصة الألمان - قد وجهوا اللوم الى أوتو العظيم لأنه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد فى سبيل الحصول عـلى الامبراطورية وعلى ايطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به ، الا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل لأن أوتو لم يجر وراء ايطاليا والبابوية والامبراطورية الا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى الى السيطره على ألمانيا ذاتها(٣) . فأوتو الأول نظر الى تتويجه فى روما بعين الاهتمام لا لشىء سوى أن هـــذا التتويج سيمكنه من اتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا ، ثم من اتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا(٤) .

---

(1) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, p. 469.
(2) Eyre: op. cit. p. 117.
(3) Barraclough: op. cit. p. 54.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 32.

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمال أوتو الأول بعـــد تتويجه امبراطورا ، اذ عكف فى همة ونشاط على اصلاح الكنيسة الألمانية واخضاعها لاشرافه ، كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg أسقفية كبرى تشرف على المناطق السلافية شرقى الامبراطورية(١) .

وبعد ، فاننا فى ختام كلامنا عن الامبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير الى أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى ، وأن الاحياء الدينى فى ذلك العصر جاء مصحوبا باحياء ثقافى ، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا ــ كما كان أيـــام الكارولنجيين ــ مركزا للنشاط الفكرى . وقد تزعم تلك النهضة ــ التى تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية ــ برونو Bruno الأخ الأصغر للامبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبـــوا فى مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية . أما الامبراطور أوتو نفسه فقـــد أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة ، كما تعلم قراءة اللاتينية وتفهمها وان صعب عليه الحديث بها(٢) .

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ، كما جعل من ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوربا فى ذلك العصر ، بل انه حقق له مكانة الزعامة فى أوربا المعاصرة .

أوتو الثانى (٩٧٣ ــ ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ ــ ٩٧٦) عرض على معاصره الامبراطور أوتو الأول تصـــفية الموقف بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ــ وبخاصة فى ايطاليا ــ عن طريق زواج أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 281.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 24—25.

ابنة رومانوس الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الأسبق ، على أن يكـــون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا(١) . وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين ايطاليـــا وألمانيا فى ظل الامبراطورية المقدسه ، وان لم يتضح أثر هذا العامل الا فى عهد أوتو الثانى(٢) .

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول . فبينما التزم الأب سياســـة ألمانية حتى أنه فى احياء الامبراطورية كان يرمى الى خدمة المصلحة الألمانية ، اذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقا امتدت الى خارج حدود ألمانيا بكثير . فأوتو الثانى نظر الى ايطاليا والامبراطورية نظرة اختلفت الى حد كبير عن أبيه ، لأن ايطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا . ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الامبراطورية القوى ، وفى الوقت نفسه آمن ايمانا قويا بفكرة الامبراطورية العالمية وبأن سيطرة الامبراطور على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان . وهنا كانت الخطورة الكامنة على ألمانيا والأسرة السكسونية ، لأن سياسة أوتو الثانى — ومن بعده أوتو الثالث — التى اتجهت نحو ايطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، لم ينتج عنها الا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الامبراطورية الرومانية بوجه عام(٣) .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفـــوذ بعض الدوقيات ، الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الامبراطورية الوثيق . وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديت Judith أرملة هنرى الأولى دوق بافاريا ،

---

(1) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 433—434.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 201—202.
(3) Eyre, op. cit. p. 118.

بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى(١) • وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت الى سوابيا عن طـريق ابنتها هـــدويج Hedwig زوجة دوق سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل • وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباط بافاريا وسوابيا مما أنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا ، حتى دفعه الخوف الى تعيين ابن أخيـــه دوقا على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز • وكان أن ثارت باڤاريا (٩٧٦ — ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى اخماد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لاضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها(٢) • وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى(٣) •

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى اضطر أوتو الثانى الى الهرب من آخن ، وعندما رد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما عجل باقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠(٤) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كانت ايطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة واغارات المسلمين من جهة أخرى • وقد حدث أن استنجدت البابوية — كعادتها — بأوتو الثانى ضد كرسكنتيوس — أقوى أمراء روما ، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ — ٩٨٣) الى روما • وكان أوتو الثانى يطمع دائما فى أن يجعل سلطة الامبراطورية العالمية ملموسة فعلا ، وأن يثبت نفوذه فى ايطاليا بوجه خاص ، ولذلك استغل فرصة وجوده فى ايطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة لتحقق غرضين : الأول طرد المسلمين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 204—205.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 37.
(3) Barraclough: op. cit. p. 33
(4) Thompson: op cit. Vol. I, p. 385.

الذى عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو بعد أن عادت الدولة البيزنطية الى المماطلة فى هذه الحقوق(١) . وقد صادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب ايطاليا (٩٨١ — ٩٨٢) فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون Cotrone وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير صقلية . على أن المسلمين لم يلبثوا أن نصبوا كمينا للقوات الامبراطورية ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون Colonne سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع الامبراطور نفسه النجاة الا بصعوبة(٢) .

ولا شك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ الامبراطورية الأوتية ، اذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الامبراطورية الغربية فى وسط ايطاليا وجنوبها . وزاد من وقع الكارثة أن الأخبار جاءت الى الامبراطورية بتحرك السلاف على نهر الألب وأنهم أعلنوا ارتدادهم الى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة . لذلك عقد أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه ، وهو المجمع الذى اكتسب اهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وايطاليا فيه جنبا الى جنب ، اشارة الى وحدة البلدين داخل اطار الامبراطورية . على أن لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه واضحة ، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب دينية مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفذ هذه الفكرة التى يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى . ومهما يكن من أمر فان أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس بروما(٣) .

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 38.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169—170.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 211—213.

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) :

عندما توفى أوتو الثانى كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للامبراطورية هذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية ، فعاد هنرى دوق بافاريـــا الى التمرد ، بل انـــه نازع الامبراطورة الوالدة ثيوفانو حق الوصاية على ولدها الصغير ، حتى بلغ الأمر أن طالب بالتاج لنفسه(١) . وهنا نجد زمام الموقف ينتقل الى أيدى رجال الدين والأساقفة ، الذين أصبح فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى ، بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة . وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أوتو الثالث ، واضطر هنرى الى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا . وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث ، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا الملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة(٢) . وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والايمان حتى جاوز الخامسة عشرة من عمره فذهب الى ايطاليا سنة ٩٩٥ . وهناك فى ايطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس ، وهو أول ألمانى يتولى هذا المنصب(٣) . ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث امبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦) وأخذ يعمل مع الامبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الأرض ممثلة فى الامبراطورية يتزعمها الامبراطور والبابا ، لنشر السلام واقـــرار العدالة . ثم عاد الامبراطور بعد تتويجه الى ألمانيا ، فحارب السلاف الذين ثاروا أثناء غيبته وطردوا أدالبرت من أسقفيته فى براغ وأعلنوا ارتدادهم الى الوثنية(٤) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 209—210.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 41.
(3) Barraclough: op. cit, p. 59.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 223—224.

وفى ذلك الوقت ثار حنا كرسكنتيوس فى روما ، فعاد الامبراطور الى ايطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨ ، كذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جربرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ — ١٠٠٣) فاستأنف سياسة التحالف مع الامبراطورية لتحقيق أغراضهما المشتركة • ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (rex-sacerdos) بمعنى السيطرة على الشئون الدينية والسياسية جميعا ، كما أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة (urbs regia) بعد أن أصبحت كنيستها أم الكنائس الغربية جميعا (١) • وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قسطنطين آخر ، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الامبراطورية (٢) • ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل تأييد الأباطرة ومساندتهم لتنشل نفسها من حـــالة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى القرن العاشر وتصل الى المستوى الذى أصبحت فيه على عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) وبعبارة أخرى فان الأباطرة أخذوا يدعمون البابوية ، غير دارين أنهم يبنون لحدهم بأيديهم (٣) • هذا الى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولنـــــدا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين ، فضلا عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة هذا البابا وسيطرته عليهم • أما ايطاليا — وبخاصة روما نفسها — فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الامبراطور والبابا جميعا ، فى وقت لم يجد الامبراطور حوله نصيرا يسانده — حتى فى ألمانيا نفسها • وفى ذلك الموقف توفى الامبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢ ، ثم لحق به البابا سلفستر الثانى فى العام التالى (٤) •

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 240—241.
(2) Eyre, op. cit. p. 118.
(3) Bryce: op. cit. p. 143.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale, 231.

وصفوة القول أن أوتو الثالث كان رجلا نظريا ياقضي حكمه غارقا في أحلام الماضي ، بعيدا عن الوقائع والحقائق التي أحاطت به ، فأقام معظم أيامه في أيطاليا الأمر الذي أضر بهيبته في ألمانيا أبلغ الضرر ، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته (١) •

هنري الثاني (١٠٠٢ — ١٠٢٤) :

توفي أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه في العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم الى فرع آخر من نفس البيت السكسوني ، وذلك عندما تولى العرش هنري الثاني دوق بارفاريا • واذ كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول في وراثة العرش بطريقة سلمية الا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم • ذلك أنه أحس عدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آبائه — وان كان هو أقرب الأفراد الى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول (٢) — كما أحس أن الفضل في اختياره يرجع الى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين ، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل ، واختار أن يحكم عن طريق المجامع والمجالس الاستشارية •

وقد تمتع هنري الثاني بسلطان واسع فوق الكنيسة ، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير ، وفي الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمي الأديرة كأداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الامبراطورية في مناطق نفوذهم • أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع اليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوي في ألمانيا (٣) •

---

(1) Eyre: op. cit. p. 118.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234—239.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 48.

وقد أتى الخطر الأكبر الذى هدد الدولة الألمانيه ـ عندما اعتلى هنـــرى الثانى العرش ـ من ناحية السلاف ، وبخاصة بولندا التى أخذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان الى ما وراء نهر الالب (١) • وكان أن بدأ بولسلاف فى تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣ ، وعندئذ حاول هنرى الثانى تصفية الموقف سلميا مع السلاف ، ولكن دون جدوى ، فقام بحرب طويلة منتظمة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ وانتهت بالصلح الأخير معهم سنة ١٠١٨ (٢) • وهكذا استنفدت حروب هنرى الثانى ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدى فى النهاية الى نتيجة مشرفة بالنسبة له ، حتى اضطر أخيرا الى التسليم بمطالب البولنديين الاقليمية وأهمها ماركة لوزاس (Lusace) (٣)•

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنرى الثانى عن شئون ايطاليا ، وان كان من الواضح أن التيار الذى سار فيه أوتو الثالث لم يجرف هنرى الثانى بالقوة ذاتها فى طريقه ، وأن الأخير تخلى عن كثير من مطامع الأول الواسعة واتجه اتجاها ألمانيا قوميا الى حد كبير • ويبدو أن أحداث ايطاليا نفسها، واضطراب أحوالها هى التى جذبت ملوك ألمانيا الى التدخل فى شئونها ، اذ عادت البابوية بعد وفاة سلفستر الثانى لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسكنتى Crescentii فى الوقت الذى نصب أردوين Ardoin نفسه ملكا على ايطاليا (٤) • لذلك ذهب هنرى الثانى الى ايطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣ • وفى المرة الأخيرة توجه البابا بندكت الثامن امبراطورا فى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234-239.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 49.

(٤) وجدت عائلتان كبيرتان تتنازعان السلطة والنفوذ فى روما عند مستهل القرن الحادى عشر ، الأولى آل كرسكنتى والثانية كونتات توسكولم Tusculum • ويبدو أن البابوات الثلاثة الذين خلفوا سلفستر الثانى تولوا منصب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى •
انظر (Hayward: A History of the Popes, p. 142.)

روما (فبراير سنة ١٠١٤)(١) • ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سنة ١٠٢٠ لتدشين كتدرائية بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والامبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على ايطاليا لاقرار الأوضاع فيها • وفعلا قام الامبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع اخضاع شمال ايطاليا ووسطها ، ولكن مرضا تفشى بين رجاله فى أبوليا فاضطر الى العودة الى ألمانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى ايطاليا • وهكذا ظل الحال مضطربا فى ايطاليا بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة ، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى ، وبين المدن بعضها وبعض ، أو بينها وبين السلطات الاقطاعية من جهة ثالثة (٢) •

أما هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الاصلاح الكلونية • والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبار المصلحين الديريين ، وبفضل جهوده تم ادخال اصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum وهرسفلد Hersfeld وريخنو Reichenau وفولدا وكوربى وغيرها • كذلك عقد كثيرا من المجامع الكنسية تحت رآسته وتولى هو توجيهها ، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين — وبخاصة الديريين — كثيرا من الامتيازات والحقوق (٣) • على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب — غير الألمان — أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم • وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aribo رئيس أساقفة مينز ، ولكن شاءت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه ، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الامبراطور (٤) •

---

(1) Bryce: op. cit. p. 146.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 392.
(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 247—248.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 50.

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التى ترددت فيها فرنسا فى القرن العاشر(١) . على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق للملوك البيت السكسونى أنهم بدءوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء . ولم يكن للديريين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف ، لأنهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للعبادة كانوا لا يصلحون أداة فى أيدى الملوك يستعينون بها على خصومهم السياسيين ، الأمر الذى جعل الديريين يحقدون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ (٢) . ثم كان أن اعتلى عرش الامبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديريين ويشجع حركة الاصلاح الكلونية ، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم . ذلك أنه كان من مبادىء هذه الحركة الاصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية ، وفى الوقت نفسه تركيز نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول . ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برآسة روما وزعاماتها الروحية ، الا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء اضعافا لنفوذهم الدنيوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى ، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الاحكام التى يصدرونها أمام البابا . لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجعها الديريون خطرا هددهم ، ومن ثم أخذوا — عقب وفاة هنرى الثانى — يبذلون قصارى جهدهم حتى لا يلى عرش الامبراطورية رجل يشايع الديرية وآراءها الاصلاحية (٣) . وهكذا اتخذت مسألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة والديريين من جهة أخرى ، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 393.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 51.

كونراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) :

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضـــة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيرا ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة الساليين • وكان الفارق عظيما بين هنرى الثـــانى وخليفته كونراد الثانى ، اذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية، لأن الحرب كانت فى نظره الوســيلة الوحيــدة التى تضمن نفــوذه الامبراطورى (١) •

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شىء مختلا فى الدولة ، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم عامان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيرا من مواطن الضعف والخلل فيها • وأتت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين ، التى لم يكتف أمراؤهـا بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تويجه ملكا، ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار الى ألمانيا تحت سيادته(٢) • أما ايطاليـــا التى بلغت الســـلطة الامبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى ، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العلمية ، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللمبارديين الذين رأوا فى الامبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين • لذلك عبر كونراد الثانى جبال الألب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال ايطاليا عاما كاملا ثبت فيه نفوذه وأخضـــع خصومه ، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج امبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر • وهكذا يبدو أن الطابع الألمانى الضيق الـــذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لايطاليا ، حتى قيل ان كونراد الثانى لم يصـــبح

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 246—247.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 254.

امبراطورا « رومانيا » الا بعد أن توجه البابا فى روما (١) . وبعد أن قام كونراد الثانى بزيارة جنوب إيطاليا لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين فى كالبريا ، عاد الى ألمانيا مسرعا ليتفرغ لشئونها . وهنا نكرر بالقول بأن سياسة كونراد الثانى اختلفت عن سياسة سلفه هنرى الثانى فى أن الأول اتجه اتجاها ألمانيا عمليا وتخلى عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى الى اضعاف نفوذ هنرى الثانى فى ألمانيا (٢) .

ويبدو أن نفوذ كونراد الثانى فى ألمانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من ايطاليا جعلته يعمل على جعل الحكم وراثيا فى أسرته فتوج ابنه هنرى فى حياته سنة ١٠٢٨ . وقد أثار هذا العمل حقد كبار الأمراء ، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثانى لم يتعب كثيرا فى القضاء على هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته ، بحيث عاد كونراد يسيطر على ألمانيا سيطرة تامة قوية (٣) .

على أنه اذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد فى الداخل ، فان أعداء الدولة فى الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار . من ذلك أن كونراد الثانى دخل فى صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ — ١٠٣١) بسبب اغاراتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى واحراق كنائسها . وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بها البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثانى بملكهم مسكو الثانى Mesko II ولكن كونراد كان فى موقف لا يساعده على انزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغيرهم من أعداء الدولة ، ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١ (٤) . وفى تلك الأثناء شغل

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 250
(2) Eyre: op. cit. pp. 130—131.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 54.
(4) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 251—252.

كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية ٠
وقد ساءت العلاقات بين كونراد الثانى وأودلرخ Udalrih
دوق بوهيميا سنة ١٠٣٢ ، الأمر الذى حدا بالأول الى ارسال حملة الى
بوهيميا أخضعت أودلريخ وأرسلته أسيرا الى بافاريا ، وان ظلت الفوضى ضاربة
أطنابها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١) ٠ أما الهنغاريون فقد تجمعت عدة
عوامل أساءت الى العلاقات بينهم وبين كوانراد الثانى أيضا ، مما اضطره الى
الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ، ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب
وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله ، كالغابات والأنهار
والأحراش ، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده ، مما
جعله يعود متقهقرا الى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (٢) ٠

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه
فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy الى ممتلكاته٠
وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة ،
حتى توفى ملكها رودلف الثالث سنة ١٠٣٢ دون أن يترك ولدا يرثه فى
الملك (٣) ٠ وهنا استغل كونراد الثانى صلة القربى التى تربطه بالملك الراحل
وتوج نفسه ملكا على آرل ، مما جعل تلك المملكة جزءا من الامبراطورية ،
حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لأنفسهم لقب « أمراء الامبراطورية
المقدسة(٤) » ٠ أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع الى أن ضم مملكة آرل
أتاح نفوذا جديدا للاباطرة الألمان بقدر ما ترجع الى بضع حقائق أخرى
هامة ، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها الى
الامبراطورية الى تخفيف الطابع الألمانى الذى اتصفت به الامبراطورية
المقدسة ٠ وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا سياسيا فى ذلك

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 254.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8. p. 309.
(4) Bryce: op. cit. p. 148.

العصر ، كما أدى الى تثبيت مبدأ الوراثة فى ألمانيا (١) • فاذا أضفنا الى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الاصلاح الكلونية مما ترتب على ضمها للامبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة فى ألمانيا ، وأن ضم مملكة آرل الى الامبراطورية حال دون تدخل فرنسا فى شئون ايطاليا ، اذا ذكرنا كل هذا ، أدركنا فى النهاية مدى خطورة هذه العملية فى التاريخ وهكذا صارت الامبراطورية تضم جميع الأراضى التى تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربى ، أو فرنسا بمعناها الضيق •

على أن كونراد الثانى اعتقد أن هناك أمرا واحدا ينتقص سلطانه الفعلى ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد ، وهذا الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء ، وارتباط الأفصال بسادتهم الاقطاعيين ، وضعف الروابط التى تربط هؤلاء الأفصال وغيرهم من عامة الناس بالامبراطور • لذلك حاول كونراد أن يستميل الى جانبه صغار الأفصال ضد كبار الأمراء ، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من اقطاعات ليهيىء لهم نوعا من الاستقرار والثبات فى وجه سادتهم الاقطاعيين (٣) • هذا الى أن تطبيق مبدأ الوراثة فى الاقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الامبراطورى ، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه • كذلك لجأ كونراد الثانى الى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثية ، فضلا عن تدعيم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الأمراء (٤) •

ويبدو أن النجاح العظيم الذى صادفه كونراد الثانى فى تطبيق هذه السياسة فى ألمانيا وبرجنديا دفعه الى تطبيقها فى ايطاليا • على أن روح الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية كانت قد أخذت تشتد فى شمال ايطاليا ، حتى بين كبار الأساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار

(1) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 55—56.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.
(3) Orton: op. cit. p, 170.
(4) Eyre: op. cit. p. 222.

الأمراء العلمانيين . ومن هؤلاء الأساقفة أربرت Aribert رئيس أساقفة ميلان الذى تمتع بمركز مستقل فى أسقفيته ، وأخذ يمنى نفسه بنفـــوذ سياسى الى جانب نفوذه الدينى (١) . ولكن اذا كان أربرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم ، فان الأمراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فثاروا ضده مما أدى الى حرب أهلية استدعت سفر كونراد الثانى الى ايطاليا لتهدئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ . وهنا وقف أربرت من الامبراطور موقفا عنيدا ، لم يلبث أن تحول الى حرب سافرة بين الطرفين . ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صغار النبلاء والاقطاعيين الى جانبه ، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ بجعل اقطاعاتهم وراثية فى ايطاليا ، كما وعدهم بعدم ارهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية . على أن هذه الاجراءات وأشباهها لم تكن كافية لاخضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الامبراطورية من كونراد الثانى العودة الى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العام التالى (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فاو وفاة الامبراطور كونراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى ايطاليا لا تقلل من نجاحه العام فى القيام بأعباء الوظيفة الامبراطورية . ويكفى أنه ثبت نفوذه الامبراطورى تثبيتا قويا جعل ابنه يعتلى عرش الامبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة .

هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦) :

بلغت الامبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث (٣) الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد اليه بحرب البولنديين والهنغاريين ، فضلا

———

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 258.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 59.
(3) Bryce: op. it. p. 148.

عن الخبرة السياسية التى اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه فى الحكم بصورة غير رسمية • وهكذا استطاع هنرى الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه ، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التى اتبعها كونراد الثانى فى سياسته ، بل انه نفخ فى هذه لسياسة روحا جديدة جعلت الامبراطورية المقدسة تبدو فى عهده فى صورة القوة الكبرى الفعالة فى توجيه مصائر غرب أوربا (١) •

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت هنرى الثالث هى مشكلة أربرت رئيس أساقفة ميلان ، بعد أن مات كونراد الثانى قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الامبراطورية وهيبتها • على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميا ، اذا تغلب العقل على أربرت عندما علم بوفاة الامبراطور كونراد الثانى ، واتجه الى ألمانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنرى الثالث وطلب عفوه ، وبذلك عاد السلام الى ايطاليا وأصبح فى وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى ، وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا وبوهيميا وهنغاريا (٢) •

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر واضح على عصر هنرى الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التى أضحت عندئذ أقوى الدول السلافيه ، ولذلك لم يصادف هنرى الثالث صعوبة كبيرة فى اعادة بولندا الى تبعيتها للامبراطورية • ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التى أراد دوقها برتسلاف (Bretislav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا فى براغ الى مرتبة رئيس أساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسى والكنسى (٣) • ولذلك قاوم برتسلاف جهود الامبراطورية فى السيطرة على بوهميا مقاومة عنيفة ، ولكنها لم تجد أمام قوة هنرى الثالث الذى أوغل فى بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١ وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنرى الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة ، واطلاق سراح ما لديه من

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272—306.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 262.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 300—301.

أسرى ، وهدم جميع التحصينات المقامة فى غابات بوهيميا • وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدى هنرى الثالث (١٠ اكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ، وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير السلافى يحلم بتحويلها الى مملكة مستقلة (١) •

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانت أشد وأعظم، اذ قامت فيها حركة وثنية أتت بملك جديد اسمه آبـا Aba على العرش• وقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد ذلك الملك الوثنى ، فحاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثالث به ملكا ، ولما رفض هنرى أغار آبا على ألمانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد الى بلاده فى أوائل سنة ١٠٤٢ محملا بالأسلاب • لذلك هجم هنرى الثالث على هنغاريا عدة مرات (١٠٤٢ — ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بفرار آبا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للامبراطورية (٢) •

أما فى الجبهة الشمالية فقد أنزل هنرى الثالث هزيمة بالعناصر السلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥ ، كما عقد الملك اجتماعا فى العام التالى مع الحكام السلاف ، اعترفوا فيه بسيادة الامبراطوريه • وهكذا استطاع هنرى الثالث آن يكمل رسالة أبيه فى تحقيق عظمة ألمانيا وجعل الامبراطورية المقدسة صاحبة الكلمة العليا فى غرب أوربا (٣) • وربما ساعد على اعلاء كلمة الامبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنسا ، وانشغالهم بالحروب المستمرة مع الزعماء الاقطاعيين ، مما جعل الامبراطورية المقدسة لا تجد أمامها منافسا قويا من غرب أوربا ينازعها السيادة العالمية • ولم يحاول هنرى الثالث أن يستغل ضعف فرنسا فى ذلك العصر فى تحقيق مطامع سياسية عبر الراين ، بل على العكس حرص على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا ، وأراد أن يؤكد حسن العلاقات بزواجه سنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى آجنى Agnes

---

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 262—263.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 61.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 264.

صغرى بنات وليم كونت بواتو • وربما كانت أهم النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القوى الذى تركته الأميرة الفرنسية فى السياسة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثالث (١) •

وبعد أن خلص هنرى الثالث من مشاكله الخارجية ، أخذ يوجه عنايته نحو مشاكل الامبراطورية فى الداخل ، أى فى ألمانيا وايطاليا •. والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون • وقد أدت سياسة كونراد الثانى — الخاصة بتشجيع صغار النبلاء الاقطاعيين — الى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهدا كبيرا لحسم ذلك الوضـــع واقرار الأمن والنظام • وفى سبيل الوصول الى هذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياسة أسلافه فى الحرص على تركيز السلطة فى يدى الملك ، واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة ، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئا من التصرف والنفود فى دوقياتهم ، بعد أن أدرك أن ألمانيا أصعب من أن تحكم حكما أوتوقراطيا مركزيا (٢) •

على أن الدور الذى قام به هنرى الثالث فى ايطاليا — وبخاصة تجـــاه البابوية يسترعى منا انتباها خاصا • ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر الى الدرجة التى جعلت هنرى الثالث يتخذ تدعيم البـــابوية مفتاحا لسياسته الامبراطورية (٣) • وحسبنا أن البابا أصبح ألعوبة فى أيدى أمراء روما ، بل أصبح المنصب البابوى يباع ويشترى بالمال ، مما جرح شعور كل مسيحى غيور • من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاسع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة سنة • ثم لم يلبث أن باع منصبه لقاء حفنة من المال الى بابا آخر هو جريجورى السادس فى العام التالى • وازاء هذه الفوضى والفضائح ، عقد دعاة الاصلاح مجمعا فى روما واستنجدوا بالملك هنرى الثالث لمساعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى •

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 62.
(2) Bryce: op. cit. p. 148.
(3) Barraclough: op. cit. p. 56.

والواقع هنرى اهتم بحركة الاصلاح الكلونية وأخذ يتحمس لانقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التى سقطتا فيها ، حتى ازدادت هذه السياسة قوة بعد زواجه من آجنى (١) •

وكان أن عبر هنرى الثالث جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا فى سوترى Sutri قرب روما فى ديسمبر من العام نفسه ، ثم مجمعا آخرا فى روما فى الشهر عينه ، عزل فيهما جميع البابوات المتنازعين ، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidgar أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثانى • وفى اليوم الذى احتفل فيه بتعيين البابا الجديد قام البابا بتتويج هنرى الثالث وزوجته بالتاج الامبراطورى (٢) • وبعد ذلك قام الامبراطور وبصحبته البابا — بجولة فى جنوب ايطاليا لاخضاعها واقرار الأمور فيها • واذا كان الامبراطور قد اضطر الى العودة بعد ذلك الى ألمانيا ، الا أن سياسته استمرت نافذة فى ايطاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة (٣) • من ذلك أنه حدث بعد وفاة البابا كلمنت الثانى سنة ١٠٤٨ أن ظل رأى الامبراطور معمولا به فى اختيار الشخص الذى يلى منصب البابوية فتعاقب على هذا المنصب البابا داماسوس الثانى Damasus II الذى مات بعد أسابيع فخلفه ليو التاسع — قريبه الامبراطور (١٠٤٨ — ١٠٥٤) ، ثم فكتور الثانى (١٠٥٤ — ١٠٥٧)(٤)• وفى عهد البابا الأخير قام هنرى الثالث بزيارة ايطاليا مرة أخرى لبعض أغراض سياسية ولكنه لم يلبث أن عاد الى ألمانيا لنشوب ثورة فى بافاريا •

وهنا تبدو لنا سياسة هنرى الثالث الدينية على جانب كبير من الأهمية والتناقض • ذلك أنه عمل اصلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية — أى بيع الوظائف الدينية — وغيرها من المفاسد الكنسية (٥) • ولكنه حرص فى

---

(1) Cam. Med, Hist. Vol. 3, p. 290.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 265— 266.
(3) Bryce: op. cit. pp. 148—149.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 297—298.
(5) Eyre: op. cit. pp. 132—133.

الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدرى أن هذه السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التى تشكو منها الكنيسة عندئذ . وأبرز مثل لهذه السيطرة تدخل هنري الثالث فى عزل البابوات وتعيين من يشاء دون الرجوع الى أية مجامع دينية . ومن الواضح أن هدف هنرى الثالث من ذلك كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية ، علاوة على اثبات حقـــــه فى تعيين أساقفة ألمانيا وتقليدهم علمانيا مادام هو الذى يعين البابا نفسه (١) . على أنه اذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثانى لم يتجاسرا على معارضة الامبراطور ،فان التطور نحوتحرير الكنيسةمن سيطرةالسلطةالعلمانية بدأ يظهر فى بطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) . ولم يلبث أن اتخذ هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية فى عهد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩ — ١٠٦١) (٢) .

وهكذا أدت سيطرة الامبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة ، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى ، الى نزاع حـــــاد بين الامبراطورية والبابوية ، ظهرت أولى فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الامبراطور هنرى الثالث ١٠٥٦ .

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 251
(2) Eyre: op. cit. p. 133.

الباب الحادي عشر

إيطاليا والبابوية

كانت ايطاليا فى ختام القرن العاشر مقسمة الى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة • فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا وكالبريا في الجنوب ، بعد أن نجحت قوات الامبراطور باسل المقدونى فى طرد المسلمين من تلك الجهات واحراز نصر بحرى عليهم واسترداد معاقلهم فى الجنوب الشرقى من ايطاليا (٨٨٤ – ٨٨٧) (١) • هذا وان ظل المسلمون يسيطرون على بعض المراكز فى جنوب ايطاليا الغربى وجزيرة صقلية ، وذلك بعد أن سقطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة فى أيديهم سنة ٨٧٧ • ومع أن المسلمين فشلوا فى اتخاذ مقر ثابت لهم فى جنوب ايطاليا ، الا أنهم استمروا يؤثرون فى توجيه مصائر ذلك الجزء من أوربا ، ولا سيما الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة (٢) • وبالاضافة الى البيزنطيين والمسلمين ، وجد عدد من الدوقيات اللمباردية فى بنفنتو وسالرنو وكابوا فى الجنوب (٣)• أما شمال ايطاليا ووسطها فقد أقام فيهما اللمبارديون عدة امارات قوية ، كما ظهرت فى تلك الأجزاء بعض المدن التجارية النشيطة مثل أمالفى ونابلى • هذا فضلا عن البابوية التى أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى • فاذا أضفنا الى هذه القوى المتعددة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى شرع أباطرتها يتدخلون فى شئون ايطاليا ويطمعون فى الربط بينها وبين ألمانيا تحت سيطرتهم ، أمكننا أن نكون فكرة عن الفوضى السياسية التى أضحت فيها ايطاليا فى تلك الحقبة (٤) •

=

---

(1) Diehl, Marcais: Le Monde Oriental, pp. 440—441.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 399— 400.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 103—104.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 167—168.

قيام دولة النورمان فى جنوب ايطاليا :

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفـــوذ النورمان الى جنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت بدور هام في تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ذلك أن النورمان الذين استقروا فى غرب فرنســا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية ، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو . وبعبارة أخرى فانهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال ، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيـــده المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة . وكثيرا ما انتهت هــــذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى . من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نومانيا مروا بجنوب ايطاليا ــ قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطىء الشرقى ــ فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة الى وطنهم (١) وفى ذلك الوقت كان ميليس Meles ــ أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمون وثار ضد السلطات البيزنطية ، فاستعان بهؤلاء النورمان فى تحقيق غرضه ، واستغلهم كجند مرتزقة . وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة ، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة ، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة فى ايطاليا كجند محاربين شجعان . (٢)

وعندما عاد هؤلاء الحجاج الى نورمنديا نقلوا الى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الايطالية من فوضى وتفكك ، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نورمنديا الى جنوب ايطاليا ليعملوا جندا مأجورين . ويقال ان دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ســـاعدوه ضـــد أمير كابوا اللمباردى ، مما جعل هذا الدوق يكافىء رانولف ــ زعيم النورمان ــ بمنحه

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 198
(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 104—105.

منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة . وفى هذه المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠ ، التى تعتبر أول مركز دائم لهم فى ايطاليا (١) . وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر فى جنوب ايطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، حيث وجدوا فى هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية . واشتهر من زعماء النورمان فى ايطاليا فى هذه الحقبة ثلاثة اخوة يلقبـــون بلقب « هوتفيل Hauteville » هم وليم وهمفرى ودروجـــو ، وقـــد أحرزوا جميعا صيتا ذائعا فى ميدان الحرب والقتال (٢) . وكان أن قـــدم هؤلاء الاخوة مساعدتهم الى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرد المسلمين من صقلية ، حتى أصبح وليم هوتفيل أميرا على النورمان فى أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له (٣) . وعندما توفى ســـنة ١٠٤٦ اعترف الامبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجو أميرا على أبوليا . ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمنديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة ، هوروبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان فى ايطاليا بعد وفاة همفرى سنة ١٠٥٧(٤) . وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت١٠٨٥)كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول الى هدفه . ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب ايطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة (٥) ، دون أن يدرى أن توسع النورمان فى جنوب ايطاليا ، وما صحب هذا التوسع من أعمال الغصـــب والعنف ، أثار حنق البابوية ومخاوفها . ذلك أنه على الرغم من ترحيـــب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عونا لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، الا أن النورمان أثاروا كـــره الجميع بعد أن اشتهروا بالنهب والسلب والقسوة (٦) . هذا فضلا عن أنهم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 268.
(2) Stephenson: op. cit. p. 247.
(3) Diehl, Marcais: Le Monde Orientale, p. 560.
(4) Haskins: The Normans in European History, p. 201
(5) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 474.
(6) Orton: op. cit. p. 188.

أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمبارديين وطورا في صف القوات البيزنطية ، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك سوى توسيع رقعة أراضيهم الخاصة على حساب البيزنطيين واللمبارديين والبابوية جميعا .

وكان أن دفع شعور الخوف والاستياء البابا ليو التاسع الى أن يوجه جيشا — خليطا من الالمان والايطاليين — لمهاجمة النورمان سنة ١٠٥٣ . ولكن النورمان انتصروا على هذه الحملة البابوية في موقعة كيفتياتي Civitate فأثبتوا مرة أخرى كفايتهم الحربية (١) ، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويسكارد أن يغزو كالبريا بأكملها سنة ١٠٥٧ (٢) . ويبدو أن هزيمة البابوية أمام النورمان وقتئذ كانت ذات نتائج مهمة ، لأنها أثبتت للمعاصرين — وبخاصة البابوية — أنه لا يمكن طرد النورمان من ايطاليا ، هذا في الوقت الذي حالت تقوى هؤلاء النورمان دون استغلال انتصارهم في تتبع البابوية ومعاقبتها(١) . وفي ذلك الوقت بالذات كانت البابوية في حاجة الى حليف قوى ، بعد أن أخذت تحس خطر الأباطرة الألمان على كيانها وتطمع في التحرر من سيطرتهم، مما جعلها تغير نظرتها تجاه النورمان وتفكر في اتخاذهم حلفاء لها يساعدونها في تحقيق استقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهة ونبلاء روما من جهة أخرى . وأخيرا تمت هذه الصفقة السياسية بين البابوية والنورمان على عهد البابا نقولا الثاني (١٠٥٨ — ١٠٦١) وتحت تأثير ووساطة الكاردينال هلدبراند(٤)،الذي ذهب بنفسه سنة١٠٥٩ الى كابوا ومهدللاتفاق النهائي الذي أبرم في ملفي Melfi ، والذي اعترفت فيه البابوية بشرعية حكم النورمان لجنوب ايطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا ودفع مبلغ معين من المـــال له ســنويا(٥) .

ولا شك في أن هذه الخطوة الحاسمة كان لها أثر خطير في تاريخ أوربا

---

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 203
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 403.
(3) Eyre: op. cit. p. 130.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 114.
(5) Haskins: the Normans in European History, p. 204.

النورمان فى صقلية وجنوب ايطاليا

دوقية سبوليتو
دولة البابوية
دوقية روما
كامبانيا
بنفنتو
نابلى
سالرنو
دوقية ابوليا
بارى
برنديزى
تارنتو
كالبريا
بالرمو
ريجيو
صقلية
إتنا
قطانية
سيراكيوز
(سرقوسة)



العصور الوسطى • ذلك أن قيام دوقية أبوليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولى ، ونشأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت الى فصل جنوب ايطاليا عن شمالها مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ ايطاليا • هذا الى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفا قويا فى الجنوب ، اتجهت اليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية نتيجة لحركة الاصلاح الواسعة التى شرعت البابوية فى النهوض بها(١) • وسرعان ما أثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب ايطاليا أثرت تأثيرا خطيرا فى تاريخ ايطاليا بوجه عام والبابوية بوجه خاص • ولم يلبث الكاردينال هلد براند نفسه — عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ — أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من ايطاليا ، سواء الممتلكات البيزنطية أو امارة بنفنتو التابعة للبابوية • لذلك أدرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا(٢) • على أن محاولات هذا البابا — المعروف بالعنف والصرامة — لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى اذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى(٣) • ثم شاءت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الامبراطورية ، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان ، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراضى مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الامبراطور(٤) •

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب ايطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تم استيلاء النورمان على بارى سنة ١٠٧١ بعد

---

(1) Eyre: op. cit. p. 138.
(2) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 303—304.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.
(4) Orton: op. cit. p. 189.

حصار ثلاث سنوات ، وبذلك تم طرد البيزنطيين نهائيا من ايطاليا(١) ، وأصبحت الخطوة التالية أمام النورمان هى الاستيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المسلمين • وأخيرا توفى روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطماعه الواسعة فى الشرق ، وفى الدولة البيزنطية نفسها ، وان كان يكفيه أنه ثبت أقدام النورمان فى جنوب ايطاليا(٢) • وبوفاة روبرت جويسكارد انتهت فترة الغزو النورمانى فى جنوب ايطاليا ، وهى الفترة التى استمرت نصف قرن ، وبدأ دور آخر — استمر نصف قرن أيضا — استحكم فيه النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم ، حتى استطاع روجر الثانى توحيد جميع الأراضى التى فتحها النورمان واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠(٣) • وهكذا قامت مملكة الصقليتين — التى شملت جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية — والتى غدت من أبرز ممالك غرب أوربا وأرفعها حضارة فى العصور الوسطى ، وذلك بحكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب •

شمال ايطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر :

هذا عن جنوب ايطاليا ، أما شمالها فقد تعرض منذ القرن الحادى عشر لتطورات اقتصادية وسياسية أدت الى نشأة ما يعرف باسم القومونات — أو المدن ذات الكيان الاقتصادى والسياسى المستقل(٤) • ففى بداية القرن الحادى عشر ظهرت البندقية فى صورة جمهورية مستقلة لها دوقها الذى ينتخبه نبلاؤها ولها نفوذها السياسى وكيانها الاقتصادى الخاص(٥) • وفى خلال ذلك القرن أيضا ظهرت جنوا وبيزا كقوى مستقلة أخذت تسهم فى الحروب الصليبية منذ

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 117.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.
(3) Haskins: The Normans in European History, pp. 206—218—219.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 220.
عن نشأة القومونات وأهميتها ، أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب •
(5) Stephenson: Med. Hist. pp. 320—321.

نهاية القرن الحادى عشر اسهاما فعليا • ولم تلبث هذه الحركة — حركة استقلال المدن وتحررها — أن امتدت الى سهول لمبارديا واقليم تسكانيا حيث حصل كثير من المدن على حقها فى الحكم الذاتى • ومن أمثلة هذه المدن Siena وفلورنسا ولوكا وميلان وبافيا وبرسكيا وبولونيا(١) • وسوف نتكلم عن أهمية نشأة المدن وظهور القومونات فيما بعد فى باب مستقل ، ولكن الذى يعنينا الآن بالنسبة لتاريخ ايطاليا هو أن هذه المدن أو القومونات أظهرت حرصا شديدا فى التمسك باستقلالها السياسى ، فأخذت تقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال سواء كانت هذه السلطة دينية بابوية أو سياسية امبراطورية ، مما جعلها تلعب دورا هاما فى تاريخ ايطاليا السياسى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وبخاصة فى حوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية(٢) • هذا فضلا عن الدور الهام الذى قامت به فى الميدان الحضارى بوجه عام وفى الجانبين الاقتصادى والفكرى بوجه خاص ، مما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد(٣) •

أما وسط ايطاليا فقد وجدت به بعد الغزو اللمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمها دوقية تسكانيا • ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا ، لسرعة ما طرأ على وضعها السياسى من تغيير وتبديل طوال العصور الوسطى • على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت بدون شك قوة البابوية ، التى لم تستمد أهميتها التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها للكنيسة الغربية فحسب ، بل أيضا من الدور السياسى الذى أخذت تقوم به فى عناد واصرار لتجعل زعامتها على العالم الغربى حقيقة واقعة(٤) • وهنا نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها فى الزعامة والسمو الا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الاصلاح والتطور ، الأمر الذى مكن البابوية من الوقوف على

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 481 -482.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222 - 223.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale au Moyen Ages, pp. 146 - 153.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. pp. 55 - 58.

رأس الكنيسة فى وجه القوى المعارضة حتى خرجت فى النهـــاية مرفوعة الرأس •

البابوية والكنيسة الغربية :

امتاز تطور الكنيسة ونموها فى العصور الوسطى بظاهرتين أساســـيتين ، الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين فى الشئون العلمانية • وقد رأينا كيف قام شارلمان بتنظيم الكنيسة ضمن نواحى الاصلاح الأخرى التى تعهدها بعنايته وذلك بوصفه رائدا أو زعيما للشعب المسيحى (Rector Populi Christiani)(١) • ولكن اضمحلال امبراطورية شارلمـان حرم البابوية من حليفها القوى وتركهـــا وحيدة فى الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التى تعرضت لهـــا منذ منتصف القرن التاسع • ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها ، بل امتد الى بقية الجهاز الكنسى حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع ونهاية الحادى عشر(٢) • فالبابا غدا أقرب الى أن يكون نبيلا رومانيا لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة فى فرنسا وألمـانيا وايطاليا وانجلترا وأسبانيا وغيرها ، وهى الكنائس التى تباين مدى استقلالها عن السلطة الزمنية أو تبعيتها لها(٣) • أما الأساقفة فكان لهم فى البابوات أسوة سيئة ، وسرعان ما أصبحوا من رجال الاقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات ، بل ان وظائفهم نفسها غدت اقطاعية ، كما أدى زواجهم الى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم(٤) • وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الدينى الى المشاركة فى الحروب وعقد المجالس القضائية

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 188
(2) Eyre: op. cit. pp. 124—125.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 454.
(4) Idem: Vol. 5, pp. 5—6.

وجمع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب ، بل في أراضي النبلاء المجاورين أيضا(١) • وبعبارة أخرى فان كبار رجال الدين ـ من أساقفة ومقدمي أديرة ـ غدوا أفصالا اقطاعيين للملوك وكبار الأمراء ، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الاقطاعي من خدمات والتزامات معروفة(٢) •

على أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجال الدين ، لاسيما بعد أن رسم القديس أوغسطين في القرن الخامس الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية ، وقال بأن الأولى قامت على أساس من الشر والغدر لأنها من صنع البشر ، لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة ، وهي الهيئة التي تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته(٣) • والواقع أن الكنيسة لم تنس حقوقها في السمو على السلطة الزمنية ، وهي الحقوق التي سبق أن أوضحها القديس أوغسطين • وكل ما هنالك هو أن شارلمان نظر دائما الى الامبراطورية نظرة دينية ، واعتقد أن وجود دولة قوية وكنيسة قوية في قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الامبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة(٤) • وما دامت الكنيسة قد رضيت بأن يقوم شارلمان بدور حامي حماها ، المدافع عن كيانها ، فان عليها أن تقبل ـ وهي صاغرة ـ تدخله في كافة شئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطالبة بوضع حدود فاصلة بين السلطتين الدينية والعلمانية(٥) • وهكذا ظلت الكنيسة راضية بالأوضاع القائمة ، تخفي رغبتها في التحرر والسيادة طالما كانت في قبضة شارلمان القوية • هذا وان استمرت نظرة القديس أوغسطين ماثلة دائما في أفكار ذوي الطموح من رجال الكنيسة •

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيسة جعلتها تعمل على

---

(1) Eyre: op. cit. p. 125.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 125.
(3) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 413—414.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.
(5) Eyre: op. cit. p. 120.

تحرير نفسها بسرعة من سيطرة السلطة الزمنية ، كما أخذت البابوية تعمل على ابراز أهميتها وتحقيق سموها • من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ – ٨١٧) من انكار شرعية تتويج لويس التقى فى حياة أبيه ، وقيامه بتتويجه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيدا لحق البابوية فى منح التاج الامبراطورى(١) • ثم جاءت ثورة ابنى لويس التقى ضده سنة ٨٣٣ لتهيىء فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما • ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأسقافة المشايعين للامبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الامبراطور بصفته الرئيس الأعلى للامبراطورية والكنيسة جميعا ، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخا لبقية الأساقفة وانما أبا لهم ، يقدمون له فروض الولاء والطاعة(٢) • كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الامبراطورية « لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدرا من السلطة الامبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة(٣) » • وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ – ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الامبراطور بمبدأ سمو البابوية على الامبراطورية(٤) ، وهو المبدأ الذى ظلت البابوية تجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن(٥) • هذا الى أن نقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الامبراطور البيزنطى امبراطور رومانى « لأن الامبرامبراطورية الرومانية لا توجد الا حيث ير ىد البابا » • وفى ضوء هذه الآراء جميعا يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام العلمانيين فى صورة السيد الآمر الذى تجب طاعته « لأن الحاكم الذى لا يطيع أوامر

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 134—144.
(2) Idem, pp. 168—169.
(3) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 115.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 453.
(5) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 12Γ.

الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصيا ويستحق اللعنة والحرمان(١) . »
ثم جاء تتويج شارلمان الثاني أو الأصلع امبراطورا بيد البابا حنا الثامن سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها ، وأن البابا عندما توج شارل امبراطورا انما عبر عن ارادة الله والمسيح في التفضل عليه بهذا التشريف ، « ومنحه » التاج الامبراطوري(٢) .

على أنه اذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التي عمت أوربا في القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص مستقل ، الا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملي في ظل النظام الاقطاعي . هذا في الوقت الذي لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند اليها في تأكيد سيادتها على الملوك من جهة وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى . وهنا لجأ رجال الكنيسة الى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند اليها البابوية في تحقيق أهدافها . وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة لتحقيق أغراضهم ومبادئهم ، أما الوثيقة الأولى فتسمى « هبة قسطنطين Donation of Constantine » والغرض منها اثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على الغرب الأوربي . وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل ان الامبراطور قسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه للبابوية عن روما القديمة ، بل عن كل أراضي الامبراطورية الغربية(٣) . ويبدو أن هذه الوثيقة زورت في القرن الثامن بعد أن منح بيبين الأول (القصير) البابا سلطة زمنية في أراضي ايطاليا سنة ٧٥٥ ، فأراد رجال الكنيسة عندئذ أن يحيطوا هبة بيبين هذه بجو من الشرعية التقليدية التي تثبت أن حق البابوية في مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع الى أيام قسطنطين نفسه(٤) . ومهما يكن من أمر فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 202 203.
(2) Idem: pp. 161 - 162.
(3) Eyre: op. cit. p. 122.
(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 58 - - 60.

وتتخذها أساسا لسلطانها الزمنى حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩ ، أى فى عصر النهضة الايطالية •

أما الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ — ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية المزورة Forged Decretals وهى تنسب الى شخص غامض اسمه ايسيدور، وان كان لا يمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها(١) • وكل ما هناك هو أنه يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز ، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما • وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة والبابوية من جهة أخرى(٢) ، لأنها ترمى الى اضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة وفى الوقت نفسه تعمل على اعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها(٣) •

وهكذا أخذت هذه المبادىء تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوربا منذ النصف الثانى من القرن التاسع ، فأنشأ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجئون الى البابوية لانصافهم ، كما تدخل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) فى شئون كنيسة اللورين ، مستندا الى بعض الأحكام المزورة السابقة ، فأصر على حقوق البابوية فى اصدار التعليمات والأوامر الى مختلف الكنائس المحلية(٤)• على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقولا الأول سنة ٨٦٧ وتتويج أوتو الأول امبراطورا سنة ٩٦٢ ، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ غرب أوربا من النواحى السياسية والكنسية جميعا • فبالاضافة الى اضمحلال امبراطورية شارلمان وتفككها ، شهدت هذه الفترة أيضا تدهور البابوية والكنيسة الغربية بوجه عام(٥) • حقيقة ان الكنائس المحلية فى مختلف بلاد غرب أوربا ظلت تنظر الى البابا على أنه زعيمها الروحى ، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسميا • فكثير من البابوات فى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيها فعليا رشيدا ، ولم يفكروا فى دعوة مجامع دينية عامة ، وتركوا مهمة هذا

---

(1) Bryce : op. cit. p. 153.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.
(3) Oman: The Dark Ages, p. 456.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 421—422.
(5) Eyre: op. cit. pp. 123—124.

التوجيه ودعوة المجامع الى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة فى بلادهم ، مما أدى الى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوربا • ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط الى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة ، وانما أدت أيضا الى انحطاط المستوى الخلقى لرجال الدين لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم ، مما أدى الى وصول بعض ضعاف النفوس الى أرفع المناصب الكنسية(١) •

حركة الاصلاح الكلونية :

ولم يلبث هذا الفساد الذى دعم الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى الى ايقاظ بعض الضمائر التى أفزعها ما آل اليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوربا(٢) • وكان أن انبعثت الدعوة الى الاصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول متزولييج ، حيث كانت الحياة الديرية قوية وسليمة • وهناك بدأ أحد المصلحين ــ واسمه جيرارد ــ تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩٢٤ ، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل • وسرعان ما سارت تلك الحركة الاصلاحية فى اللورين سيرا طيبا فنادى المصلحون بالعودة الى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية • ولكن تلك الحركة الاصلاحية ظلت محلية الطابع ، اذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا ، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الضعف والانحلال ، وبذلك حالوا دون انتشارها والافادة منها(٣) • ومهما يكن من أمر فان هذه الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى اقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها ، اذ عاصرتها دعوة أخرى

---

(1) Idem: p. 120.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 128.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 128—131.

للاصلاح انبعثت فى حوض الرون الأعلى حيث أسس وليم التقى دوق اكوتين ديرا جديدا فى كلونى سنة ٩١٠(١) .

وقد روعى فى نظام هذا الدير تجنب الأخطاء والمفاسد التى تردت فيها بقية الأديرة المعاصرة ، ليصبح رأسا لحركة اصلاحية ديرية شاملة . من ذلك أن دير كلونى لم يقبل أرضا من أمير اقطاعى أو حاكم مقابل خدمات أو ارتباطات اقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم . وهكذا جاءت جميع المنح التى تلقاها دير كلونى - من أراض وغيرها - حرة غير مشروطة ، ولا يتقاضى صاحبها عنها سوى حسن الثواب من الله والدعوات الطيبات من أهل الدير . واذا كان نظام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديريين القيام بقسط كبير من العمل اليدوى فى الحقول الا أنه لوحظ عدم تطبيق هذا المبدأ بصورة تكفل تحقيق الغرض المنشود ، لأن معظم الأراضى التى كانت تمنح للأديرة عليها أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ، الأمر الذى وفر على الديريين عناء العمل فى الحقول من جهة وأوجد فراغا كبيرا فى حياتهم من جهة أخرى . ولسد هذا الفراغ وتلافى أخطار البطالة روعى فى نظام كلونى مضاعفة الساعات اليومية المخصصة للصلاة والعبادة(٢) .

وقد قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفانى فى خدمة المجموع ، فالفرد لا شىء والمجموع هو كل شىء . كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الامراض الخطيرة التى تعرضت لها الكنيسة حينئذ انما جاءت وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة ، ولذلك وجدوا فى الفصل بين السلطتين العلاج الوحيد الشافى من تلك الأمراض(٣) . ولعل هذا هو السبب فى حرصهم على أن يكون نظامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين اشراف على الأديرة الكلونية التى تقع فى مناطق

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 661.
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 128--129.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 99.

نفوذهم(١) • وهكذا أصبحت الأديرة الكلونية تخضـــع لاشراف مركزى شديد ، اذ لا يوجد لها سوى مقـــدم واحد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير فى أديرتهم ويخضعون خضوعا مباشرا للمقدم العـــام فى كلونى ، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضع بدوره للبابا خضوعا مباشرا(٢) • وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هذا النظام الديرى فى غرب أوربا انتشارا واسعا فى سرعة فائقــة ، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكتية المعـــروفة فى فرنسا وألمـانيا تقبلت النظام الكلونى ودخلت تحت رئاسته • هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنها تأثرت فى نظمها بمبادىء الاصلاح الكلونية(٣) • والذى يهمنا الآن من أمر هذه الحـــركة أنها لم تلبث أن تطورت واتسع أفقها ، فبعـــد أن كانت تستهدف فى أول أمرها اصلاح الحياة الديرية وحدها ، اذا بها فى القرن الحادى عشر تسعى نحو اصلاح الكنيسة اصلاحا شاملا ، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع عند منتصف القرن الحادى عشر • حقيقة أن الدعوة الكلونية تعرضت لمعارضة قوية من كثير من الأساقفة ، بل من بعض المؤسسات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفساد ، ولكن حركة الاصلاح الكلونية استطاعت أن تستمر فى طريقها السوى دون أن توقفها هذه المعارضة(٤) •

وكانت الكنيسة تعانى عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى • أما السيمونية فالمقصود بها شراء الوظائف

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(2) Eyre: op. cit. p. 127.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I p. 427.

الدينية بالمـال(١) ، وهو داء فشا فشوا خطيرا بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرحين وغير الصالحين الى المناصب الدينية الكبرى عن طـريق المـال ، مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها(٢) • ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وأراض واسعة ، جعلها موضع أنظار الطامعين الذين لم يضنوا بتقديم الأموال الكثيرة الى الحكام العلمانيين أو كبار الأساقفة ليعينوهم رؤساء على تلك الأديرة والأسقفيات(٣) • وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) وكذلك البابا ليو التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤) مكافحة السيمونية ، وشجعهما فى جهودهما الامبراطور هنرى الثالث ، حتى تم عزل كثير من رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمـــال(٤) • هذا الى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ أصدرت قـــرارات مشددة ضد السيمونية والاتجار فى المناصب الدينية(٥) •

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا عـــزابا ، فى حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين(٦) • والواقع أنه لم يوجد قانون كنسى يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيسة ، وان وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة(٧)،وهى تشريعات لم يمكن تنفيذها فى سهولة على الرغم من جهود البابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقها(٨) • وهكذا ظلت الكنيسة ترى ضرورة الزام رجال الاكليروس

---

(١) تنسب السيمونية الى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد « ولمـا رأى سيمون أنه بوضع أيدى الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم ، قائلا أعطيانى أنا أيضا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليـــه يدى يقبل الروح القدس ، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم » • (سفر أعمال الرسل ، الاضحاح الثامن ، ١٨ — ٢٠) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 10.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 122.
(4) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 147.
(5) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 343—344.

(٦) نلفت نظر القارىء الى أننا عالجنا موضوع زواج رجال الكنيسة بشىء من التفصـــيل فى البـاب الخاص بالنظم الدينية فى الجـــزء الثانى من هذا الكتاب •

(7) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 11—12.
(8) Eyre: op. cit. pp. 215—216.

بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة ، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس زيادة على تدعيم النظام الكنسى نفسه(١) . والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل الى توريث الوظائف الاقطاعية ، مما أدى بدوره الى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم ، الأمر الذى يجعل منهم طبقة وراثية وينزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى . وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها . وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٣ ، والتى حرمت على عامة النـاس التعامل مع القساوسة المتزوجين(٢) .

على أنه اذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمونية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة ، فان مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تتصل اتصالا مباشرا بسلطة الحكام العلمانيين . والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون — من أباطرة وملوك وأمراء — بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية . والمعروف أن القانون الكنسى نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بوساطة أساقفتهم ، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف ، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة — وهو البابا — هذا الاختيار . ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام ، فأصبح أصحاب الأراضى من الاقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة ، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها الى أحد الأفراد ويقول له « تسلم أسقفية كذا » حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية(٣) .

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. p. 428.
(2) Eyre: op. cit. p. 216.
(3) Orton: op. cit. pp. 166—167.

ومن الواضح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا ، اذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة اقطاعات يمنحها هؤلاء الحكام لرجال الدين ، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة ــ بوجه خاص ــ بهذا الحق ، واعتبروا تخليهم عنه خسارة كبرى تحيق بسلطانهم السياسى(١) ولكن الكنيسة هى التى خسرت خسرانا مبينا من جراء هذا الوضع الشـــاذ الذى أدى الى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابوية ، بعد أن أصبح الأساقفة أذنابا للملك أو الامبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضـــه ، لا لخدمة الكنيسة وتحقيق أغراضها . فالكنيسة كانت تريد من رجالهـا أن يخضعوا للبابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظائفهم الدينية ، فى حين أراد الحكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة اقطاعية وأن يتحكموا فى تعيينهم حتى يكونوا أداة فى أيديهم ، ولا سيما أن رجال الكنيسة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة ــ التى تستطيع القراءة والكتابة ــ ومن ثم اشـتدت حاجة الحكام العلمانيين اليهم فى الشئون الادارية(٢) .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى تدخل الملوك والأمراء فى اختيار البابوات أنفسهم ، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية ــ وبوجه خاص بعد وفاة بندكت الثامن سنة ١٠١٤ ــ واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم ، حتى ولو كان من غير رجال الدين ، مما جعل كثيرا من البابوات يستنجدون بالأباطرة الألمان كما سبق أن رأينا(٣) . ولكن قيـام الأباطرة الألمـان بحماية البابوية جعل هذه الأخـيرة صنيعة لهم ، مما ساء الكرادلة المصلحين ، فانتهزوا فرصة وفاة الامبراطور هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ عن طفل صغير ــ هو هنرى الرابع ــ واختاروا البابا ستفن التاسع عقب وفاة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government. p. 237
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 132.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 14—15.

البابا فكتور الثانى سنة ١٠٥٧(١) • ويبدو أن هذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البابا ستفن التاسع وعينو البابا بندكت العاشر ، وعنـدئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عـزله هو الآخر • ولوضع حد لهذه الفوضى دعا البابا نيقولا الثانى مجمعا دينيا فى روما سنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيار البابا وانقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها • وكان أن قرر هذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم – وهم أساقفة روما وضواحيها السبع – انتخاب البابا ، على أن يستدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقة على هذا الاختيار (١) • هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيار البابا من بين رجال الاكليروس فى روما نفسها ، الا فى حالة عدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البابوى فى أحدهم ، فاذا تعذر لأى سبب اجراء عملية انتخاب البابا فى روما فانه يجوز اجراء هذه العملية فى أى مكان آخر (٣) • وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا ، فضلا عن أن اختيار البابا أصبح انتخابيا فى هيئة مختارة من صفوة رجال الكنيسة • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن هذا الاجراء كان الخطوة الأولى فى سبيل اقامة حكومة مركزية فى الكنيسة تستطيع أن تباشر الاصلاح الكنسى بوجه عام (٤) •

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى الكاردينال هلدبراند ، الذى رأى بثاقب بصره اقناع أعضاء المجمع بعدم المساس بحقوق الامبراطور القائم وهو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفاؤه من أى حق فى اختيار البابوات • ولم تلبث شهرة هلدبراند ومكانته أن أدت الى المناداة به بالاجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم جريجورى السابع ،

---

(1) Hayward: op. cit. p. 153.

(2) Bryce : op. cit. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 37 c

(4) Eyre: op. cit. p. 134.

وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى (١) •

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) :

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم الا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى ، لأن هذه النظرية قديمة ترجع الى أيام جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤) • بل ان البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ - ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته مع الامبراطور أنسطسيوس (٢) • ولكن اذا كانت نظرية السمو البابوى فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع الا أن من حقه أن يفخر بأنه أول من طبق هذه النظرية فى اصرار وعناد (٣) • ذلك أنه كان يقدر ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال « اننى لا أقبل البقاء فى روما يوما واحدا اذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة » •

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى - كما سبق - السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى (٤) • وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى بفصل كل من توصل الى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء ، وأن لا يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها • كذلك تقرر فصل كل عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته • أما عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى الى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنة الرسل وتعاليم البابوية ، كما

---

(1) Byrce: op. cit. p. 155.
(2) Idem, p. 158.
(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 271.
([illegible] am. Med. Hist. Vol. 5, p. 61.

منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع اليهم (١) ٠

على أنه اذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية فى الكنيسة ، فانه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلمانى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين ، وعلى رأسهم امبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وايطاليا ٠ وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع الى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة « ان قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » ٠ أما خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب الى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧) ٠ وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها (٢) : ـ

ـ البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية ٠

ـ البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم ٠

ـ جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده ٠

ـ للبابا الحق فى عزل الأباطرة ٠

ـ لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا ٠

ـ ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس ٠

---

(1) Eyre: op. cit. p. 135.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 439—400.

ــ لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته •

ــ للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وايمان الولاء التى أقسموها لحاكمهم •

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن ايمانا قويا بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى Societas Christiani وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس • فاذا امتنع حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فان لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية والمادية Spiritualibus et Saeclaribus armis وبعبارة أخرى فان جريجورى السابع رأى أن الطريق الوحيد لاصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور ، هو اخضاعه للكنيسة واخضاع الكنيسة للبابوية • لذلك وجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« ان أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين ، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس • واذا جرؤ امبراطور أو ملك أو دوق أو كونت ، أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فانه يحرم من الكنيسة فورا (٢) »

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير كافة رجال الدين فى الأسقفيات والكنائس والأديرة من اشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد ، كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين فى العالم

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p.281
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 367..

المسيحى الغربى ، من حيث تعيينهم فى مناصبهم والفصل فى مشاكلهم والاشراف على أعمالهم (١) .

وهكذا أخذت سياسة جريجورى السابع تنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين ، فرفض وليم الفاتح ملك انجلترا الاعتراف بسيادة البابويه والتبعية لها (٢) . فى حين لم يعبأ فيلب الاول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨) بأراء البابا وطلباته واستمر فى سياسته نحو الكنيسة (٣) . أما أباطرة ألمانيا فكان من الطبيعى ألا يقبلوا قرار جريجورى السابع العنيف الذى يمس سيادتهم واشرافهم على رجال الدين فى بلادهم ، ولا سيما أن نحو نصف أراضى ألمانيا وثروتها كانت بأيدى رجال الدين من أساقفة وديريين ، فكان معنى تنفيـــذ قرار جريجورى السابع خروج هذه الأراضى من قبضة الامبراطور ودخولها تحت سيطرة البابا ، الأمر الذى يجعل الحكومة الامبراطورية ضربا من الشكليات أو المستحيلات (٤) .

وهكذا أوشكت البابوية أن تقع فى صدام عنيف مع السلطة الزمنية ، وهو النزاع الذى شغل أوربا طوال القرنين التاليين ، حتى أصبح تاريخها فى تلك الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد ، هـــو البــــابوية والامبراطورية (٥) .

وهنا نشير الى أن جريجورى السابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الاصلاحية العنيفة لم يعتمد على سلاح التشريعات والأوامر البابوية التى أصدرها فحسب ، وانما اعتمد أيضا على سلاح قوى ، هم رجال الأديرة الكلونية أو « الرهبان السود » كما أسماهم المعاصرون ، وهؤلاء كانوا قوة عظمى ساندت البابا فى سياسته واعتمد عليهم فى تنفيذها ، كما اختار منهم مندوبيه ورسله الى الزعماء العلمانيين والدينيين (٦) .

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 64—65.
(2) Adams: The History of England, pp. 49—50.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 80.
(4) Bryce: op. cit. p. 156.
(5) Ullmann: Madiaeval Papalism, p. 1.
(6) Hoyward : op. cit. pp. 158.

الباب الثاني عشر

الامبراطورية والبابوية

عندما توفى هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنرى الرابع الذى كان عندئذ فى السادسة من عمره ، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ - ١٠٧٢) (١) • ولا شك فى أن قيام صبى قاصر على عرش الامبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الامبراطورية وسلطانها ، فى الوقت الذى نفخت الحركة الكلونية روحا جديدة فى الكنيسة الغربية أدت الى ازدياد نفوذ البابوية التى وجدت حلفاء أقوياء لها فى النورمان بجنوب ايطاليا من جهة وفى كونتية تسكانيا من جهة أخرى (٢) •

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجنى Agnes - أم هنـــرى الرابـــع وصاحبة الوصاية عليه - الوقوف فى وجه كبار الدوقات والأمراء ، فدبر آنــــون - Annon - رئيس أســـاقفة كولونيـــا - مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضعه تحت وصايته سنة ١٠٦٢ (٣) ، الأمر الذى استدعى تنحى الامبراطورة الوالدة عن الوصاية بعد ست سنوات (١٠٥٦ - ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنرى الرابع سنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ فى الخامسة عشر من عمره (٤) • ويبدو أن السلطة الفعلية فى الدولة أصبحت فى تلك الفترة بأيدى أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذى

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.
(2) Eyre: op. cit. p. 137.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 351.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 122.

كان رجلا طموحا فسيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعا ، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية وغير الدينية . هذا فى الوقت الذى استطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابع بسلطانه على الجزء الشمالى من ألمانيا (١) . على أن هذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء ، فعقدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أو ترك العرش ، فاختار الملك الحل الأول ، وان ظل أدالبرت محتفظا بنفوذه خلال فترات متقطعة (٢) . وهكذا لم يتيسر ايجاد حل للموقف يكفل للامبراطورية شيئا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى ثورنجيا سنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا سنة ١٠٧٠ ، كما أخذت ايطاليا تفلت تدريجيا من قبضة الامبراطورية (٣) .

وبوفاة أدالبرت سنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخذ يباشر الحكم فى صورة عملية . ويبدو أنه كان قليل الثقة فى ولاء أهالى الأجزاء الشمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هو اليها ، وأكثر من تشييد القلاع فى سكسونيا وثورنجيا فى الشمال (٤) ، كما حشد تلك القلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمال العبث والاعتداء على الفلاحين . ولم تلبث هذه السياسة التى انتهجها هنرى الرابع أن استثارت غضب أمراء الشمال ، فثارت سكسونيا وبافاريا سنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضلا عن المزارعين الأحرار (٥) . وعندما نجح هنرى الرابع فى اخماد تلك الثورة سنة ١٠٧٥ صمم على حكم البلاد حكما استبداديا ، وان كان هذا الأسلوب لم يؤد الى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع فى ألمانيا ، وخاصة فى سكسونيا التى ظلت تتحين

---

(1) Barraclough: op. cit. pp. 93—94.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 447—448.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.
(5) Barraclough: op. cit. p. 95.

الفرص للثورة ضد الملك ، مما جعلها تلعب دورا مهما فى الصراع المقبل بين هنرى والبابوية (١) .

وفى ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجورى السابع . ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة ، فحرضوا هنرى الرابع على الغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التى نص عليها مجمع روما الدينى سنة ١٠٥٩ ، وانما أوصى البابا اسكندر الثانى باختياره خليفة له مما جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادى بهلدبراند بابا فى كنيسة القديس بطرس بروما (٢) . ولكن هنرى الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما ذهبوا اليه ، واكتفى بأن أرسل الى روما مستفسرا عن الظروف التى أحاطت باختيار البابا الجديد . وهنا أظهر جريجورى السابع - هو الآخر - كثيرا من الاعتدال ، فأجل بقية المراسيم الخاصة بتوليه المنصب البابوى حتى تتم موافقة هنرى الرابع على اختياره ، ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة فى يونيو سنة ١٠٧٤ . وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع فى تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التى أوفدها البابا الى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب ، كما وافق هنرى على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا اسكندر الثانى قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر قرار الحرمان ضدهم (٣) .

على أن جريجورى السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة فى شدة وحزم . وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التى نشبت فى سكسونيا وأصدر فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ قرارا بمنع جميع القساوسة المتزوجين فى ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس ، مما أوجد حالة من الاستياء وعدم الاستقرار(٤) . وبعد عدة أشهر - أى فى فبراير

---

(1) Eyre: op. cit. p. 137.
(2) Hayward: op. cit. pp. 156—157.
(3) Barraclough: op. cit. p. 108.
(4) Ibid.

١٠٧٥ – أصدر جريجورى السابع قراره العنيف ضد التقليد العلمانى ، كما سبق أن أشرنا ، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام وأثار مخاوفهم جميعا (١) • ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معناه قلب نظام الحكم فى الامبراطورية رأسا على عقب ، مما تطلب من هنرى اتخاذ موقف حازم تجاه القرار البابوى السابق • وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصمود فى وجه البابا ، أهمها فراغه من ثورة سكسونيا فضلا عن تأييد الأساقفة الألمان له لتخوفهم من شدة البابا الجديد وعنفه (٢) • ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى السابع من ناحية وموقف هنرى الرابع من هذه السياسة من ناحية أخرى ، الى فتح باب النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى • والواقع أن هذا النزاع – الذى بدأ حول مشكلة التقليد العلمانى – له أهميته البالغة فى التاريخ ، لأنه أعمق من مجرد خلاف شكلى حول بعض المراسيم الكنسية – كما يظن البعض – وربما كان من الأصوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجال الدين والنزاع الذى نشأ حول هذا التقليد ، لم يكن سوى محورا للحركة الاصلاحية الكنسية الكبرى ، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العام (٣) •

وقد مر النزاع بين البابوية والامبراطورية بعدة أدوار ، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة ، مع عدم اغفال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لها الامبراطورية المقدسة خلال حوادث النزاع •

الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة ، وبخاصة فى شمال ايطاليا ، اذ أصر

(1) Bryce: op. cit. p. 156.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 128.
(3) Eyre: op. cit. p. 137.

كل من البابا والملك على أنه له وحده حق تعيين من يشغلون هذه المناصب ، وتمسك كلاهما برأيه لأنه رأى فى انتصار خصمه تحطيما للمبدأ الـــذى يسعى هو من أجل تحقيقه . فهنرى الرابع وجد فى تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أسلافه ، وأن نجاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته فى ايطاليا وغير ايطاليا من بلدان الامبراطورية ، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه فى أسقفيتى فرمو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى (١). أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبه بنظرية السمو البابوى بحكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووريث القديس بطرس فى الغرب ، كمـــا اعتبر نجاحه فى فرض رأيه على الامبراطور أمرا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الاصلاح الكنسى ، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها .

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أسقفا جديدا لميلان — هو تدالد Tedald — سنة ١٠٧٥ ، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع (٢) . ويبدو أن جريجورى السابع كان مستعدا عندئذ للتحدى والنزال ، فأرسل رسالة شديدة اللهجة الى هنرى الرابع فى أواخر سنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والثبور ان لم يخضع لرأى البابوية . وفى ذلك الوقت ثارت ثائرة الملك فعقد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦) قرر بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ثم عزله من منصبه (٣) . وعندما سمع جريجورى السابع بهذا القرار قابله بشيء من الهدوء ، فدعا هو الآخر مجمعا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له ، وبذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين (٤) .

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 451.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale; Vol. 1, p. 370.
(3) Barraclough: op. cit. p. 109.
(4) Hayward: op. cit. p. 160.

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، الا أنه من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة ، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين : الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحيا ، والثانية عقوبة العزل بوصفه ملكا (١) • وبعبارة أخرى فان كفتى البابوية والامبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع ، بل طيلة الأدوار التالية التى مر بها ذلك النزاع ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها شعور المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها ، فى حين لم يكن للامبراطور سوى سندين : أولهما القانون الرومانى الذى يمجد الامبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها ، وثانيهما الجيش الامبراطورى الذى ثبت عجزه فى أكثر من مناسبة عن اخضاع البابوية (٢) • والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة ، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك • أما ذوو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك (٣) • وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير أتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة ، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم (٤) • وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء ، اذ كانوا جميعا يخشون نزعته الاستبدادية • وكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 301
(2) Ullmann: Medieval Papalism; p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.
(4) Eyre: op. cit. p. 138.

مجمعا فى تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع وانذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا ان لم يغفر له البابا فى مدة أقصاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ فى أحد الأديرة محروما من جميع شعائر الملكية وحقوقها(١)

وكان أن انسحب هنرى الرابع الى ذلك الدير يفكر فى موقفه ، وان كان الموقف فى غير حاجة الى تفكير طويل • ذلك أنه وجد نفسه وحيدا أمام خصم عنيد لا يرحم ، فلابد له من التراجع والاستسلام اذا أراد انقـــاذ عرشه ، ولا سيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة الى البابا للحضور الى أوجسبرج ، مما تطلب من هنرى الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه فى ألمانيا فيؤدى ذلك الى مظاهرة عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد فى موقفه (٢) • وأخيرا لم يجد هنرى الرابع أمامه حلا سوى أن يرحل سرا الى البابا ، فى الوقت الذى كان الأخير قد بدأ رحلته فعلا الى ألمانيا ، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنرى الرابع عبر الألب اليه ، واحتمى البابا فى قلعة كانوسا التـــابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا (٣) • وكان البرد قارسا عندما أخذ هنرى الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر الى قلعة كانوسا ، حيث بقى ثلاثة أيام واقفا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل تطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧ (٤)) • ويقال ان هنرى الرابع دخل على البابا حافى القدمين ، مرتديا ثوبا من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف ، حتى اذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمى بين قدميه وانفجر باكيا وهو يصيح « أغفر لى أيها الأب المقدس » ، فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصح والارشاد (٥) •

(1) Tout: The Empire and The Papacy, p. 130.
(2) Barraclough: op. cit. 110.
(3) Stephenson: Med. Hist. p. 291.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.
(5) Hayward: op. cit. p. 161.

وهكذا استطاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطالب بولاء رعاياه، ولكن بعد أن دفع ثمنا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة • فها هو حاكم الامبراطورية العظيم يذل نفسه للبابوية ويعترف بحقها في حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته • وها هو خليفة قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا موقف الحكم بينه وبين شعبه ، ان شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وان شاء أمرهم بالامتثال له • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البابوية بالامبراطورية فى كانوسا كانت قاصمة ، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقا بعد ذلك (١) •

والواقع — كما يبدو فى ضوء التطورات التالية — أن هنرى الرابع لم يستفد كثيرا من مقابلة كانوسا ، كما أن هذه المقابلة لم تكن مكسبا على طول الخط بالنسبة لجريجورى السابع (٢) • حقيقة ان البابا خرج من هــذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو البابوية • ولكن مسلك جريجورى السابع العنيف أثار استياء نسبة كبيرة من الرأى العام فى العالم المسيحى ، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة • أما هنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خسارته فى كانوسا فاقت مكسبه لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخارجين عليه فى ألمانيا ، بل ان أنصاره من اللمبارديين فى شمال ايطاليا ساءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلعه واحلال ابنه محله (٣) • هذا فى الوقت الذى اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرا الى كانوسا خروجا على العهد الذى أخذه على نفسه تنفيذا لقرارات تريبور التى قضت بانزوائه فى أحد الأديرة حتى يغفر له البابا (٤) • ولذلك عقد الأمراء

---

(1) Orton: op. cit. p. 212.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 455.
(4) Barraclough: op. cit. p. 110.

الألمان مؤتمرا فى فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله • وهنا حرص الأمراء قبل البدء فى الاجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز ، على أن يأخذوا عليه موثقا بألا يطالب بأى حق وراثى لأبنائه فى العرش وألا يتدخل فى حرية انتخاب الأساقفة (١) •

على أن شعور العطف على هنرى الرابع أخذ يتزايد فى سرعة حتى بلغ حدا أصبحت عنده معظم ألمانيا فى جانبه ، ما عدا سكسونيا التى ناصرت رودلف • وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ — ١٠٨٠) ، ولا يعنينا من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع • ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنرى ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته (٢) • وعندما انتصر رودلف على خصمه فى موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة فى أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون ، فعقد مجمعا دينيا فى مارس من نفس السنة قرر اعادة توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وإقصائه عن عرش الامبراطورية (٣) •

وهكذا أخذ جريجورى السابع ينادى بأنه قبل أن تحل بداية العام التالى سيكون هنرى الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا ، ولكن شاءت الظروف ألا تحقق له شيئا من أمانيه • ذلك أن هنرى الرابع أدرك أنها معركة حياة أو موت فأظهر اصرارا وحماسة بالغين ولا سيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له فى ايطاليا وألمانيا (٤) • لذلك رد هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية سنة ١٠٨٠) دعا اليه أنصاره

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 409.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 133.

من أساقفة ألمانيا وشمال ايطاليا ، وقرر هذا المجمع عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية (١) • وقد امتاز هذا البابا الجديد ـ الذى اتخذ اسم كلمنت الثالث ـ بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركسن الى رافنا ليوجه الأمور فى شمال ايطاليا ضد منافسه جريجورى السابع • وهكذا اشتد النضال وتعقد الموقف ، بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان الكرسى البابوى واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية (٢) واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وايطاليا جميعا ، اذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفاف نهر الستر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير (٣) • وعندما وجد هنرى الرابع أن السكسون أضاعوا ثمرة انتصارهم فى الخلاف حول اختيار خليفة لرودلف ، أسرع بعبور جبال الألب الى ايطاليا (مارس ١٠٨١) لمواجهة خصمه اللدود جريجورى السابع • وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صوب روما(٤)• وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا سندا يعتمد عليه سوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا من جهة وقوة النورمان من جهة أخرى • ولكن شاء سوء حظ جريجورى السابع أن تصاب قوات الأميرة ماتيلدا بهزيمة ساحقة عند فولتا Volta قرب مانتوا ، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية ، مما جعل الطريق مفتوحا أمام هنرى الرابع الى روما (٥) • أما جريجورى السابع فلم يفقد ثباته فى ذلك الموقف وانما اعتمد على حصانة روما ، وبذلك ظل هنرى الرابع فى

---

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 351—352.
(2) Barraclough: op. cit. p. 125.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 413.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 78.
(5) Barraclough: op. cit. p. 125.

ايطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها الا بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤) . وفى روما أسرع هنرى الرابع الى دعوة مجمع دينى قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة ، وأعقب ذلك اعتلاء كلمنت كرسى البابوية فى روما وتتويج هنرى الرابع امبراطورا فى كنيسة القديس بطرس (١) .

أما جريجورى السابع فكان قد احتمى بسانت أنجيلو - قلعة روما الحصينة - ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب ايطاليا للاسراع الى نجدته . وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما ، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنرى الرابع فى ايطاليا مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم (٢) . ولم يكن هنرى الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان ، فآثر مغادرة روما قبل أن يصلوا اليها ، واتجه الى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده (٣) . وهنا أسرع أهالى روما الى اغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم ، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤) ، فانساب رجاله فى شوارعها ينهبون ويدمرون ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق ، ثم انسحب النورمان بعد ذلك الى جنوب ايطاليا ، تاركين روما تنعى مجدها وحرمتها (٤) . وقد أثارت هذه الأحداث الرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حل بروما على أيدى حلفائه النورمان . لذلك خشى جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به ، وآثر مرافقة حلفائه النورمان الى

---

(1) Hayward: op. cit. p. 162.
(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 135.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 420.
(4) Haskins: The Normans in European History; p. 205

سالرنو حيث مرض ومات في مايو سنة ١٠٨٥ (١) • وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله « لقد أحببت العـــــدالة وكرهت الظلم ولذا أموت مغتربا » (٢) •

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلمانى لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء في روما بعد أن حولها النورمان الى حطام ، فغادرها الى رافنا بشمال ايطاليا • وهكذا ظل الكرسى البابوى شاغرا في روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦) (٣) • وكان هذا البابا الجديد صديقا حميما لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه ، ولكنه كان ـ بحكم كبر سنه ـ أضعف من أن يقوم بالدور الذى قام به سلفه العظيم • وعند وفاة فكتور الثالث في أواخر سنة ١٠٨٧ اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثانى الذى شابه جريجورى السابع في تحمسه للاصلاح الكنسى ، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة في انتقاء الوسائل التى ينفذ بها أغراضه ، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهـــة والأميرة ماتيلــدا والنورمان من جهة أخرى (٤) • على أن أوربان الثانى لم يستطع الاقامة في روما طويلا بسبب احتلال قوات البابا الامبراطورى - كلمنت الثالث ـ لقلعتها، فاتجه الى جنوب ايطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورمانى (٥) • وكان أهم ما قام به أوربان الثانى في تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنرى الرابع في ألمانيا وايطاليا ، وذلك عن طريق عقد زواج سياسى سنة ١٠٨٩ بين الأميرة ماتيلدا حليفـــة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welf الخامس دوق بافاريا ، وهو أقوى منافسى هنرى الرابع (٦) •

---

(1) Hayward: op. cit. p. 162.
(2) Bryce: op. cit. p. 160.
(3) Hayward: op. cit. p. 163.
(4) Barraclough: op. cit. p. 126.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
(6) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 435.

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسبيا فى ألمانيا ، فأخذ هنرى الرابع يوجه نشاطه نحو ايطاليا وانتقل اليها من جديد سنة ١٠٩٠ (١) • وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى ايطاليا بين سنتى ١٠٩٠ - ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق ، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها ، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها (٢)• ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا شجع خصومه ، فحرضوا ابنه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن اللمباردية الى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على ايطاليا فى السنة نفسها ، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تسكانيا وزوجها الولفى (٣) • أما البابا أوربان الثانى فقد شجعته هذه الأحداث على العودة الى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣ ، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجامع الدينية لتقوية جانب الكنيسة • وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وبذلك حقق للبابوية نصرا عظيما وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المسلمين (٤) • وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالامبراطور هنرى الرابع الى مغادرة ايطاليا يائسا سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ لم يجد أمامه خلا سوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة ، فعين الابن الأكبر للامير ولف دوقا على بافاريا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره سنا • أما كونراد - ابن الامبراطور - فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه (٥) •

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى ايطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البابوية والنورمان فى الجنوب ، وذلك

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 440—441.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 139.

عندما توفى فجأة في يوليو ١٠٩٩ ثم لحق به منافسة البابا الامبراطوري كلمنت الثالث في العام التالى • وعلى الرغم من أن هنرى الرابع رغب حينئذ في الصلح مع البابوية الا أن الشروط التى طلبها أوربان الثانى ثم تمسك بها خليفته باسكال الثانى جعلت تحقيق هذا الصلح أمرا متعذرا (١) • ذلك أن البابا الجديد باسكال الثانى الذى تم انتخابه في أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شديد التمسك بمبادىء جريجورى السابع وآرائه ، ومن ثم بدأ أعمالـــه باصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنرى الرابع ، كما أخذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنرى الصغير سنة ١١٠٤ (٢) • ويبدو أنه لم يتبق لدى هنرى الرابع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفى للدخول في صراع جديد ضد البابوية ، فاستسلم لابنه هنرى الخامس وتنازل عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفى الأب في العام التالى •

وسرعان ما أدرك هنرى الخامس أن خيانته لأبيه لم تفده كثيرا ، وأن البابوية التى اعترفت به ملكا في حياة أبيه أخذت تعكر أمامه الجو داخل ألمانيا وخارجها • هذا في الوقت الذى استكشفت البابوية أن هنرى الخامس لم يقل عن أبيه تمسكا بحقوقه في التقليد العلمانى ، وأنه أخذ ــ بمجرد اعتلائه العرش ــ يملأ الأسقفيات الشاغرة في الامبراطورية وفق هواه دون الرجوع الى رأى البابوية (٣) • وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلمانى بدون حل ، اذ تمسك كل من البابا والامبراطور بحقوقه في تقليد الأساقفة• وبعد أن قضى هنرى الخامس سنتين في حروب ضد هنغاريا وبوهيميا ، عزم على تصفية الموقف مع البابوية • ولكن هنرى الخامس ــ على النقيض من والده ــ قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء ليجعل من ألمانيا جبهة متحدة تسانده في صراعه المقبل مع البابوية (٤) • وهكذا استطاع هنرى الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلمانى وهو مطمئن تماما الى مســـاندة أمراء

---

(1) Barraclough: op. cit. pp. 126—127.
(2) Hayward: op. cit. p. 170.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 454—455.
(4) Baraclough: op. cit. pp. 128—129.

ألمانيا وأساقفتها ، فرحل الى ايطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج امبراطورا في روما وليثبت حقوق الامبراطـــورية(١) وفي تلك المرة لم يصادف هنرى الخامس مقاومة تذكر فى ايطاليا بسبب حالة الانقسام التى كانت تعانيها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثانى من جهة أخرى • وربما كان من العوامل التى أضعفت مركز البابا فى تلك المرحلة أن ماتيلدا - أميرة تسكانيا - وهى الحليفة التقليدية للبابوية فى نضالها ضد الامبراطورية ، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنرى الخـــامس وأعلنته وريثا لها فى امارتها ، وبذلك نكثت عهدها السابق بمنح أراضيها للبابوية (٢) • وفي هذه المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثانى سوى أن يفكر فى الوصول الى حل سلمي مع هنرى الخامس عندما اقترب الأخير من روما على رأس قواته فى أوائل سنة ١١١١ (٣) •

أما شروط الاتفاقية التى عرضها البابا على هنرى الخامس فجاءت غريبة فى طابعها جديدة فى نوعها ، اذ تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق اقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان (٤) ، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به الخيرون ، وفى مقابل ذلك تنتهى مصلحة الامبراطور فى التمسك بتقليد الأساقفة ، ويترك هذا الحق للبابا وحده • ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحية بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقابل احتفاظها بحقوقها الروحية ، وعلى رأســـها تقليد الأساقفة والاشراف عليهم (٥) • ومن الطبيعى أن يقبل هنرى الخامس هذا العرض الذى يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة ، ولكن المشكلة كانت تكمن فى موقف الأساقفة ورجال الكنيسة الذين سيفقدون أملاكهم وحقوقهم

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.
(2) Barraclough: op. cit. p. 129.
(3) Orton: op. cit. p. 216.
(4) Barraclough: op. cit. p. 129.
(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 460—461

وينخفضون فى معيشتهم الى مستوى معين لم يعتادوه فى القرون الأخيرة (١). وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس فى روما بالجموع التى وفدت لمشاهدة تتويج الامبراطور فى يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١ ، بدأ البابا الحفل بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنرى الخامس ، فثار الأساقفة الألمان والايطاليون جميعا واشتد سخطهم على البابا الذى قبل أن يضحى بأملاكهم وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البابوية وأملاكها سليمة لم تمس (٢) . ولم تلبث أن امتدت الثورة الى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل فيمن يصادفونه من الألمان ، مما جعل البابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنرى الخامس وحيدا دون نصير . وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له فى مسألة التقليد العلمانى ، فرضى البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى ، بذلك انتصر هنرى الخامس وثأر لما حل بأبيه فى كانوسا (٣) .

على أن المخلصين من أبناء الكنيسة لم يرضوا عن هذا الاستسلام فاشتد حنقهم على البابا باسكال الثانى ، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه سوى نقض الاتفاقية المعقودة بينه وبين الامبراطور ، على أساس أنها تمت تحت تأثير الضغط والارهاب (٤) . وهكذا أخذت الصعاب تحيط بالامبراطور هنرى الخامس لا سيما بعد أن دبرت بعض المؤامرات وقامت عدة ثورات ضده فى أنحاء متفرقة من ألمانيا (٥) . وفى ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا فى ايطاليا سنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية ، ولو أن وصية الأميرة ماتيلدا نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا أعظم سلطة زمنية فى ايطاليا ، ولكن الامبراطور هنرى الخامس أسرع الى ايطاليا فى العام التالى لاثبات حق الامبراطورية فى تلك التركة ، واحتل روما

---

(1) Cam. Med. Vol. 5, pp. 102—103.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 143.
(3) Barraclough: op. cit. p. 130.
(4) Hayward: op. cit. p. 172.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 144.

سنة ١١١٧ حيث توجت زوجته الانجليزية (١) . أما البابا فقد فر من روما ليحتمى بالنورمان فى الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم فى توقيع عقوبة الحرمان على الامبراطور (٢) . وقد خلف باسكال الثانى البابا جلاسيوس الثانى (١١١٨ - ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٤) . وكان الأخير سياسيا قديرا جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا . لذلك صمم البابا كالكستس الثانى من أول الأمر على فض النزاع مع الامبراطورية ، فعقد مجمعا دينيا لهذا الغرض فى ريمس كما أرسل مندوبين الى الامبراطور للتفاهم معه ، بل ان البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الامبراطور ، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الاسراع بالعودة من حيث أتى (٣) . على أنه يبدو أن الامبراطور هنرى الخامس كان قد مل النزاع هو الآخر فأظهر استعدادا للتفاهم ، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الاشكال لأول مرة فى جو مشبع بروح الاعتدال والرغبة فى التفاهم . وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم أصبح ممهدا سهلا ، اذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد ، ومن ثم دفع الشك الجانبين الى الدخول فى تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنرى الخامس سنه ١١٢٠ (٤) .

ولم يلبث هنرى الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة فى التشكك والاسراف فى سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى ألمانيا . هذا فى الوقت الذى عاد البابا كالكستس الثانى فأرسل الى الامبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس اضعاف الامبراطورية وتقليل شأنها وانما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها (٥) . وهكذا عادت روح الاعتدال والرغبة فى التفاهم لتمهد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.
(2) Barraclough: op. cit. p. 131.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 479.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 146.
(5) Barraclough: op. cit. p. 132.

لاستئناف المفاوضات التى قدر لها النجاح تلك المرة ، حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى سنة ١١٢٢ (١) • وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الاساقفة ومقدمى الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون أى تدخل من جانب السلطة العلمانية ، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الامبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة • أما فى ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب ، وللامبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف « دون الالتجاء الى السيمونية أو العنف » • وبعد أن يتم انتخاب الأسقف قانونيا يقلده الامبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الدينى (٢) •

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو اليه الكنيسة لأن حضور الامبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر فى سير الانتخاب ، ولكن يكفى ـ على أى حال ـ أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الامبراطور فى اختيار رجال الدين مما جعل البابا يظل سيد الموقف فى أوربا • وبعبارة أخرى فاننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلمانى وهى فى أوج قوتها وسلطانها ، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنرى الخامس وسلفه هنرى الثالث (٣) وقد حاول بعض الكتاب أن يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الامبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف ، فى حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثانى للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف • وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقلد

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.
(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 483.
(3) Bryce: op. cit. p. 161.

رجال الدين وبقى الأمير مناصفة بين الطرفين (١) .

ولكن اذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلمانى وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ، الا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية (٢) . ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جـوهر النزاع بين السلطتين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التى كمن فيها الخلاف ، وهى أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السـيادة العليا : البـابوية أم الامبراطورية (٣) ؟ وما دامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فانه لا يمكن القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية قد وصل نهاية ترضى الطرفين ، لأن مشكلة التقليد العلمانى لم تكن فى حقيقة أمرها الا مظهرا للتنافس بين البابوية والامبراطورية حول سيادة العالم (٤) .

احوال الامبراطورية بعد اتفاقية ورمز :

أما عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى فمن الواضح أنها كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسـبة للامبراطورية . ذلك أن محاولة البيت السالى اقامة ملكية قوية باءت بالفشل، بمعنى أنه ليست البابوية أو الامبراطورية هى التى خرجت فائزة من هذا الصراع ، وانما كان كبار الأمراء فى ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم الى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم(٥) . وهـكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى الى ازدياد شدة التيار الاقطاعى فى ألمانيا حتى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية للتنظيم

---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 463.
(2) Barraclough: op. cit. p. 133.
(3) Idem: pp. 139—140.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 184.
(5) Barraclough: op. cit. p. 134.

السياسى فى البلاد . وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى اذ أصبح ضعاف الأحرار — وبخاصة من المزارعين — أقنانا ، فى حين غدا أقوياؤهم فرسانا وأفصالا ، تربطهم روابط عديدة بسادتهم الاقطاعيين ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى (١) . ومن الواضح أن انتشار النظام الاقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها ، لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الامبراطور لم يعد له نفوذ مباشر الا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد ، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الاقطاعيين (٢) .

أما البابا كالكستس الثانى والامبراطور هنرى الخامس فلم تقدر لهما الحياة طويلا بعد اتفاقية ورمز ، اذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو سنة ١١٢٥ . وقد ساعدت كثير من الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز . ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا ، وهو الدوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضد السلاف (٣) . وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد وارث دوقيتى بافاريا وسكسونيا (٤) . على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو هنشتاوفن

---

(1) Idem: pp. 136—138.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108, 163 & Barraclough op. cit. p. 139.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334—335.
(4) Eyre, op. cit. p. 159.

أمراء سوابيا ، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القـــادر على استرداد هيبة الامبراطورية وعظمتها نتيجة لضعفه وتقدم سنه .

هذا عن ألمانيا ، أما الشطر الثانى من الامبراطورية وهو ايطاليا ، فان البابوية سرعان ما وجدت نفسها فى مأزق خطير أمام توسع النورمان فى جنوب ايطاليا بعد أن تم لهم الاستيلاء على صقلية سنة ١٠٩١ (١) . ومن ثم وحدوا صقلية وكالبريا أوبوليا تحت سيطرتهم مما أفزع البابوية ، فهبت تدافع عن نفسها أمام هذا الخطر العظيم . وكان أن أخذ البـــابا هنريوس الثانى (١١٢٤ - ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمراء ايطاليا ضد النورمان ، حتى اضطر اخيرا الى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى فى أبوليا وصقلية . ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى « كونت » و « دوق » اللذين تلقب بهما أمراؤهم الأوائل فاحتفل فى يوم رأس السنة عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو (٢) . ثم كان أن نشأ نزاع حول الكرسى البابوى بعد وفاة البابا هنريوس الثانى ، ففر البـــابا انوسنت الثانى الى ملك ألمانيا مستنجدا به ضد خصومه ، ولما أنجده لوثر الثانى ، كافأه البابا بتتويجه امبراطوريا فى روما سنة ١١٣٣ . والمهم فى أمر هذه الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لايطاليا سنة ١١٣٣ هو أنه خالف ســـياسة سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا ، على أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كاقطاع مقابل ايجار سنوى . ومعنى ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الامبراطور فى صورة فصـل اقطاعى للبابا (٣) .

وعند وفاة الامبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨ ، كان أقوى رجلين فى ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولفى ، وكونراد هو هنشتاوفن دوق سوابيا . وقد خشى كبار النبلاء قوة هنرى وبطشه ، كما

---

(1) Haskins: The Normans in European History p. 209.
(2) Idem, p.. 210—211.
(3) Barraclough: op. cit. p. 157.

تخوفت الكنيسة من قيام رجل قوى مثله فى عرش الامبراطورية ، ولذلك تم اختيار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا « ١١٣٨ — ١١٥٢ » (١). ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفيين — وهم امـــراء سكسونيا — والجبللينيين — وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن — نسبة الى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم (٢) . وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الايطالية الى الجلفيين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الامبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية ، فى حين أصبح اسم الجبللينيين يطلق على أنصار الامبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام (٣) .

وكان كونراد الثالث هوهنشاوفن ضعيفا ، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج امبراطورا منذ أوتو العظيم (٤) . وزاد من ضعفه أن تغيير البيت الحاكم أكثر من مرة سنة ١١٢٥ ثم سنة ١١٣٩ وما تبع ذلك من حروب أهلية ، أدى الى انكماش الأراضى الخاصة بالتاج ، وبالتالى ، الى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الاقطاعى من ضياعه الخاصة . وهكذا وجد كونراد الثالث نفسه لا يمتلك قوة مادية — لا سيما فى شمال ألمانيا — تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج . وقد جاء ضعف الملكية الألمانية فى تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هى أزدياد نفوذ كبار الأمراء فى انتخاب الملك ، وهى الظاهرة التى غدت بمثابة الطـــابع المميز للفترة الواقعة بين سنتى ١١٠٦ ، ١١٥٢ (٥) . أما فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من ايطاليا والبابوية فيلاحظ أنه أضاع معظم جهوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية ، مما أضعف هيبته فى ايطاليا حتى أعلن البابا انوسنت الثانى فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش (مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز ، وأن البابا له السيادة العليا على

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 231.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 347—349 & 404.
(3) Eyre: op. cit. p. 159.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358—359.
(5) Barraclough: op. cit. pp. 158—160.

بجميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها (١) • وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية ، وفضل العمل على توطيد نفوذه فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولفى ، مما أدى الى حرب أهلية لم تنته الا سنة ١١٤٢ (٢) •

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء ، مع اتصافه بسرعة الغضب والايمان المطلق بعظمة الوظيفة الامبراطورية وسموها (٣) • وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الامبراطورية ومجدها المفقود ، وهو المجد الذى لا يتحقق - فى نظره - الا بالربط بين شطرى الامبراطورية فى ألمانيا وايطاليا • لذلك بدأ بعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣ وفيها تعهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثانى ملك صقلية دون موافقة البابا ، وأن يقوم فردريك باخضاع أعداء البابا والثائرين ضده مقابل تتويج البابا له امبراطورا ومساندته ضد خصومه فى ألمانيا (٤) •

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب الى ايطاليا وينصرف الى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا • لذلك أخذ يتقرب الى الأمراء ويسترضيهم ، فرد بافاريا الى هنرى الأسد عميد الولفيين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا ، كما استرضى بقية الأمراء حتى قوى نفوذهم على حسابه ، وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر ايطاليا (٥) • ويبدو أن الموقف فى ايطاليا كان خطيرا حينذاك الى الدرجة التى جعلت فردريك الأول يسرع بالذهاب

---

(1) Hayward: op. cit. pp. 178—179.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 475.
(3) Bryce: op. cit. p. 166.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 247—248.
(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, 447.

اليها قبل أن يفرغ من اتمام مشروعاته الرئيسية فى ألمانيا نفسها • ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكها الصراع ضد النورمان فى الجنـــوب ، فى حين استطاعت المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا أن تتحرر من نفـــوذ الأمراء الاقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة فى ادارة شئونها (١) وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها فى حلفين متضادين ، أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا ، وان كانت رغبتها فى التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادى جعلتها تتفق جميعا فى سياسة واحدة ، هى مقاومة أية سيطرة تحاول الامبراطورية فرضها عليها (٢) • ولم يحاول أحـــد حكام الامبراطورية — مثل لوثر الثانى أو كونراد الثالث — أن يتدخل لاخماد هذه الحركة التحررية التى لم تلبث أن امتدت الى روما نفسها • ذلك أن أهالى روما قاموا بثورة ضد البابا انوسنت الثانى سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هى الأخرى الى قومون مستقل ، حتى انتهى الأمر بفرار البابا ايوجنيوس الثالث Eugenius III من روما سنة ١١٤٧ (٣) • والغريب فى أمر هـــذه الثـــورة أن زعيمها — وهـــو أرنولد البريشى Arnold of Brescia كان من رجال الدين ، فآمن بما سبق أن نادى به البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ من آراء تستهدف تخلى الكنيسة عن أراضيها الاقطاعية واكتفائها بالعشور والعودة الى حياة البساطة التى اتسمت بها المسيحية الأولى (٤) •

ومهما يكن من أمر ، فقد استنجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ — ١١٥٣) ثم البابا أدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) بالملك فردريك بربروسا، الذى لبى النداء سنة ١١٥٤ ، كعادة أسلافه من حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة • وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسى من ذهاب فردريك الأول الى ايطاليا فى تلك السنة كان اكتساب رضاء البابوية واثبات حسن نيته لها ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.
(2) Eyre: op. cit. p. 165.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 486.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371--372.

وليتوج امبراطورا فى روما مقابل ما يؤديه للبابا من خدمات أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشى وتثبيت سلطة البابوية فى روما (١) • وكان أن أستطاع فردريك بجيشه الصغير الذى لم يتعد ألفا وثمانمائة فارسا أن يخضع المدن اللمباردية ، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أرهبها وأعطاها درسا قاسيا (٢) • وبعد ذلك اتجه فردريك الى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤ ، وهو الانجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى (٣) • وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة ، فلم يستسلم للاخطار التى واجهت البابوية عندئذ ، وانما أنزل قرار الحرمان ضد روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين ، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة مغضوب عليها ، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا الى طرد ارنولد البريشى والدخول فى طاعة البابوية (٤) •

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد ، اذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Gampania على الشاطىء الغربى جنوبى روما — ونهبه ودمره ، وهدد بالزحف على روما نفسها • لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجنيوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣ ، حتى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول امبراطورا فى كتدرائية القديس بطرس بروما (١١٥٥ — ١١٥٦) (٥) • وقد تم التتويج سرا وبسرعة ، خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك ، والذين اشتدت ثورتهم عندما أعلن الخبر ، فى حين تناقصت جيوش الامبراطور واشتدت به الحاجة الى المؤن والامدادات ، فلم يستطيع الثبات فى وجه أهالى

---

(1) Barraclough: op. cit. p. 178.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 248.
(3) Orton: op. cit. p. 232.
(4) Tout: The Empire and the Papac·· p. 249.
(5) Hayward: op. cit. p. 184

روما الثائرين واضطر الى الفرار منها وبصحبته البابا (١) • وسرعان ما أدرك فردريك صعوبة البقاء في ايطاليا ، ولا سيما بعد أن سمع بأن الأوضاع في ألمانيا تستدعي عودته اليها ، فعبر جبال الألب الى بلاده تاركا البابا وحده في شمال ايطاليا • وهكذا اضطر أدريان الرابع الى مصالحة أهالي روما على أساس الاعتراف بمدينتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الايطالية ، وعلى هذا الأساس استطاع العودة الى روما في صيف سنة ١١٥٥ (٢) •

أما الامبراطور فردريك بربروسا فقد عاد الى ألمانيا ليواصل جهوده في توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء • قد تم للامبراطور ما أراد حتى بدا في نظر المعاصرين أعظم قوة في أوربا ، لا سيما بعد أن مد نفوذه الى برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦ (٣) • وزاد من نفوذ فردريك الأول وسطوته على أوربا أن بولسلاف الرابع صاحب بولندا وبولسلاف الثاني صاحب بوهيميا دانا له بالتبعية ، في حين اعترف له ملك الدانيين — بل هنري الثاني ملك انجلترا — بالسيادة (٤) ، وبذلك لم يبق أمام الامبراطور سوى تدعيم نفوذه في ايطاليا • وكانت العلاقة قد ساءت بين فردريك الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول الى ألمانيا في صيف سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا في ايطاليا • وهنا نعود فنكرر القول بأن المشكلة الكبرى بين الامبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة • واذا كانت الظروف قد اضطرت البابا والامبراطور الى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التي هددت نفوذهما من ناحية القومونات الايطالية من جهة وثورة أرنولد البريشي من جهة أخرى وخطر النورمان في الجنوب من جهة ثالثة ، فان هذا الاتفاق لم يكن معناه اطمئنان الطرفين بعضهما الى بعض بأي حال من الأحوال •

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركه الامبراطور

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 421.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 250.
(3) Barraclough: op. cit. p. 173.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 492.

وحيدا فى صيف سنه ١١٥٥ (١) • فالامبراطور ترك البابا دون أن يساعده فى اخضاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأملاك البابوية تهديدا واضحا • لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لابد من الاعتماد على نفسه ، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الاقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان ، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول امبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ — ١١٨٠) لمساعدته فى حربهم (٢) • ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضده ، فأسرع الى عقد اتفاقية بنفنتو سنة ١١٥٦ مع البابوية ، ورضى باعلان تبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية(٣) • وفى نفس هذه السنة أنزل وليم الأول النورمانى هزيمة كبرى بالبيزنطيين عند برنديزى حتى اضطر الامبراطور مانويل كومنين الى عقد الصلح مع الملك النورمانى سنة ١١٥٨ ونجحت وساطة البابوية فى اتمام ذلك الصلح (٤) • هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام القومون الرومانى وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة الى مساعدة الامبراطورية •

الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والامبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده ، ولم يبق بعد ذلك سوى أن يواجه كل منهما الآخر • والواقع أن فردريك الأول استاء من تحالف البابا مع وليم النورمانى من جهة ومع أهالى روما من جهة أخرى واعتبر ذلك نقضا للعهد بين الطرفين ، فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الامبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.
(2) Vasiliev: op. cit. Tome 11, p. 13.
(3) Orton: op. cit. p. 233.
(4) Ostrogorsky: op. cit. p. 342.

الامبراطورية وخارجها (١) • وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله الى ألمانيا - هو الكاردينال رولاند ، الذى عرف بصلابه رأيه وقوة عقيدته فى سمو الكنيسة ، فذهب المندوب ليعرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الامبراطور ، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند Lund الذى كان صديقا حميما لأدريان الرابع • وعندما دخل المندوب البابوى على الامبراطور فى مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غريبة ، اذ قال « ان البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك كاخوة » فدهش فردريك من هذه التحية التى جعلت من الكرادلة اخوة مساوين للامبراطور ، وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان (٢) • على أن الذى ضايق فردريك هو أن رسالة البابا اليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الامبراطورى يعتبر Beneficium من البابا (٣) • وهذا اللفظ اللاتينى يحتمل معنيين : اذ يمكن تفسيره على أنه يعنى « جميلا أو معروفا Benefit » كما يمكن تفسيره بمعنى اقطاع « Benefice » (٤) • واختار الامبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير ، أى أن البابا يعتبر التاج الامبراطورى منحة أقطعها للامبراطور ووهبها له • ومن ثم ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الامبراطورية ، وأيده فى موقفه الأساقفة الألمان • ولم يكن الامبراطور مبالغا فى غضبه أو ثورته لأن المندوب البابوى نفسه أصر على تفسير اللفظ على أنه يعنى « اقطاع » ، وقال لفردريك فى شجاعة « ممن اذن يتسلم الامبراطور امبراطوريته ان لم يتسلمها من البابا (٥) ؟ » ولكن فردريك أدرك جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعنى خضوع الامبراطور للبابا ، ولذلك رد مدافعا عن حقوقه « اننا نتسلم الامبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، ان شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفى الامبراطورية والبابوية،

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 253.
(2) Ibid.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390—420.
(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 341—342.
(5) Bryce: op. cit. p. 166.

كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (١) • وعلى هذا فان كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الامبراطورى اقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس » (٢) •

أما البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف واضطر الى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام — أى معروف أو جميل — ولم يقصد معناه الاقطاعى الخاص • وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الامبراطورية ، وان ظل سوء النية قائما عند الطرفين (٣) • وبعبارة أخرى فان أهمية هذا الحادث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والامبراطورية نحو الطرف الآخر كما مهد لتجدد النزاع السافر بين الجانبين • واذا كان النزاع بين الامبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فانه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الايطالية (٤) •

ذلك أن الامبراطور فردريك بربروسا كان — كما سبقت الاشارة — يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمة الامبراطورية ، ويؤمن بأنه خليفة قيصر وشارلمان ، ومن ثم يجب أن يتمتع بما كان لهذين الامبراطورين من نفوذ عالمى وسلطان واسع • وقد رأى الامبراطور فردريك الأول أن كثيرا من الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية انما هى فى حقيقة أمرها حقوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت الى أساقفتها حتى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فاستأثرت بهذه الحقوق (٤) • وبعبارة أخرى

---

(١) من الواضح أن الامبراطور استند فى هذه العبارة الى ما جاء فى العهد الجديد : (أكرموا الجميع ، أحبوا الاخـــوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأولى ، الاصحاح الثانى ، ١٧ •

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 254.
(3) Bryce: op. cit. p. 197.
(4) Eyre: op. cit. p. 65.
(5) Barraclough: op. cit. p. 180.

فان سيطرة الامبراطورية على المدن اللمباردية لا تعنى أكثر من استرداد حقوق الامبراطورية المفقودة فى شمال ايطاليا • ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى اخضاع المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا لسلطة الامبراطورية المباشرة ، بل أيضا فرض السيطرة الامبراطورية على الأراضى البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التى استأثرت بها البابوية • وطبيعى أن البابا كان لا يمكنه أن يقر هذا الوضع ، لأن أخطر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا مما يؤدى الى وقوع البابا تحت رحمته • ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الامبراطور (١) ، واذ وقف حزب كريمونا وبافيا فى جانب الامبراطور ضد الحزب الآخر الذى تزعمته ميلان • وكان أن عبر الامبراطور فردريك الأول جبال الألب فى يوليه سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثم عقد الامبراطور مجمعا فى رونساجليا Roncaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه فى تعيين حكام امبراطوريين (Podesta) فى المدن اللمباردية يشرفون على سك العملة وجمع الضرائب (٢) •

على أن الأمور لم تتم للامبراطور فى شمال ايطاليا فى سهولة ويسر ، اذ توفى البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى تلقب باسم اسكندر الثالث ، والذى ظل فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ — ١١٨١) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها ، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التى رأيناها فى الدور الأول • وكان أن تألف تحالف بين صقلية والبابوية وميلان مما أخل بالتوازن الذى حققه فردريك فى ايطاليا سنة ١١٥٤ — ١١٥٥ (٣) • وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحريض من البابوية ، فطردت الحكام الامبراطوريين وأخذ يشتد فيها شعور التعصب العنصرى ضد الدخلاء الألمان • وهنا واجه فردريك الموقف

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 279.
(2) Cam. Med. Hist, Vol. 5, p. 427.
(3) Barraclough: op. cit. pp. 181 182.

بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها ـ كما فعل مع كريما Crema ـ • أما ميلان فقد صمدت وقاومت حصار الامبراطور ثلاث سنوات حتى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢ ، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده ، وبذلك أصبح الامبراطور سيد الموقف فى شمال ايطاليا (١) •

أما عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فانه كان يعرف اخلاقه وآراءه جيدا ، لأن اسكندر البابا لم يكن سوى رولاند الكاردينال الذى أزعجت شدته الامبراطور فى مجمع بسانسون سنة ١١٥٧ • ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة الى سلاح الامبراطورية القديم ، وهو تعيين فكتور الرابع بابا امبراطوريا منافسا للبابا اسكندر الثالث (٢) • واذا كان اسكندر الثالث قد اضطر الى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه ، الا أنه ظل متمسكا بموقفه ، لا سيما بعد أن تم عقد مجمع دينى سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وقرر كبار الأساقفة فى هذا المجمع الاعتراف ببابوية اسكندر الثالث والوقوف الى جانبه • وقد شجع هذا القرار البابا اسكندر الثالث على الفرار الى فرنسا بعد أن سقطت ميلان فى يد الامبراطور سنة ١١٦٢ وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر فى ايطاليا (٣) وفى العام التالى ـ أى سنة ١١٦٣ ـ عقد اسكندر الثالث مجمعا فى تور أصدر قرار الحرمان ضد البابا الامبراطورى فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة (٤) •

وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته الى ألمانيا سنة ١١٦٢ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا الى جانب البابا اسكندر

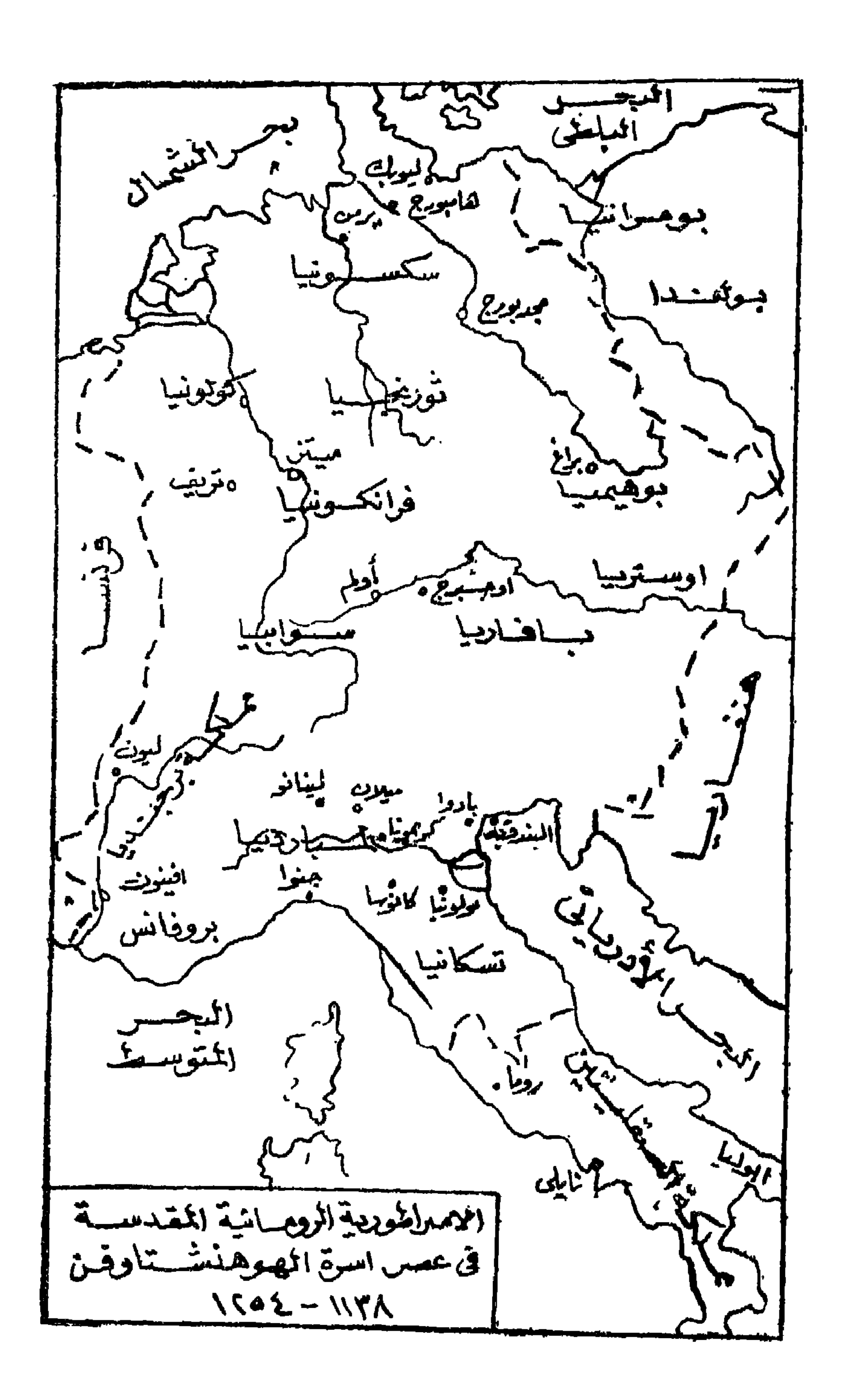
---

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 497.
(2) Hayward: op. cit. p. 185.
(3) Lavisse, op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 39.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 257.

الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والامبراطورية ، الا أنه لم يتأثر بهذه الازمة وأصر على موقفه . وعند وفاة البابا الامبراطورى فكتور الرابع أثناء زيارة الامبراطور لايطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤ ، اختار الامبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله (١) . وفى تلك الأثناء أخذ الحكم الالمانى فى شمال ايطاليا يتصف بالقسوة والخشونة حتى أصبح الايطاليون يعاملون على أنهم أعداء الامبراطور لا رعاياه . وليس هناك من شك فى أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الامبراطورية وأهدافها ، حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الامبراطورى (٢) . وفى ذلك الوقت لم يستطع البابا الامبراطورى باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه فى روما ، كما أن تلك الأخبار شجعت اسكندر الثالث على المغامرة والعودة الى ايطاليا سنة ١١٦٥ ، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور (٣) . وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللمباردية ، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ، مما جعل الامبراطور يعجل بالعودة الى ايطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦ . وفى تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللمباردية (٤)، وانما اختار أن يستأصل « رأس الأفعى » فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت فى يده سنة ١١٦٧ ، وعندئذ كانت خيبة أمل الامبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه اسكندر الثالث تمكن من الفرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان (٥) . ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول روما فى تلك السنة ليتوج امبراطورا ــ للمرة الثانية ــ بيد البابا الامبراطورى باسكال الثالث . وجدير بالملاحظة أن العداء بين الامبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده فى هذه المرحلة ، فلم يحاول الامبراطور فردريك بربروسا اكتساب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى جانبه

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.
(2) Barraclough: op. cit. p. 182.
(3) Hayward: op. cit. p. 186.
(4) Eyre: op. cit. p. 166.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.



الامبراطورية الرومانية المقدسة
فى عصر اسرة الهوهنشتاوفن
١١٣٨ - ١٢٥٤

ضد النورمان حلفاء البابا ، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقى والعدو اللدود للامبراطور البيزنطى (١) •

ثم كانت أن أخذت المصائب تترى على الامبراطور ، فانتشر الطاعون فى جيشه وفتك برجاله فتكا ذريعا ، مما جعل المعاصرين يفسرون ذلك فى ضوء غضب الله ولعنة البابا اسكندر الثالث على الامبراطور • وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللمباردية ، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللمباردى سنة ١١٦٨ الذى اتسع حتى شمل جميع مدن سهول ايطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية ، ومن برجامو حتى بولونيا • وهكذا انسدت المسالك فى وجه الامبراطور فردريك بربروسا بحيث أنه لم يستطع العودة الى ألمانيا فى ربيع سنة ١١٦٨ الا بمشقة بالغة (٢) • وسرعان ما اكتسب الحلف اللمباردى قوة جديدة عندما باركه البابا بانشاء مدينة جديدة تحمل اسمه — هى مدينة ألسندريا أو اسكندرية — Alessandria الى الشمال الغربى من جنوا (٣) •

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللمباردية مدة ست سنوات توفى أثناءها البابا الامبراطورى باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحل محله كالكستس الثالث • ولكن ايطاليا أصبحت من الناحية العملية خارج نفوذ الامبراطور فى الوقت الذى ازداد نفوذ البابا اسكندر الثالث زيادة كبيرة حتى فى ألمانيا نفسها • على أن الامبراطور فردريك بربروسا لم يكن بالرجل الذى يرضى بهذا الوضع ، وهو صاحب العقيدة الراسخة فى عظمة الامبراطورية وسموها • لذلك قام بحملته الخامسة علىَ ايطاليا سنة ١١٧٤ ، وحينئذ تأهبت المدن اللمباردية للدخول من جديد فى صراع رهيب ضد الامبراطور (٤) • ولا يعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة — بين حروب ومفاوضات — سوى

---

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 342.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 259.
(3) Hayward, op. cit. p. 187.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 445.

موقعة ليناتو ، Legnano الى الشمال الغربى من ميلان ، وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللمباردى من جهة والجيوش الامبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦) • ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فعلت فعلها عندئذ لتجمع مختلف المدن فى شمال ايطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم (١) • وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الامبراطورية ، ولم يستطع فردريك الأول الفرار الى بافيا الا بمشقة بالغة • وثمة أهمية أخرى لهذه الموقعة ، هى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوربا الحربى ، نظرا لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش امبراطورى يتبع النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفتها أوربا منذ القرن التاسع (٢) •

أما عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد ليناتو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللمباردية عن مطاردة الامبراطور وفلول جيشه ، بل ان بعض المدن ــ مثل كريمونا ــ أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الامبراطور (٣) • ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه ــ مثل رئيس أساقفة كولونيا ــ بالانشقاق عنه ان لم يسو أموره تسوية سريعة مع البابا • أما البابا اسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ كفاية سياسية ، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور سنة ١١٧٦ (٤) • وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب اصرار البابوية على شروطها وتمسكها بآرائها ، حتى انتقل البابا الى البندقية فى مارس سنة ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات • وأخيرا لم يجد الامبراطور فردريك مفرا من الخضوع والتسليم ، فدخل البندقية حيث كان البابا اسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة (٥) • ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام

---

(1) Bryce: op. cit. p. 175.
(2) Eyre: op. cit. 166.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 262.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 502.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 448.

بالضبط ، فأتى الامبراطور فردريك الأول العظيم ، خليفة قيصر وشارلمان ، ليرتمى بين قدمى البابا اسكندر الثالث باكيا طالبا منه الصفح والغفران ، مثلما فعل سلفه — العظيم أيضا — هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٧ (١) .

وهكذا تم الصلح بين الامبراطورية والبابوية فى أغسطس ١١٧٧ ، فوافق فردريك الأول على رد جميع الأراضى المغتصبة من البابوية ، وتعهد كل من الطرفين بمساعدة الطرف الثانى ضد أى عدو يهدده . هذا علاوة عما وافق عليه الامبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان فى صقلية لمدة خمس عشرة سنة ، وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات (٢) . وقبل أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تم توقيع صلح كونستانس سنة ١١٨٣ بين المدن اللمباردية والامبراطورية ، وهو الصلح الذى نص على أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى والحربى ، مع احتفاظ الامبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية ، مثل موافقته على تعين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة فى نفقات الجيوش الامبراطورية . على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفى الحقيقة الواقعة وهى أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة بمقتضى معاهدة كونستانس ، وأن نفوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا أضحى اسما ، مما أدى الى تفكك الامبراطورية وانفصال ايطاليا عن ألمانيا فى تطورها (٣) .

الامبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧ :

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الامبراطور وايطاليا عقب صلح البندقية فرصة لفردريك الأول ليوجه عنايته نحو شئون ألمانيا ، بعد أن شغلته الأحداث الايطالية عنها طويلا . وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 263.
(2) Barraclough: op. cit. p. 183.
(3) Bryce: op. cit. p. 175.

الامبراطور فى ألمانيا هو هنرى الأسد الذى استغل فرصة انشغال الامبراطور ليحصل على امتيازات واسعة ، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه فى الشمال والجنوب ، حتى غدا خطرا حقيقيا هدد الامبراطور فضلا عن بقية الأمراء • هذا الى أن زواج هنرى الأسد من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا (١) ، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الانجليزى ، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الامبراطورية • وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة فى مشروعات هنرى الأسد لضم الدانمـــرك وفى البعثـــات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، على الرغم مما كان من عداء شديد بين هذا الامبراطور والامبراطور فردريك بربروسا • بل ان هنرى الأسد تعمد زيارة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة مما أثار الشكوك بأنه يتآمر مع الامبراطور البيزنطى ضد فردريك (٢) • لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنرى الأسد فأنزل به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنرى سوى أجزاء محدودة (٣) •

ثم كان أن أحرز الامبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنرى من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٤) • ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدى فى المستقبل الى التوحيـــد بين الامبراطورية ومملكة صقلية مما يجعل الأملاك البابوية فى وسط ايطاليا تقع بين شقى الرحى (٥) • ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الامبراطور فردريك الأول من توفيق فى تلك المرحلة ، اذ أن الحلف اللمباردى تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الامبراطورى ، فاشتد التنافس فيما بينهما ، مما مكن الامبراطور من النفاذ الى شئون ايطاليا مرة أخرى •وصادف

(1) Adams: The Hist. of England pp. 291—292.
(2) Barraclough: op. cit. p. 187.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200—201 & 507.
(4) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 280.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 453.

أن توفى البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا فى روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه فى منصبه بين سنتى ١١٨١ ، ١١٩٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا فى الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذى أهمية فى التاريخ (١) • وقد أوشك النزاع بين البابوية والامبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث فى تتويج هنرى — ابن الامبراطور فردريك الأول — فى حياة أبيه ، ثم تجدد النزاع فعلا فى عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ — ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والامبراطور رئيسا لأساقفة تريير Trier وتمسك كل منهما برأيه (٢) • وسرعان ما تألف حلف ضد الامبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أساقفة كولونيا وهنرى الأسد ، ولكن موقف الامبراطور أصبح قويا بعد أن استمال اليه أعداءه القدامى فى ايطاليا وألمانيا ، وعلى رأسهم مدينة ميلان التى شهدت الاحتفال بزواج هنرى ابن الامبراطور من الأميرة كونستانس •

وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بالبابا وحلفائه فى ألمانيا وايطاليا الا أن أوربان الثالث أصر على موقفه واستعد لاصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور، فى الوقت الذى جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضى المقدسة سنة ١١٨٧ • وبعد ذلك بأيام قلائل توفى البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجورى الثامن على لم شعث القوى المسيحية لارسال حملة جديدة الى الشرق تثأر لما حل بالصليبيين على أيدى صلاح الدين (٣) • على أن هذا البابا لم يمكث فى منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفى بعدها فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ — ١١٩١) الذى استأنف سياسة سلفه فى ضم صفوف الغرب المسيحى فاسترضى الامبراطور فردريك بربروسا بأن عزل رئيس أساقفة تريير المغضوب عليه من الفريق الامبراطورى ، كما وعد فردريك بتتويج ابنه هنرى • وهكذا عادت للامبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وايطاليا ، فنفى هنرى الأسد وثبت الأمن والنظام فى شطرى الامبراطورية (٤) • وفى سنة ١١٨٩ غادر الامبراطور فردريك

---

(1) Hayward: op. cit. pp. 189—191.
(2) Idem. p. 189.
(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 270—271.
(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 509.

بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألمانى من الحملة الصليبية الثالثة فى الوقت الذى كان الأمير هنرى الأسد يدبر له المؤامرات من منفاه فى البلاط الانجليزى • وقد انتهز هنرى الأسد فرصة سفر الامبراطور الى الشرق وعاد الى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة ، مما جعل السياسة الأوربية تمر فى تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداء انجلترا لفرنسا وبالتالى لألمانيا من جهة أخرى (١) • أما فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شاءت الأقدار أن يلقى هذا الامبراطور الشيخ حتفه غرقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل الى الأراضى المقدسة •

وكان أن جاء فى العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) الذى ورث عن أبيه مقدرته وقوة عزيمته وتشبعه بفكرة الامبراطورية العالمية(٢) • ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الامبراطورى وراثيا فى ذريته والغاء مبدأ الانتخاب فى اختيار الامبراطور، واستغلال مركز زوجته كورثية لعرش صقلية فى تدعيم نفوذه فى جنوب ايطاليا • على أن هنرى السادس لم يستطع اتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه ، وعلى رأسهم هنرى الأسد الذى ذكرنا أنه عاد من منفاه بانجلترا ليطالب بأملاكه ويستعيد نفوذه (٣) • هذا فى الوقت الذى كان وليم ملك صقلية قد ترقى فى أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون اعطاء عرش المملكة لتنكرد بدلا من كونستانس زوجة هنرى السادس والوريثة الشرعية للعرش(٤) •

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل فى نظر هنرى السادس حتى أنه صفى المسائل المعلقة بينه وبين هنرى الأسد ، ثم عبر جبال الألب الى

---

(1) Barraclough: op. cit. p. 195.
(2) Bryce: op. cit. p. 201.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460.
(4) Eyre: op. cit. p. 167.

ايطاليا فى أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالى روما وتغلب على مما طلة البابا كاستين الثالث Calestine III حتى تم تتويجه مع زوجته الامبراطورة كونستانس فى شهر أبريل من السنة نفسها(١) • وعندما زحف هنرى السادس جنوبا لاسترداد مملكة صقلية من مغتصبها تنكرد ، تنكر له الحظ بسبب مقاومة نابلى وانتشار الطاعون بين الجنود الالمان ، حتى اضطر الامبراطور الى العودة شمالاً الى المانيا(٢) • وكانت الاوضاع فى ألمانيا عندئذ تنذر بصدام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين او بعبارة اخرى بين الامبراطور وهنرى الأسد ، وفعلا قامت الحرب بين الطرفين سنة ١١٩٢ • ولم تلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة ١١٩٣ نتيجة لسياسة هنرى السادس ، وبذلك اشتدت أواصر التحالف بين الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وآل كابيه فى فرنسا ضد أفصالهم الولفيين وأمراء الراين وملك انجلترا(٣) • على ان الحظ حالف هنرى السادس ، اذ حدث فى الوقت الذى ثار أمراء الراين أن وصله خبر وقوع ريتشارد ملك انجلترا — أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة — فى أسر دوق أوستريا الذى سلمه بدوره لهنرى السادس • وقد ظل ريتشارد فى الأسر أكثر من عامين أرسل خلالها فيلب ملك فرنسا الى حليفة هنرى السادس يطلب منه عدم الأفراج عنه ، ولكن هنرى السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط قاسية(٤) • وسرعان ما تتابعت انتصارات هنرى السادس على خصومه ، فخضع أمراء الراين واستسلم هنرى الأسد وبقية حلفائه ، وبذلك أصبح هنرى السادس سيد الموقف فى ألمانيا ، مما مكنه من توجيه كل جهوده نحو ايطاليا(٥) •

وقد ساعدت هنرى السادس فى تحقيق أطماعه الايطالية المقدرة التى امتاز بها

---

(1) Hayward: op. cit. p. 191.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.
(٣) كان ملك انجلترا عندئذ يعتبر فصلا اقطاعيا لملك فرنسا بالنسبة للأراضى الواسعة التى كانت تحت سيادة الأول فى غرب فرنسا (نورمنديا وآنجو ومين وتورين وبواتو وجوين وجاسكونى) •
(4) Adams: op. cit. pp. 374—376.
(5) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 306—309.

على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتى تمر بسلام ، هذا فضلا عن انشغال المدن اللمباردية فى شمال ايطاليا بما تشب بينها من خلاف. وهنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه فى تلك الخلافات ،وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنازعة ، مما مكنه من الحصول على معونة بحرية من جنوا وبيزا فى حربه ضد صقلية ، كما حرم مملكة صقليه من الحصول على مساعدة حلفائها فى شمال ايطاليا . أما البابا كالستين Calestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لعرقلة مشروعات الامبراطورية مما جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا(١).

وكان تنكرد قد توفى عند وصول هنرى السادس الى ايطاليا سنة ١١٩٤ ، فحل محله ابنه وليم الثالث الذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية سنة ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين ، حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه فى حكمها فى حين عاد هو الى ألمانيا سنة ١١٩٥ . وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها فى ايطاليا بعد أن أصبحت الأجزاء الجنوبية فى قبضة الامبراطورية(٢) . أما هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل اليها امبراطور فى غرب أوربا منذ أيام شارلمان ، لا سيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥(٣) . ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس فى صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة فى تاريخ الامبراطورية وسياستها الخارجية ، لأن هذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان فى أراضيهم بجنوب ايطاليا وصقلية فحسب ، بل ورثوهم أيضا فى أطماعهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط وفى عدائهم الشديد للدولة البيزنطية ، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للامبراطورية المقدسة تتحول عن مجراها الطبيعى الى مجرى آخر لايتفق ومصالح الامبراطورية(٤). وبعبارة أخرى فان ضم صقلية الى الامبراطورية سبب للاخيرة مشاكل داخلية

(1) Hayward: op. cit. p. 191.
(2) Eyre: op. cit. p. 167.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.
(4) Barraclough: op. cit. p. 197.

وخارجية لم تستطع أن تتحملها ، اذ استمرت صقلية مدة ستين عاما . ...أت منذ سنة ١١٩٠ — تستأثر بجهود الأباطرة الذين صرفوا أبصارهم عن شئون ألمانيا ، حتى انتهى الأمر بانهيار أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكومه ألمانيا(١) . أما هنرى السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار ابنه فردريك الثانى ليخلفه فى عرش الامبراطورية ، ثم ذهب بعد ذلك الى ايطاليا حيث توفى سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة(٢) .

وصادف فى ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالامبراطور بعد أربعة أشهر تقريبا ، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذى امتاز بشخصية عظيمة مكنته من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادىء جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه انوسنت الثالث البابويه بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس ، وبذلك عاد الى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية مما هدد بفتح باب النزاع من جديد بين السلطتين(٣) . وربما كان من العوامل التى ساعدت أنوسنت الثالث على الظهور عدم وجود امبراطور قوى على رأس الامبراطورية الغربية ، لأنه حدث بعد وفاة هنرى السادس أن انفصل تاج صقلية عن الامبراطورية وعندئذ لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقليه وألمانيا(٤) . ويبدو أن كونستانس — الامبراطورة الوالدة — آثرت الاحتفاظ لابنها بملك صقلية ، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها ، وفى سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا . وهكذا استطاعت كونستانس أن تحكم نابلى وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فأبعدت الموظفين الألمان الذين شكا منهم الأهالى ، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨ بأن يخلفها البابا

---

(1) Ibid.
(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 512.
(3) Tout: The Empire and the Papacy: p. 314.
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 44—45.

فى الوصاية على ابنها الصغير (١) • وقد قام البابا انوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط ايطاليـــــا وشمالها بعد طرد الحاميات الالمانية من روما ، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب — بارتياح — حوادث الانقسام التى هــــددت ألمانيا بحـــرب أهلية(٢) •

ذلك أن فيليب دوق سوابيا — وعم فردريك الثانى — أسرع الى ألمانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتى انتهى الامر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ • على أن عددا كبيرا من الأمراء أيدوا أوتو — الابن الثانى لهنرى الاسد — الذى كان يعيش فى بلاط ريتشـــارد ملك انجلترا ، وعندئذ أمده ريتشارد بالمال وأرسلة الى ألمانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين(٣) ، مما جعل ألمانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وانتهت بانتصار فيلب سنة ١٢٠٧ ، ثم مقتله فى العام التالى • وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن ، فأسرع الى الزواج من ابنة غريمه فيلب ليربط بين الجلفيين والجبللينيين • هذا الى أنه عمل على استرضاء البابوية ، فقصد ايطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتلدا(٤) • وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين ، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه، فكافأه البابا على ولائه بتتويجه فى أكتوبر من العام نفسه (٥) • على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج امبراطورا اختلف كثيرا عن موقفه منها وهــــو يسعى لاكتساب عطفها للوصول الى العرش • ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفزعته سياسة البابا انوسنت الثالث وأطماعه ، فاضطر — وهو الامبراطور

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 317.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.
(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 233.
(4) Barraclough: op. cit. p. 212.
(5) Hayward: op. cit. p. 193.

الجلفي – الى اتباع سياسة خصومه من ال هوهنشتاوفن تجاه البابوية(١) • وهكذا اخذت العلاقه بين البابوية والامبراطورية تتخذ شكل حرب بارده ، فبدا أوتو الرابع يعمل على ابعاد فردريك الثانى عن عرش صقلية لادخالها تحت سلطانه ، مما افزع البابا انوسنت الثالث ، لا سيما بعد ان تمسك اوتو الرابع بحق الامبراطورية فى تركة الأميرة ماتيلدا(٢) • ولم تلبث هـــذه الحرب الباردة أن تحولت الى حـــرب ساخنة عندما شرع اوتو الرابـــع فى تنفيذ أطماعه عمليا ، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠ ثم غزا ابوليا وأخذ يتاهب لغزو صقلية بمساعدة الاسطول البيزى(٣) • وقد ارتاع البـــابا من تلك الاحداث ، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ، واباح لرعاياه الخروج عن طاعته ، كما أعلن فردريك الثانى امبراطورا • وهكذا انقلبت الاوضاع فى أوربا فاصبح أوتو الرابع – وهو ابن هنرى الأسد الولفى – يقوم بدور الهوهنشتاوفن فى مناوءة البابوية والتمسك بسيادة الامبراطورية ، فى حين أخذ البابا يساند فردريك الثانى الجبلليني سليل الهوهنشتاوفن(٤) • وكيفما كان الامر فقد آتت السياسة البابوية أكلها ، فاجتمع عدد من امراء ألمانيـــا الكارهين للامبراطور فى نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١ ، واعتبروا قرار البابا ضد الامبراطور مرسوما بعزله ، واختاروا فردريك الثـــانى ملك صقلية – وابن هنرى السادس – ملكا على ألمانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة • ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثانى ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكى الكماشة فيحيط بها النفوذ الامبراطورى من الشمال والجنوب(٥) ، ولكن الموقف الذى كان فيه البابا أنوسنت الثالث عندئذ جعله لا يفكر فى شيء سوى التخلص من أوتو

---

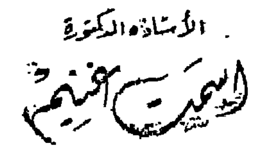
(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 318.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 621.

(5) Barraclough: op. cit. p. 212.



الرابع ، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمانيا دون أن يدرى ما سيترتب على هذا الاختيار من نتائج قريبة (١) .

أما فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية - وكان فى السادسة عشر من عمره - وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ، ثم قصد ألمانيا حيث رحبت به سوابيا وبافاريا ، حتى تم تتويجه رسميا ملكا على المانيا بيد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢١٢ (٢) . ولم يبق امام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على امارة سكسونيا ، فطلب المعونة من خاله حنا ملك انجلترا الذى كان مغضوبا عليه من البابوية هو الآخر . على أن التحالف بين فردريك الثانى وفيلب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثرا من التحالف بين ملك انجلترا وأوتو الرابع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللورين (٣) . وسرعان ما أنزل فيلب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ ، وهى الموقعة التى تعتبر نقطة تحول ، لا فى تاريخ ألمانيا فحسب ، بل فى تاريخ أوربا بأسرها . اما فيما يتعلق بألمانيا فان أوتو الرابع انسحب يجر اذيال الخيبة نحو سكسونيا حيث توفى سنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتباعه لفردريك الثانى بسهولة (٤) . وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره باعادة تتويجه فى كتدرائية آخن ، وبذلك أصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين (٥) . والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدها غرابة . ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف ايطالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفا محبا للجدل والرياضيات (٦) ، يجيد عدة لغات منها اللغة العربية ، ويتذوق الشعر

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 239.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 76.
(3) Adams: op. cit. 431.
(4) Barraclough: op. cit. p. 214.
(5) Eyre: op. cit. p. 169.
(6) Kantorowicz: op. cit. pp. 293—395.

العربى وغير العربى ، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسى ومحارب وقانونى ، حتى أطلق عليه المؤرخون « أعجوبة الدنيا » (١) • وقد شاءت الظروف تساعد فردريك الثانى فى أوائل عهده لأن البابا انوسنت الثالث توفى سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثانى من سيطرته ، ولا سيما أن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) كان هادىء الطبع ، ففضل توجيه جهود العالم العربى نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والامبراطورية •

الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

على أن جهود فردريك الثانى فى التمكين لنفسه من جهة ، واتخاذ ايطاليا وصقلية — لا ألمانيا — مسرحا أساسيا لهذه الجهود من جهة أخرى ، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية (٢) • وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثانى غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمالها — أى فى لمبارديا • حقيقة ان فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية فى ايطاليا ، ولكن سيطرة الامبراطور على جنوب ايطاليا وشمالها أنذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى ، مما جعل البابا ينظر الى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (٣) •

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل صقلية عن الامبراطورية • ولكنه عاد فأخذ يماطل فى القيام بالحملة التى وعد بها ، كما توج ابنه هنرى سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه فى حكم صقلية والامبراطورية جميعا مما ضايق البابوية وأفزعها (٤) • وفى سنة ١٢٢٠ تم تتويج فردريك الثانى امبراطورا فى روما بعد أن جدد

---

(1) Bryce: op. cit. pp. 203—204.
(2) Barraclough: op. cit. pp. 222—223.
(3) Idem, p. 228.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 364—365.

العهد بالقيام بالحملة الصليبية • ويبدو ان فردريك لم يكن جادا فى مشروعه الصليبى فى الوقت الذى كانت البابويه تتوق لارسال حملة صليبية على وجه السرعة لاصلاح الموقف الذى نجم عن فشل حملة حنــابرين على مصر (١٢١٩ - ١٢٢١) • وأخيرا لجا البابا الى تشجيع فكرة زواج الامبراطور من الاميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحه فى الذهاب الى الأراضى المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين • وفعلا تم الزواج سنة ١٢٢٥ ، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية فى ســبيل تنفيذ وعده الصليبى (١) • هذا الى أن فردريك الثانى لجأ بعد تتويجه الى فرض قوانين مشددة على رجال الدين ترمى الى الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم ، كما عقد مؤتمرا فى كريمونا سنه ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوقه الامبراطورية كاملة فى السيطرة على لمبارديا ، مما أفزع المدن اللمباردية ، فجددت حلفها ضد الامبراطور وسدت ممرات الألب فى وجهه • وكان صبر البابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفذ عندئذ ، فاخذ يتأهب لتجديد الحلف بين البابوية والمدن اللمباردية ، ولكنه توفى فى مارس ســنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الامبراطورية والبابوية (٢) •

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن ، الا أنه امتاز بارادة حديدية لا تفل ، فلم يقبل الاعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية ، وأصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فورا (٣) • وكان أن أبحر الامبراطور فعلا من برنديزى قاصدا الأراضى المقدسة ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧ (٤) • وهنا يجدر بنا أن نوضح مرة أخرى أن توقيع هذا القرار على الامبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى

---

(1) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 139.
(2) Hayward: op. cit. p. 200.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 146.
(4) Kantorowicz: op. cit. p. 171.

تنفيذ وعده الصليبي فحسب ، بل أيضا تخوف البابوية من سياسة فردريك في ايطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (١) • ومهما يكن من أمر فان هذا الاجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والامبراطورية • وكانت ميلان مسئولة الى حد كبير عن فتح هذا الباب لأنها عارضت بشدة احياء النفوذ الامبراطوري في لمبارديا ، فجددت الحلف اللمباردي لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦ ، كما أنها سدت ممرات الألب في وجه الجيوش الامبراطورية الوافدة من ألمانيا (٢) • أما البابا فقد أرسل رسله ومندوبيه الى كافة انحاء ايطاليا وألمانيا لابلاغ الناس القرار البابوي ضد الامبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته • على أنه يبدو أن الامبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة ، وظل ثابتا في مركزه يرقب فشل عملاء البابا في تحريك الثورة ضـــده ، بل على العكس نجح دعاة الامبراطور في اثارة فتنة ضد البابا في روما مما اضطر جريجوري التاسع الى الفرار منها سنة ١٢٢٨ (٣) •

وأخيرا أدرك فردريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملته الصليبية المزعومة حتى يبدو في ثوب المجاهد في سبيل الغرض الصليبي ، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة في سبتمبر سنة ١٢٢٨ • ويفهم من حوادث هـذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثاني لم يخرج الى الشرق بقصد الحرب ، وانما كان يبغي مفاوضة المسلمين للحصول على كسب سريع • ولم تلبث هذه المفاوضة أن انقلبت الى نوع من الاستعطاف ، وهو السلاح الوحيد الذي كان يملكه فردريك الثاني عندما قدم الى الشرق في بضع مئات من أتباعه • وتشير بعض المراجع المعاصرة الى أن فردريك كان يبكي في بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود الى الغرب فاشلا ليواجه البابوية وبقية أعدائه في ايطاليا وألمانيا (٤) • ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثاني الى السلطان الكامل الأيوبي أثناء المفاوضات يقـــول

---

(1) Creighton: A Hist. of the Papacy, p. 26.
(2) Barraclough: op. cit. p. 230.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 367-368.
(4) Kantorowicz: op. cit. p. 185.

فيها « أنا مملوكك وعتيقك . وليس لى عما تأمره خروج ! وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم .. ! (١) » .

وهكذا استطاع فردريك الثانى أن يكتسب عطف السلطان الكامل ، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للامبراطور الذى استطاع أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبية الضخمة التى وفدت الى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقـــدس سنة ١١٨٧ . وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيامة فى بيت المقدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده باطل ! ، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة (٢) . وهنا نلاحظ أن تتويج الامبراطور لنفسه فى هذه المناسبة له مغزى عميق ، اذ ربما أراد الامبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتة فى تلك الكنيسة ذات الأهمية العظمى أنه لم يتلق التاج الامبراطورى من رجال الدين ، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة . هذا وان كانت بعض المراجع المعاصرة تفسر تتويج الامبراطور لنفسه بأن رجال الدين فى بيت المقدس امتنعوا عن تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، مطرود من رحمتها (٣) . ومهما يكن من أمر فان اقامة فردريك الثانى لم تطل فى الأراضى المقدسة ، اذ عاد سرعة الى ايطاليا ليجد قوات البابا جريجورى التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه فى جنوب ايطاليا . بلَ بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الامبراطور فى الشرق ليضعف مركزه فى ايطاليا وألمانيا ، واستغل هذه الفرية ليستولى على الأملاك الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الامبراطور الى أحد أصدقائه المسلمين فى الشرق بعد

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل البـاب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(2) Kantorowicz: op. cit. p. 199.
(3) Ibid.

عودته (١) • لذلك وقع خبر وصول الامبراطور فردريك الثانى الى ميناء برنديزى (يونيو ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع ، الذى يبدو أنه كان يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما ، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل الى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضد هجوم الامبراطور المتوقع (٢) • وأخيرا لم يجد البابا مفرا من الاعتراف بما حققه الامبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس ، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الامبراطور ، وبمقتضاه رفع عنه قرار الحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية (٣) •

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والامبراطور ، لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين • ومهما يكن من أمر ، فان فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب ايطاليا وصقلية • وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الامبراطور فى ايطاليا وسياسته فى ألمانيا ، اذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى ايطاليا عن طريق اضعاف الأمراء الاقطاعيين ، اذا به يعتمد على أمرائه

---

(١) أرسل الامبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته الى ايطاليا الى الأمير فخر الدين ، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس • وفى هذه الرسالة الطريفة يحكى الامبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه ، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عدائى متبادل بين البابوية والامبراطورية عندئذ ، فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيصر العظيم امبراطور رومية فردريك ••• وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا • فنشعره أن البابا باء بالغدر والخديعة • أخذ احدى قلاعنا المنيعة • واضطر الى أن زعم أننا متنا وحلف القرذنالية (الكرادلة) على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل ، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا •• » •

أنظر المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأبى الفضائل الحموى •

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(3) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 147.

الألمان فى امداده بالقوة اللازمة لتنفيذ سياسته الايطالية (١) • لذلك اضطر الامبراطور الى ترك الحبل على الغارب بالنسبة للامراء الألمان ، مما أدى الى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الألمانية تنمو لتتحول الى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل• وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفـــوذ الامبراطور فى ايطاليا ، مما دعى الى تجديد الحلف فيما بينهما سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك (٢) • ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضـــد الامبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الأمراء الاقطاعيين حتى تمكن من انزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى عند كورتنوفا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٨ ، وبذلك ثأر فردريك الثانى لما حل بفردريك الأول فى لينانو سنة ١١٧٦ (٣) • ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرعت الى عقد الصلح مع الامبراطور ، بل ان ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى اصبح لا يضم سوى ست مدن ، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد ، وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول الى تسوية سرية سريعة (٤) •

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد مع الامبراطورية ، ولا سيما أن الاستياء بلغ به حدا كبيراً عندما أخذ فردريك الثانى ـ عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ ـ يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضد البابا (٥) • وفى سنة ١٢٣٨ ـ ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ـ للمرة الثانية ـ ضد الامبراطور فردريك الثانى ، كما حرض رعاياه على الثورة ضده ، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الامبراطورية على أخ لملك فرنسا ، ولكن لويس التاسع لم يهتم بنداء البابا الذى

---

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 370.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, n. 151.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 629—630.
(4) Barraclough: op. cit. p. 230.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 135.

وجهه اليه فى أكتوبر سنة ١٢٣٩ ، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التى عقدتها أمه بلانش مع الامبراطورية(١) • أما جهود البابا فى اثارة المتاعب ضد الامبراطور بألمانيا فقد منيت كلها بالفشل ، مما مكن الامبراطور من مواصلة الحرب ضد البابوية فى ايطاليا ، وهو مطمئن تماما الى ناحية الجبهة الالمانية • وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية — جنوا وبيزا والبندقية — الى جانبه ، أن يشن هجوما على صقلية ليقضى على المركز الرئيسى لفردريك ، ولكن الهزيمة التى حلت باسطول جنوا سنة ١٢٤١ خيبت أمله(٢)، فى حين أخذت القوات الامبراطورية تهاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا فى أواسط ايطاليا ، فاستولت على أنكونا ودوقية سبوليتو ، كما أصبح الامبراطور سيد رافنا وفاينزا Faenza ، بل أنه استولى على بعض المدن الشديدة القرب من روما مثل فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث أنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له(٣) • وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لاحراج مركز فردريك الثانى فى أوربا كلها سوى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالغرب لانزال اللعنه بالامبراطور • وفعلا لبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال ايطاليا وفرنسا وأسبانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١٢٤١ فى جنوا استعدادا للابحار منها الى روما • ولكن عددا كبيرا من مدن ايطاليا البحرية — وعلى رأسها بيزا — كانت موالية للامبراطور ، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تتصيد السفن الجنوية التى تنقل الأساقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى ، مما أوقع معظمهم فى أسر الامبراطور وأدى الى فشل مشروع البابا(٤) • ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الامبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا باعلان الحرب ، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراحهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجورى التاسع (أوغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسعين من عمره(٥) •

---

(1) Hayward : op. cit. p. 202
(2) Barraclough : op. cit. p. 231.
(3) Tout : The Emprie and the Papacy, p. 284.
(4) Kantorowicz : op. cit. pp. 544-546.
(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابويه كلستين الرابع ، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد ، فظل كرسى البابوية شاغرا مدة سنة ونصف - بسبب دسائس فردريك الثانى - حتى اختير أنوسنت الرابع فى يونيه سنة ١٢٤٣(١) . وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائرة بين الفريق الامبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثم أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول الى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين ، ولكن هذه المحادثات منيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية ، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى كافة المشاكل الكنسية المعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الامبراطورية فى لمبارديا(٢) . وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الامبراطورية ، مما جعل قوات الامبراطور - من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب ايطاليا - تهجم على الأراضى البابوية . وقد اضطر البابا ازاء هذه الأخطار الى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ الى جنوا ومنها الى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة ، وعلى رأسها مسألة النزاع مع الامبراطورية(٣) . وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب . ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء الى ملوك أوربا وحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا من أجله واكتفوا باظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين ، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها(٤) . وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى ايطاليا أنه لن يستطيع كسب المعركة ضد الامبراطورية فى

---

(1) Hayward : op. cit. p. 203.
(2) Barraclough : op. cit. p. 321.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 156.
(4) Thompson. op. cit. Vol. 2. p. 630.

ايطاليا نفسها ، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضد الامبراطور • وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير ثورنجيا ملكا على ألمانيا ، الا أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للامبراطور فى الوقت الذى أخذ فردريك الثانى يستغل كل أداة توصله الى غرضه • وكان الصراع عنيفا ـ وبصفة خاصة فى الأراضى الايطالية ـ فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فبذل البابا جهودا قوية للحيلولة دون قيام وحدة امبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتى صقلية جنوبا مما يهدد البابوية تهـــديدا خطيرا(١) • ويبدو أن الفريق الامبراطورى أحرز تفوقا ملحوظا بين سنتى ١٢٤٥ ، ١٢٥٠ حتى بات الامبراطور يحلم بعبور جبال الألب الى ليون حيث يقيم خصمه أنوسنت الرابع(٢) • ولكن فردريك الثانى فوجىء باشتعال نار الثورة فى بارما ١٢٤٧ ، حتى استطاع أهالى هذه المدينة احراز انتصار كبير على القوات الامبراطورية فى العام التالى • ويعتبر هذا الحادث نقطة تحـــول خطيرة فى تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، اذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضد الامبراطورية فثار أمراء أبوليا فى جنوب ايطاليا ، كما اشتدت مقاومة المدن المعادية للامبراطور فى شمالها(٣) • حقيقة ان الحظ ابتسم مرة للامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ عندمـــا انتصرت قواته فى شمال ايطاليا ، كما جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذى اختارته البابوية ملكا على ألمانيا(٤) • ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الامبراطور فردريك الثانى فى ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو فى طريقه من جنوب ايطاليا الى شمالها •

وبوفاة فردريك الثانى انتهت الصفة العالمية للامبراطورية الرومانية المقدسة،

---

(1) Barraclough : op. cit. p. 232
(2) Tout · The Empire and the Papacy, p. 390
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161-162.
(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390

لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالعقيدة الامبراطورية. وأصروا على سمو الامبراطورية وطابعها العالمى(١) • واذا كنا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد الى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الامبراطورية ، وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات ، الا أن ذلك لا يعنى الاقلال من شأن هذه التطورات وأثرها • وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الامبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشئونها ، مما أدى الى ازدياد نفوذ السلطات المحلية • ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وايطاليا المكانة الأولى فى برنامجه ونشاطه ، مما زاد من أهمية العنصر الايطالى فى الحكومة الامبراطورية وذلك طبعا على حساب ألمانيا • ولا عجب ، فان فردريك الثانى اعتبر نفسه صقليا قبل أن يكون ألمانيا حتى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتى سنة ١٢٥٠(٢) •على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعت ألمانيا فى طريقه وقتئذ ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزا عالميا للتجارة فى غرب أوربا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الآداب والقانون والنشاط التشريعى ، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين حباهم فردريك الثانى بقسط من رعايته • وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقا وشمالا حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضى البلطيق والدانمرك فضلا عن العناصر السلافية فى الشرق(٣) •

ومهما يكن من أمر ، فاننا نكرر القول بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية بوفاة الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، وأن ظلت اسميا حتى القرن التاسع عشر • وقد حدث أن توفى كونراد الرابع ابن

---

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 164
(2) Barraclough : op. cit. p. 219-220.
(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 373

فردريك الثانى سنة ١٢٥٤ ، وأعقبت ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الأهلية دون امبراطور يحكمهـــا أو يسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى . وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الامبراطورية العالمية ، اذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الامبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى ايطاليا(١) . ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى ، اذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى(٢) . . وقد شعرت هذه المدن بحاجتها الى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها مما أدى الى مولد « عصبة الراين » حوالى سنة ١٢٥٤ التى تألفت من عدة مدن أهمهـــا مينزوورمز وبازل وستراسبورج ، كما أن التحالف الذى تم بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع أساس العصبة الهانزية Henseatic League

أما قصة النزاع بين البابوية الامبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه السلبى بعد أن عجز الأباطرة عن اخضاع البابوية وادخالهم تحت سيطرتهم . ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية ، اذ ظل الأباطرة يستندون الى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى ، دون أن يحسبوا حسابا لروح العصـــــور الوسطى ــ عصور الايمان والدين . أما البابوات فكانوا يستندون الى دعائم أقوى وأكثر تغلغلا فى نفوس الناس ، لأنهم استمدوا قوتهم من نفـــوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد . وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأياديهم مفاتيح الجنة والنار . فاذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فان هذه الدنيا ليست الا عرضا زائلا

---

(1) Bryce : op. cit. p. 210.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112-113.
(3) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 637.

لا يلبث أن ينتهي بالموت ، وعندئذ تصبح الكلمة في حياة البقاء والخلود للدين ولأهل الدين . ويكفي قول المسيح للحواريين « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء(١) » .

---

(١) العهد الجديد - انجيل متى - الاصحاح الثامن عشر ، ١٨ .

فهرس الموضوعات